سلسلة تفسير

الكتاب المقدس يتحدث اليوم



العهد القديم

سفر التكوين

الجزء الأول

BST

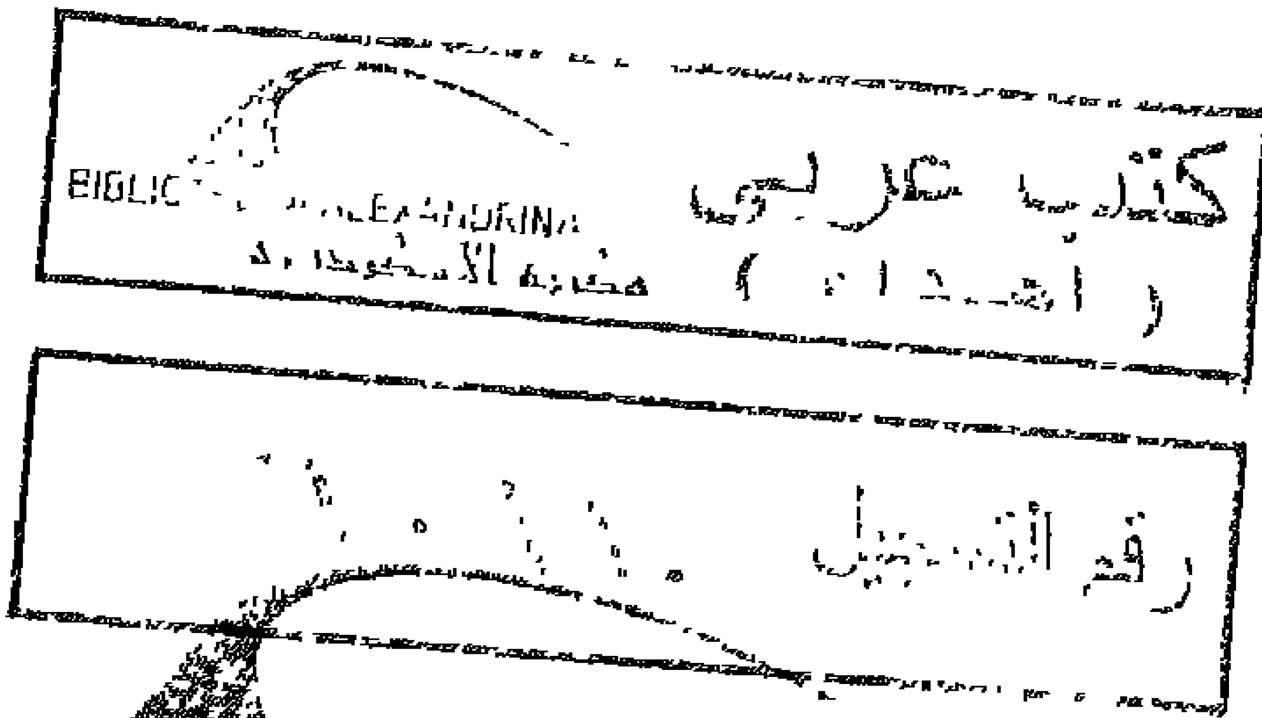
سلسلة
تفسير

الكتاب المقدس يتحدث اليوم

العهد القديم

سفر التكوين

الجزء الأول



تأليف
ديفيد أتكنسون

ترجمة
نكلس نسيم

مراجعة
وليم وهبه
د. صفوت منير

المحرر المسئول : ملاك نصر



The Bible Speaks Today
The Message of Genesis I
By: David Atkinson.
c 1990
This Translation of **The Message of Genesis 1-11** first published in 1990 is published by arrangement with **Inter-Varsity Press,** Leicester, United Kingdom.

الطبعة الأولى

الكتاب:.................. سفر التكوين [الجزء الأول]

الناشر:........................ دار النشر الأسقفية.

ص. ب: ٧ قصور الشوام. القاهرة

المؤلف:........................ ديفيد أتكنسون

المترجم .... نكلس نسيم

الجمع التصويري والتصميم الداخلي: دار النشر الأسقفية

تصميم الغلاف:.................. هوزانا ستوديوز

رقم الإيداع:.................... ٩٩/١٥٣٨

الترقيم الدولي:.................. 977 - 5884 - 13 - 6

المطبعة:........................ كونكورد. ت: ٢٠٥٧٩٠٢

تقديم .. وإهداء

إنه ليسعدني كثيراً أن أهدي هذه السلسلة الرائعة: "الكتاب المقدس يتحدث اليوم"، لجميع القرَّاء بالعربية: منهم القارئ العادي ومنهم المتخصص أو الباحث أو اللاهوتي، حيث أشرف عليها وكتب فيها مشاهير الوعَّاظ واللاهوتيين في عصرنا الحاضر، وهم: جون ستوت John R. W. Stott، وموتييّه J. A. Motyer، وغيرهما من الذين قدموا لنا هذه السلسلة؛ حتى يستمتع بها القارئ وهو يصغي لما يقوله الروح القدس، من خلال العهدين القديم والجديد، في شرح ينساب بسهولة وجاذبية.

وهي لذلك، لا تُعتبر مجرد سلسلة في كتب التفاسير، بل هي وسيلة فعَّالة للبناء الروحي لكل إنسان.

وإنني انتهز الفرصة لأقدِّمها في وقتنا الحاضر، وقت الاستعداد للمجيء الثاني للسيد المسيح، ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، حيث بزوغ فجر الألفية الثالثة. مع تقديرنا العميق للكثير والعديد من المساعدين والمساهمين معنا بمحبة في هذه السلسلة، في جميع مراحل إعدادها شكلاً ومضموناً؛ حتى تخرج السلسلة بالمستوى الذي يمجِّد الله القدوس. أصلّي أن يستخدمها الله، لبناء كنيسته، ولمجده في حياة كل من يقرأها.

المُحب،

المطران الرئيس / غايس عبد الملك

رئيس الكنيسة الأسقفية بالقدس والشرق الأوسط

هذه السلسلة

إن سلسلة: "**الكتاب المقدس يتحدث اليوم**" **The Bible Speaks Today**، تجمع شرحاً لكل من العهد القديم والعهد الجديد، في محاولة صادقة منها لأن تتميز بثلاث ميزات:

- شرح دقيق لنصوص الكتاب المقدس.
- ربط لهذه النصوص بالحياة المعاصرة التي نحياها اليوم.
- سهولة ووضوح في العرض والتحليل.

وبالتالي، فهذه السلسلة، **ليست مجرد "سلسلة تفاسير"، بالمعنى المألوف**، حتى لا تقتصر على مجرد الشرح دون التطبيق العملي له؛ فتصير مرجعاً دراسياً بحتاً على حساب الجانب الأدبي الجمالي.. كما أن هذه السلسلة، وعلى الجانب الآخر، **ليست مجرد نوع من "العظات"** في قضايا الحياة المعاصرة، دون أساس كتابي عميق..

لذلك.. فقد اتحد جميع المساهمين في هذه السلسلة على هذه المبادئ، **واتفقوا على أن الله مازال "يتحدث" من خلال ما نطق به سابقاً**، حيث لا يوجد شيء أهم للحياة السليمة النامية في المسيحية، من الإصغاء إلى ما يقوله لنا الروح القدس، من خلال كلماته الخالدة المعاصرة دائماً.

محررا السلسلة

جون ستوت
John. R. W. Stott

ج. أ. موتييه
J. A. Motyer

المحتويات

صفحة

تقديم وإهداء ٣

هذه السلسلة ٥

مقدمة المؤلف ٩

ترتيب الأحداث، لسفر التكوين- الجزء الأول ١٢

١- الباب الأول : الجلال والسر ١٥

٢- الباب الثاني : الطرد من الجنة ٦٣

٣- الباب الثالث : حسد وامتنان ١٢٧

٤- الباب الرابع : مركز العاصفة ١٥٧

٥-الباب الخامس : أقواس قزح في عالم ساقط ١٩٩

٦- الباب السادس : الله هو رجاؤنا وقوتنا ٢٢٣

- قائمة المراجع - بالنص الأصلي ٢٤٩

مقدمة المؤلف

طوال فترة عملي في هذه الدراسة، كنت ممزّقاً في صراع عميق بين الإدراك لحجم المسئولية من ناحية، وشعور غامر من الدهشة، من الناحية الأخرى. ولقد جاء الخوف نتيجة ما خطر على بالي من تساؤل، وهو: هل تبقَّى شيء على الأرض يمكن قوله فيما يتعلق بالجزء الأول من سفر التكوين(١-١١)؟

فالواقع أن هذه الأصحاحات تخبرنا ذاتها. على أية حال. بما هو أفضل بكثير مما قاله عنها معظم الذين حاولوا تفسيرها. ومحاولة قول أي شئ عن موضوعات عظيمة، مثل:خلق العالم.. والشر.. والموت.. والنعمة.. والدينونة.. والرجاء، وبطبيعة الحال الحياة.. والكون.. وكل شيء، في إطار حيز كتاب في مثل هذا الحجم، ما هي إلا ضرب من الخيال.

ومع ذلك ،فإن أصحاحات سفر التكوين (١-١١) إنما تثير الدهشة؛ الدهشة من عظمة الله في قدرته على الخلق ، وفي رحمته ومحبته ، وفي الدينونة الرهيبة، وفي الرجاء المُعطى الحياة. ولقد وجدت أن مشاعر الدهشة هذه، تزداد عمقاً، كلما واصلت العمل في هذا الكتاب. فالأصحاحات (١-١١) من سفر التكوين، تُعد في الحقيقة مدخلاً لسائر أسفار الكتاب المقدس. وإني لأصلي أن استعراضها ثانية على هذا النحو، يعطي لنا أن نسمع شيئاً عن عظمة ومحبة الله ، الذي أعلن عن ذاته في شخص المسيح، الذي هو محور الكتاب المقدس كله.

ولقد سبق لجزء من هذه الدراسة، أن طُرح في بعض اجتماعات تفسير الكتاب المقدس الأسبوعية، التي دُعيت إليها، كي أحاضر فيها في "قاعة ويكليف".وبعضها أستُخدم ثانيةً، كأساس لبعض التأملات في دراسات روحية، عُقدت بكلية مانسفيلد، بأكسفورد.كما أني استفدت كثيرا من ردود فعل أولئك الذين حضروا هاتين الحلقتين الدراستين، وكذلك من التعليقات الحكيمة لبعض الزملاء على المسودة الأولى للكتاب، وكذلك من أستاذي السابق "أليك موتييه" Alec Motier.

أما الخلوة السنوية لجمعية العلماء المرتسمين (The Annual Retreat of the Society of Ordained Scientisis) - والتي كما يُفهم من اسمها، تضم مجموعة من العلماء العاملين ،

الذين إلى جانب عملهم قد رُسموا قسوساً في الكنيسة - فقد أتاحت لي الدخول في محادثات مثمرة.

ويتعين عليّ أن أقول شيئًا عن المنهج الذي اتّبعته في هذا الكتاب. فهذه الأصحاحات - كما هو معروف تماماً - كانت محل مناقشات بين الدارسين، فيما يتعلق بأصلها وكاتبها. والاعتقاد الذي ساد لفترة طويلة بأن كاتبها هو موسى، قد تلاشى من أذهان كثير من العلماء إبّان القرن الماضي. فقد توصلوا إلى الرأي القائل بأن هناك أنماطاً عديدة من الكتابات الأدبية من مصادر متباينة، تعود إلى أزمنة مختلفة، قد ضُمِّنت معاً في النص الموجود في كتابنا المقدس. وخلال العشرين سنة الماضية تقريباً، بُذل جهد كبير في فحص هذا النص. ومن الحق أن نقول، إنه لا يزال هناك الكثير مما لا يتسم بالوضوح. وحتى لو تم الاتفاق على أن سفر التكوين يستخدم مصادر كثيرة، فإنه من الصعب رسم الحدود لتلك المصادر. فضلاً عن أنه أصبح هناك تأكيد جديد على قبول النص، كما هو، في النسخة المتداولة الآن في كتبنا المقدسة، كعمل متكامل من الوحي المقدس. وأياً كانت آراء البعض منا عن الكاتب أو الكُتّاب أو المحررين الذين اشتركوا في كتابته، تظل الحقيقة الثابتة، وهي أن هذا النص في صيغته القانونية المعترف بها في الكتاب المقدس، والتي يتداولها المسيحيون من البداية، قد قُبل باعتباره الأصحاحات الافتتاحية لكتابهم المقدس. وهذا النص ككل، هو ما كان موجوداً أمام كتبة العهد الجديد، وهو الذي من خلاله وصلتنا الكلمة الإلهية.

ولذلك، فإنه في الوقت الذي حصلتُ فيه على معونة كبيرة من التفاسير التي تعكس وجهات نظر علماء عديدين فيما يتعلق بسفر التكوين، (وكذلك من سلسلة العظات الرائعة التي كتبها "هيلموت ثيليك" Helmut Thielicke بعنوان: "كيف بدأ العالم") ، إلا أنني تناولت النص-إذا جاز القول-من خلال عيون محرره الأخير، أياً كان هذا الشخص ، وأياً كان الوقت الذي أتمه فيه.

وجدير بالذكر أن والدي، من خلال حياته ومحبته ووعظه، قد ساعدني على فهم حياتنا الإيمانية. ولذلك، يسرني أن أهدي هذا الكتاب لذكراه، وكذلك إلى أمي العزيزة.

ديفيد أتكنسون

ترتيب الأحداث. لسفر التكوين [الجزء الثاني]

الشاهد	المشهد	صفحة
[١: ١-٢: ٣]	**الباب الأول: الجلال والسر**	١٥
	١. الجلال	١٩
	٢. السر	٢٢
	٣. بين النظام والمصادفة: افتراضات العلم	٢٤
	٤. الله الخالق	٢٧
	أ. الخلق.. من العدم	٢٨
	ب. خلق السماوات والأرض	٣٠
	ج. الأرض.. خربة وخالية	٣٢
	د. الخلق.. بالروح والكلمة	٣٥
	ه. الخلق.. كجنسة	٣٩
	و. خلق النجوم	٤١
[١: ٢٦-٣١]	٥. مكان الإنسان	٤٥
[١: ٢٦-٢٧]	٦. صورة الله	٥٢
	٧. إنه حسن	
	أ. البركة	
	ب. الطعام	
	ج. الجود	
	- تمتع بالعالم!	٥٣
[٢: ١-٣]	٨. اليوم السابع	٥٥
	أ. الزمن	
	ب. السبت	٦٠
[٢: ٤-٣: ٢٤]	**الباب الثاني: الطرد من الجنة**	٦٣
	- ياله من غموض!	٦٥
[٢: ٤-٢٥]	أولا: الحياة في الجنة	٦٨
[٢: ٤أ]	١. القصة المتواصلة	
[٢: ٤ب]	٢. الأرض والسموات	٧٠
[٢: ٤-٧ج]	١. أرض وحياة	٧٢
[٢: ٧ب]	٤. كائن حي	٧٤
[٢: ١٠-١٤]	٥. المياه	٧٦
[٢: ٨-٩،١٥-١٧]	٦. الجنة	٧٧
	أ. البستاني يعمل	
	ب. القدرة الإبداعية	٧٨
	ج. الجمال والحرية	٧٩
	د. في الوسط.. شجرة الحياة	٨١
	ه. تناقض الحرية!	٨٣
	و. المعرفة	٨٤
[٢: ١٨-٢٥]	٧. الإقامة، والسلطان، والشركة	٨٧
[٢: ١٨-٢٠]	أ. ليس جيدا أن يكون وحيدا	
	ب. السلطان والتسمية	٨٨
[٢: ٢١-٢٥]	ج. امرأة	٨٩
	٨. الخليقة.. والجنس	٩٢
[٢: ٢٤]	٩. الزواج	٩٦
	١٠. عريانان.. وهما لا يخجلان	١٠٢
[٣: ١-٢٤]	ثانيا: آدم... "أين أنت؟!"	١٠٣
[٣: ١-٥]	١. الحية	١٠٤
	٢. تحليل التجربة	١٠٧
[٣: ٦-١٣]	٣. تحليل السقوط	١١١
	أ. الطاعة.. تصير عصيانا!	
	ب. الانفتاحية.. تصير خجلا!	١١٢
	ج. المسئولية.. تصير سقوطا!	١١٤
	د. الحرية.. تصير أسرا!	١١٦
[٣: ١٤-٢٤]	٤. تحليل الانفصال	١١٧
	أ. البركة.. تصبح لعنة!	١١٩
	ب. الانسجام.. يصبح صراعا!	١٢٠
	ج. العمل.. يصبح شقاء!	١٢١
	د. الشركة.. تصبح عقابا!	١٢٢

ه. الحياة.. تصبح موتاً ١٢٣
٥. الوعد بالحياة ثانية ١٢٤

[٤: ١-٢٦]. . . . . **الباب الثالث: حسد وإمتنان** ١٢٧
[٤: ١-٢]. . . . . ١. الحياة تستمر ١٢٩
[٤: ٢-٥]. . . . . ٢. الحياة تبدو ظالمة ١٣٢
٣. هل هي محبة أخوية؟! ١٣٥
٤. النظام ١٣٩
[٤: ٦-٧]. . . . . ٥. المسئولية ١٤١
[٤: ٨-١٢]. . . . . ٦. حارس لأخي! ١٤٣
[٤: ١٣-١٤]. . . . . ٧. أرض نود ١٤٦
[٤: ١٥-٢٤]. . . . . ٨. علامة قايين ١٤٩
[٤: ٢٥-٢٦]. . . . . ٩. شيث ١٥٤

[٥: ١-٨: ٢٢]. . . . . **الباب الرابع: مركز العاصفة** ١٥٧
[٥: ١-٣٢] . . . . ١. من آدم.. إلى نوح ١٦٢
أ. البركة ١٦٤
ب. خط الزمن ١٦٥
ج. الدينونة ١٦٧
د. الشركة ١٦٩
[٦: ١-٤] . . . . ٢. زواج الملائكة: وتخطي الحدود ١٧١
[٦: ٥-٨: ٢٢] . . . . ٣. الله ونوح ١٧٥
أ. السيادة ١٧٩
ب. العلاقة الحميمة ١٨٠
ج. النعمة.. في الدينونة والرحمة ١٨٢
د. هل هناك علاقة حميمة في هذا العالم؟ ١٨٣
ه. طاعة نوح ١٨٤
و. الفلك ١٨٥
ز. العهد ١٨٦
- أهي معاناة البريء ؟! ١٨٩
[٨: ١] . . . . ٤. الله يتذكر نوحا ١٩١
أ. زمام العاصفة
[٧: ١١-١٢، ٨: ١-٥] . . . . . ب. المياه ١٩٢
[٨: ١-١٩] . . . . ج. عالم جديد ١٩٣
[٨: ٢٠-٢٢] . . . . د. وعد جديد ١٩٤
٥. رؤيا نبوية ١٩٦

[٩: ١-٢٩] . . . . **الباب الخامس: أقواس قزح في عالم ساقط** ١٩٩
[٩: ١] . . . . ١. بركة العهد ٢٠٣
[٩: ٢-٣] . . . . ٢. شريعة العهد ٢٠٥
أ. إرادة الله المرحلية
[٩: ٤] . . . . ب. قداسة الحياة ٢٠٨
[٩: ٥] . . . . ج. سلطة القانون المدني ٢١١
[٩: ٦] . . . . د. عقاب العدالة الإنسانية: عقوبة الإعدام ٢١٢
[٩: ٧] . . . . ه. عدالة التوزيع ٢١٤
[٩: ٨-١٧] . . . . ٣. نعمة العهد ٢١٥
[٩: ١٨-٢٨] . . . . ٤. سكر نوح ٢١٩

[١٠: ١-١١: ٣١]. . . . . **الباب السادس: الله هو رجاؤنا وقوتنا** ٢٢٣
[١٠: ١-٣٢] . . . . ١. سلسلة أجناس الأرض ٢٢٥
[١١: ١-٩] . . . . ٢. التبديد ٢٢٩
[١١: ١-٤] . . . . أ. كبرياء.. وصناعة ٢٣١
ب. غطرسة تكنولوجية ٢٣٣
[١١: ٥-٩] . . . . ج. انهيار المجتمع ٢٣٦
٣. الرجاء في مجتمع جديد ٢٤٠
[١١: ١٠-١٢: ٣] . . . . أ. مواليد سام ٢٤١
ب. إبراهيم ٢٤٣
ج. يسوع المسيح ٢٤٥

الباب الأول

الجلال والسر

[أصحاح ١:١ - أصحاح ٢:٣]

"١ في البدء خلق الله السموات والأرض. ٢ وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر
ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. ٣ وقال الله ليكن نور فكان نور. ٤ ورأى الله النور أنه حسن.
وفصل الله بين النور والظلمة. ٥ ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح
يوماً واحداً.

٦ وقال الله ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. ٧ فعمل الله الجلد وفصل
بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. ٨ ودعا الله الجلد سماء. وكان مساء
وكان صباح يوماً ثانياً.

٩ وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ١٠ودعا
الله اليابسة أرضًا. ومجتمع المياه دعاه بحارًا. ورأى الله ذلك أنه حسن. ١١ وقال الله لتنبت الأرض
عشبًا وبقلاً يبزر بزرًا وشجرًا ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. ١٢
فأخرجت الأرض عشبًا وبقلا يبزر بزرًا كجنسه وشجرًا يعمل ثمرًا بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه
حسن. ١٣ وكان مساء وكان صباح يومًا ثالثًا.

١٤ وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات و أيام
وسنين. ١٥ وتكون أنوارًا في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. ١٦فعمل الله النورين
العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم. ١٧ وجعلها الله في جلد السماء
لتنير على الأرض. ١٨ ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن.
١٩ وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

٢٠ وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد
السماء. ٢١ فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها

وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. ٢٢ وباركها الله قائلا أثمري واكثري واملائي
المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض. ٢٣ وكان مساء وكان صباح يوما خامسا.
٢٤ وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض
كأجناسها. وكان كذلك. ٢٥ فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات
الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. ٢٦ وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.
فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي
تدب على الأرض. ٢٧ فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم.
٢٨ وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى
طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. ٢٩ وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على
وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا. لكم يكون طعاما. ٣٠ ولكل حيوان الأرض وكل
طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما. وكان كذلك. ٣١
ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا. وكان مساء وكان صباح يوما سادسا.".
"١ فأكملت السموات والأرض وكل جندها. ٢ وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل.
فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. ٣ وبارك الله اليوم السابع وقدسه. لأنه فيه استراح
من جميع عمله الذي عمل الله خالقا.".

١. الجلال

يشكل الأصحاح الاستهلالي لكتابنا المقدس قصيدة من الجمال والجلال، تعد بحق ترنيمة تسبيح وتمجيد لعظمة وجلال الله الخالق. ولا يعني قولنا هذا أنها كتبت بالضرورة كترنيمة عبادة، بل بالأحرى أن عددا لا يحصى من المؤمنين - على مر الأجيال - وجدوا أن هذا الأصحاح يحفز على التسبيح. ومن خلال تناغمات تراكيبه الرائعة، نجد قلوبنا، وقد تآلفت مع موسيقى السماء، وارتفعت أذهاننا لتتأمل في الله، باعتباره مصدر الوجود وحافظه. فهذا الأصحاح يدعونا إلى أن ننحني بإتضاع، خضوعا أمام كلمته الخالقة. ثم أنه يعرفنا موقعنا في المشهد الشامل لمقاصد الله، بالنسبة لخليقته كلها.

وأمام هذا الجلال وهذه العظمة، تحرك قلب وعقل الكاتب لهذا السفر سبحا لله، الذي في مقاصده تكمن أسرار هذا العالم. وعلى غرار المرنم الذي يمجد الله في الأعالي، نجد أنفسنا مأخوذين بهذه التسبحة: "باركي يا نفسي الرب. يا رب إلهي قد عظمت جدا مجدا وجلالا لبست. اللابس النور كثوب الباسط السماوات كشقة. المسقف علاليه بالمياه الجاعل السحاب مركبته الماشي على أجنحة الريح. الصانع ملائكته رياحا وخدامه نارا ملتهبة" (مز ١٠٤ :١-٤).

وإنه من الواضح أن كثيرا من الأحداث التي وردت في الأصحاحات (١-١١)، وقعت في أرض ما بين النهرين. وعلى سبيل المثال، فإن الأحداث التي جاءت في (تك ٢: ١٠-١٤) جرت في منطقة متاخمة لنهري دجلة والفرات، وهي المنطقة التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم "بابل"، وهي التي نعرفها الآن باسم "العراق". أما (تك ١١: ١-٩) فيشير إلى أرض "شنعار"، وهو اسم آخر لنفس المنطقة. ولذلك، فإنه ليس من الغريب أن نجد أن الموضوعات التي تناولتها الأصحاحات (١-١١) بصفة عامة، ونمط القصيدة في (تك ١) بصفة خاصة؛ تتشابه من بعض النواحي مع قصة الخلق في منطقة ما بين النهرين.

فعلى سبيل المثال، نجد أن ملحمة "أتراهازيس" (Atrahasis) ، والتي كتبت سنة ١٦٠٠ ق .م على وجه التقريب، تحكي قصة خلق العالم، ثم تنتقل بعد ذلك لتروي قصة طوفان عظيم. ثم أن هناك عملا بابليا، جاء بعد ذلك بفترة كبيرة، ويدعى "إينوما إليش" (The Enuma Elish) ، يحكي أيضا قصة الخلق.

وتبدأ (The Enuma Elish) بالروح الإلهي والخراب البدائي[١]. والهدف الرئيسي لهذه الملحمة، هو تمجيد الإله البابلي الرئيسي "مردوخ"، الذي هزم الوحش الهيولي المائي، "تيامات" Tiamat. ولقد انبثق النور من الآلهة، وبعد ذلك خلقت السماء، والأرض (اليابسة)، والأجرام السماوية، وأخيرا الجنس البشري. وبعد ذلك استراحت الآلهة، واحتفلت بما عملت. ولعل مثل هذه القصص كانت معروفة لشعب الله، غير أنه على الرغم من بعض التشابهات، فإنه ما أبعد الفرق بين أساطير بلاد بين النهرين، وقصيدة الخلق الموجودة في (تك١). وفي هذا الصدد كتب جوردون وينهام يقول: "يبين كاتب (تك١) أنه كان على علم بالقصص الأخرى، ولكنه لم يعتمد عليها في كتاباته، بل بالحري هو يرفضها رفضا باتا [٢].

وبينما تتحدث "إينوما إليش" (The Enuma Elish) عن آلهة كثيرة؛ فإن سفر التكوين يعلن الإيمان العظيم بوحدانية الإله: حيث يوجد إله واحد. وبينما نجد في القصص البابلية أن روح الله والمادة الكونية يوجدان جنبا إلى جنب منذ الأزل، نجد أن سفر التكوين يعلن تميز الله وسموه على كل شيء آخر، لأنه خلق الكل بعظمة قدرته، وكل شيء يعتمد في وجوده عليه. وفي حين أن أساطير الشرق الأوسط تتحدث عن الشمس والقمر والنجوم ووحوش البحر، على اعتبار أنها آلهة قوية، فإن سفر التكوين يخبرنا بأنها مجرد مخلوقات (بل إن سفر التكوين يتجنب استخدام الكلمات العبرية "للشمس" و"القمر"، ولعل مرجع ذلك هو تفادي فهمها على أنها آلهة. وبكل بساطة، يتحدث عن "النور الأكبر" و"النور الأصغر").

وبينما نجد أن أساطير ما بين النهرين(Mesopotamian Myths) تقول بأن النور ينبثق من الآلهة، فإن سفر التكوين يقول بأن الله خلق النور بقوة كلمته.

ولذلك، فإنه على الرغم من أن سفر التكوين قد يتشابه مع القصص البابلية من حيث النمط، غير أن رسالته اللاهوتية تختلف اختلافا تاما. ذلك أن (تك١) يتغنى بجلال الله في خلق كل الأشياء، ويتحدث عن قدرته على منح الحياة. كما أنه يعطي أهمية بالغة للحياة البشرية. ومع أنه ليس للحياة البشرية في أساطير الشرق الأوسط سوى دور ثانوي- لأنها وجدت فقط لتمد الآلهة بالطعام - فإن خلق الحياة البشرية في سفر التكوين يشكل نقطة بالغة الأهمية في القصة. هذا بجانب أن الله هو الذي يدبر الطعام للبشر.

---

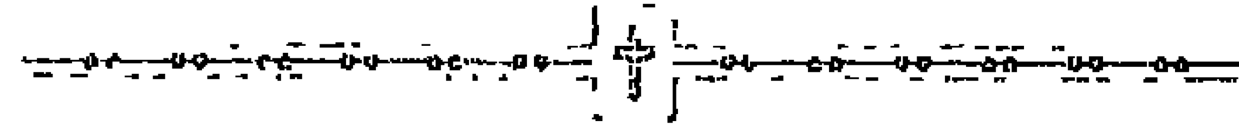
[١] يقال أنه مادة لا متشكلة، من المفروض أنها سبقت الكون (المترجم).

[٢] Wenham p. 9.

وبمقدورنا أن نتخيل كيف كان هذا الأصحاح بمثابة صخرة ثبات لشعب الله، حين واجه إغراءات الأساطير الوثنية التي كانت حوله. فعلى سبيل المثال، ربما تعرض المسبيون من شعب الله في أثناء فترة تواجدهم في بابل، لإغراء قبول أفكار من قهروهم. لكن (تك١) يدعوهم إلى الرجوع لعبادة السيد الرب الإله الواحد، **الذي في حرية كلمته الخالقة السامية، هو أصل لكل الأشياء، وكل الحياة، وكل المخلوقات وكل الناس**.

وبحسب كلمات قصيدة "جيرارد مانلي هوبكنز" Gerard Hopkins "إن العالم مليء بعظمة الله". أو كما يقول صاحب المزمور: "ما أعظم أعمالك يا رب. كلها بحكمة صنعت. ملآنة الأرض من غناك .. يكون مجد الرب إلى الدهر. يفرح الرب بأعماله" (مز١٠٤: ٢٤، ٣١).

فيوجد هنا "جلال"، كما يوجد أيضا "سر".



٢. السـر

على النقيض مما جاء في الأصحاحين (٣،٢) من سفر التكوين، حيث كانت النغمة تتسم بمزيد من الألفة؛ والنص غير متكلف، وكان الانتباه مركزا على العلاقات الإنسانية، جاء الإصحاح الأول مغايرا في بساطته الشديدة وشموخه. وهو في عظمة شموخه، يشبه سلسة جبال "روكي" العظيمة، إذا ما قورنت بحديقة بأحد الشوارع الخلفية. وكما أن سلسلة جبال "روكي" توحي لمن ينظر إليها بأنها تخفي وراءها سرا رهيبا؛ هكذا نجد الأصحاح الأول من سفر التكوين، يحتفظ لنا بأسرار الخليقة ويوجهنا إليها. فلا يزال هناك الكثير مما لا نعرفه بعد، بل ولا نستطيع أن نتفهمه عن العالم الذي نعيش فيه. **لكنه في وقار وجلال، يعلن لنا عن إعجاز الخلق الإلهي.**

والوحي المقدس، هنا، لا يحاول أن يشرح لنا كيف خلق الله الكون، ولا يريد ذلك حسبما أرى، بل أعتقد أنه ما كان ليبدي هذا الاهتمام الرهيب الذي نبديه نحن بخصوص القياس الزمني للتطور، أو طبيعة الثلاث الدقائق الأولى، فهذه ليست الأسئلة التي يعني بطرحها. ولسوف يخيب أملنا، إذا حاولنا أن نجد لهذه الأسئلة إجابات في النص. ولعلنا نريد أن نعرف كيف حدث خلق الشمس والقمر (تك١: ١٤-١٦) ، بعد النور (تك١: ٣). والوحي المقدس لم يكن بالمحدودية، بحيث لم يدرك أن هذا السؤال يثير مشكلة، ولكنه يتركنا مع هذا السر.وهو بكل بساطة يعلن لنا-دون تفسير- أن النور الإلهي لا يعتمد على أنوار الشمس والقمر.

كذلك، هناك أسئلة أخرى محيرة: لماذا لم يذكر لنا أن الله خلق المياه؟ وكل ما قاله هو أن روح الله كان يرف على وجه المياه (١: ٧)؟! وهل خلق الله الظلمة كما خلق النور (١: ٤)؟ نريد أن نعرف ذلك.

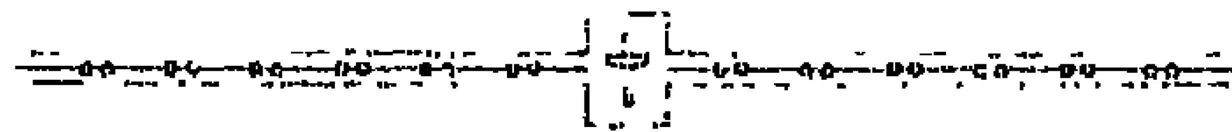
ولكن الوحي لم يعرض لهذا الأمر، ومن المؤكد أنه- وعن عمد- لم يتعرض للأسئلة التي تدور على أساس: "كيف "؟! ذلك أنه كان مهتما بشيء آخر، فهو يؤكد، ويعلن، شيئا من سر الله الذي لا يستقصي. وسوف نسيء فهم الغرض الذي يهدف إليه هذا الأصحاح، إن توقعنا أن نجد فيه إجابات على كل التساؤلات التي نطرحها اليوم عن بدء الخليقة، بناء على نتائج العلم الحديث، "فالخليقة الأولى" على أية حال، لا تقع في دائرة العلم الحديث، فهي ليست تصنيفا علميا، وأيا كان ما يفترضه العلم بشأن أصل الكون، "ونظرية الانفجار العظيم" (Big Bang) الذي وقع منذ آلاف

الملايين من السنين، فلا يمكن لأية نظرية أو نتيجة علمية أن تقرر ما إذا كانت هذه هي السبب في "الخليقة" أم لا.

وكما سيتضح لنا فيما بعد ، ليس ثمة سبب يدعونا إلى الاعتقاد بوجود تعارض بين الفكر اللاهوتي لهذا الأصحاح، وأهمية البحث العلمي. فبعض موضوعات هذا الأصحاح توحي بالاحتمالات التي يفترضها العلم، غير أنه توجد بالضرورة حدود لما يستطيع العلم أن يلاحظه ويقيسه. ويجب أن نتعلم من كاتب هذه الأصحاحات، ليس فقط أن بعضا من تساؤلاتنا سيظل دائما بلا جواب، ما دمنا في هذا العالم، بل وأن نتيح لأنفسنا أيضا أن نؤخذ بروعة عجائب الخليقة وسرها.

إننا نعرف أن الإيمان يتخطى المعرفة التجريبية. وفي هذا الأصحاح، نلمس إيماننا يظل معنا، حتى حينما يكون العالم حولنا غامضا تكتنفه الشكوك. **والإيمان- بمعنى آخر- هو ما يعطيه لنا الله؛ ليسندنا في عمق شكوكنا.** ولقد كان هذا أيضا مصدرا للقوة، بالنسبة لشعب الله، طوال تاريخهم. وكم كان الإيمان في هذا الأصحاح مصدر قوة لهم، حين تعرضوا لتجربة أن الله قد تخلى عنهم، وذلك عندما لم يستطعوا أن يروا أي هدف أو معنى في الحالة التي كانوا عليها، حين كانوا- على سبيل المثال-يجلسون على أنهار بابل ويبكون (انظر مز١٣٧: ١)، حيث فقدوا الأمل تماما في العودة إلى الوطن، وعندما وجدوا أنه من الأسهل عليهم أن يصدقوا تعييرات المشتكين عليهم، الذين كانوا يسخرون منهم، قائلين:" كم يساوي إيمانكم بالله الآن؟ ".

هناك إيمانا يسندنا لكن، حتى في الأيام الصعبة السوداء، إن كان إيمانا في الله خالق الكل. فالله هو مصدر حياتنا، ونحن أيضا لنا مكان في خطة الخلق الإلهية. ليت هذا الإيمان العميق الذي كان يتمتع به كاتب سفر التكوين، يرفع قلوبنا وأذهاننا، للتأمل في جلال الله وسره العجيب.



٣. بين النظام والمصادفة: افتراضات العلم

لقد كنا جميعا في طفولتنا، نفرح بالأشكال والرسومات. فقد كنا نرسم على الرمال أشكالا، وكنا نتطلع إلى فوق، حيث التشكيلات التي تصنعها النجوم المتلألئة فوق صفحة السماء. كما كنا نسعد كثيرا بالبلورات والكرات الثلجية، وبتكرارات الأرقام، وبالصور المتكررة بتشكيلاتها الجميلة على ورق الحائط. فإلى هذه التشكيلات والنماذج، يعود الفضل في العلم. فالعلم هو أسلوب وطريقة تعبير في البحث عن النماذج المنتظمة، التي نعتقد أن الطبيعة تتبعها.

ومن بين المميزات الكثيرة والبارزة في الأصحاح الأول في سفر التكوين، وجود النماذج والتشكيلات. فالقصة مبنية ومصممة حول أسبوع واحد من ستة أيام، تنتهي باليوم السابع. فهناك العبارة التي تتكرر بانتظام، والتي تعطي القصة تتابعا وانسيابية: **"وكان مساء وكان صباح"**. فنجد أن قصة الخلق تزداد تعقيدا، بالتدريج، بدءا بالأرض الخربة الخالية المظلمة (١: ٢) وانتهاء بالمخلوقات البشرية؛ الذكر والأنثى مخلوقين على صورة الله (١: ٢٧). الأمر الذي يعطي إحساسا بترتيب عميق، ونظام دقيق في خلق الكون. فالله يأمر بأن يكون هناك نظام وشكل معين في الكون، فتعاقب الأيام، إنما يصور لنا "التعاقب والترتيب" من "الإعداد" إلى "الإنجاز" كما يقول "جريفز توماس" Griffith Tomas، أو كما يقول "د. كدنر" D. Kidner: "من الصورة إلى الكمال".

ولقد رويت القصة، كما لو كانت على ثلاث مراحل منفصلة:

١. **في اليوم الأول،** فصل الله بين النور والظلمة (١: ٤). ويمكن اعتبار هذا اليوم موازيا لما حدث في اليوم الرابع، والذي فيه خلق الله النورين: الشمس والقمر "لحكم النهار والليل" (١: ١٦-١٨).

٢. **وفي اليوم الثاني،** فصل الله بين المياه التي تحت جلد السماء والمياه التي فوقه (١: ٧). وهذا ما يمكن أن يكون موازيا لما حدث في اليوم الخامس، والذي فيه خلق الله الطير؛ ليطير على وجه جلد السماء (١: ٢٠)، وجعل البحار تفيض بالتنانين العظام والأسماك (١: ٢١).

٣. **وفي اليوم الثالث،** فصل الله اليابسة عن البحار، وخلق الحياة النباتية. وهذا ما يمكن أن يكون موازيا لليوم السادس، والذي فيه خلق الله الحيوانات، الأليفة منها والمتوحشة، وذلك لكي تسكن الأرض، كما خلق الإنسان، ذكرا وأنثى؛ وذلك ليتسلطوا على كل المخلوقات الحية الأخرى.

فالأيام الثلاثة الأولى، عرفتنا على محتوى البيئة المخلوقة، والأيام الثلاثة الأخيرة الموازية أضفت عليها الحياة. ولقد كانت هناك ثلاث مراحل من الانفصال، وثلاثة أنواع من السلطة.

ولقد كان الخالق مهتما بالنظام والنموذج،كما كان مهتما أيضا بوضع الأشياء في تصنيفات. وقد وصف النباتات والحيوانات في مجموعات ("كأجناسها"، الأعداد ١١و٢١و٢٤و٢٥). ومبدأ الخصوبة من أجل التكاثر، وضع في الخليقة نفسها، وهذا ما نلمسه في (العددين ١١و١٢)، حيث قيل إن النباتات تبزر بزرا، والشجر يعطي ثمرا فيه بزره. كذلك نرى هذا في (العدد ٢٢)، حيث أن بركة الله مكنت الحيوانات أن تتكاثر. كما كان الخالق مهتما أيضا بأهداف النظام المخلوق: الشمس والقمر" لتحكم"(١: ١٨)، والإنسان كي يتسلط (١. ٢٦).

وهنا، نرى الترتيب الإلهي والعلم لا يختلفان، حيث أن كل هدف العلم هو استكشاف النظام الدقيق في الكون. والواقع، أن عمل العلم كله يقوم تماما على افتراض عالم منظم، يمكن أن يكتشف فيه النظام النموذجي وتصنف فيه الأنواع. والطريقة المنظمة للعالم المخلوق، المستمدة من الفكر السامي لله للكلمة الخالق، هي افتراض أساسي، لا يعبر عنه عادة في تعبيرات العلم الطبيعي، فما كان سيوجد علم على الإطلاق، دون وجود عالم منظم.

وعلاوة على النظام، علينا أن نكتشف أيضا الاحتمالات الأخرى، ونقصد بها أنه ليس من المحتم أن تكون الأشياء على ما هي عليه.

ولو كان نظام العالم نظاما محتما؛ لكان من الممكن اكتشافه بالتفكير المنطقي من قبل أحد الفلاسفة، ولما كان هناك علم، ولكن نظام العالم مشروط.ولقد كان بمقدور الله أن يخلقه على خلاف ذلك.ولكن، لكي نعرف أسلوبه، علينا أن نفحصه بكل دقة، فنحن في حاجة إلى استكشافه.والاحتمالات المتعلقة بنظام العالم، الذي يعتمد على الله، والذي يستمد وجوده من الله، هي التي تشكل أساس الحاجة التي لا مفر منها إلى التجارب والاكتشاف، فهي التي تجبر العالم على أن يترك كرسيه، وتدفع به إلى المعمل.

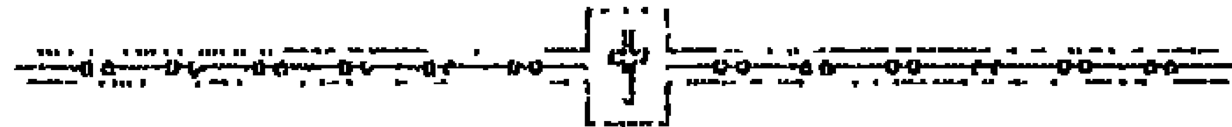
وعلى ذلك، فإن الفصل الأول من سفر التكوين، إنما يؤكد سمو الخالق، وأن النظام الطبيعي للعالم، هو نظام: غير مستقل، وناشيء، ومعرض للاحتمالات.ولذلك، فإنه لا صراع مع العلم، لأن الموقف اللاهوتي لكاتب هذا الأصحاح، يقدم لنا رؤية عميقة لاثنين من الشروط الأساسية، والتي يقوم عليها العمل العلمي، وهما: "النظام والاحتمالات".

وهناك أمر ثالث، لا يمكن بدونه أن يكون هناك علم، وهو أن عقولنا البشرية تستطيع-ولو جزئيا- أن تفهم العالم المحيط بنا. فهناك توافق بين التعلم العقلاني للبشر، والنظام العقلاني للعالم المادي.وفي كتابه" العلم والتجربة المسيحية" للمؤلف "أرثر بيكوك" Peacocke يقول:

"إن إدراكنا بأن عقولنا البشرية تستطيع أن تفهم العالم، وما يستتبع ذلك من أن هناك تفسيرا للعالم من الناحية العقلية، أكثر منها من الناحية المادية المجردة؛ كان هذا الإدراك بالنسبة لعلماء كثيرين ممن يؤمنون بوجود إله، نقطة تحول هامة في تفكيرهم. ولكن.. ما هو الاحتياج للمنهج العلمي؟ أما وأنه يعمل، فإن ذلك يشير بقوة إلى مبدأ عقلاني، وإلى تفسير الكون على أساس من العقل، باعتباره أهم سماته. إن تفكير يأخذ العلم بجدية بجب- كما يبدو لي-أن يبدأ من هنا، حيث من الواضح أنه توجد علاقة حقيقية بين عقل الإنسان والكون، كما هو في الواقع، وهو أمر لا يمكن أن تتجاهله أية رؤية للكون (١).

ويتساءل بيكوك: لماذا يعمل العلم على أية حال؟ وجوابه على ذلك، هو أن العالم المنظم الذي نلاحظه، وعمليات التنظيم لأذهاننا العلمية، يشكلان معا جزءا من نفس العالم. فهناك "عقل كبير" وراء نظام العالم، ومنه نستمد عملية تفكيرنا. وحقيقة أن العلم يعمل. تبدو لبيكوك- ولآخرين كثيرين- أنها تساند الرأي القائل بأن وجود الله أمر يقبله العقل.

والتشابه بين عقولنا والعالم الذي نلاحظه، هو جزء من التعبير عن "صورة الله"؛ الأمر الذي سنركز عليه انتباهنا بعد ذلك بقليل.



Peacocke, *Science and the christian Experment*, p. 133.(١)

٤. الله الخالق

أ. الخلق .. من العدم

لقد ذكر لنا الكتاب المقدس، وخاصةً في العهد القديم، التعبير: "في البدء خَلَقَ الله" (١: ١).والكلمة العبرية (bara)، التي تُرجمت" خَلَقَ" يأتي "الله" فاعلًا لها دائمًا. وكاتب الأصحاح الأول من سفر التكوين، يستعمل أحياناً كلمة مختلفة في اللغة العبرية تُرجمت "عمل". وهكذا "فعمل (asa) الله الجلد" (١: ٧)."فعمل " الله النورين العظيمين" (١: ١٦)،"فعمل الله وحوش الأرض" (١: ٢٥).

غير أنه إلى جانب ذلك، هناك كلمة تتسم بخصوصية أكثر، حُفظت لنوعية الخلق الذي يقوم به الله- وهي كلمة (bara) (خَلَقَ).وقد استُخدمت في هذا الأصحاح خمس مرات: "خلق الله السموات والأرض" (١:١)، "فخلق الله التنانين العظام" (١: ٢١)، (وثلاث مرات في عدد واحد) : "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم" (١: ٢٧). ومرة خامسة في الأصحاح الثاني: "استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً" (٢: ٣).

وعلى الرغم من أن كلمة (bara)، عند استخدامها في مواضع أخرى في العهد القديم، لا تعني بالضرورة الخلق من العدم، إلا أنه من المؤكد أن ذلك هو المعنى المقصود هنا. وقد كتب وينهام Wenham يقول: "يوجد تأكيد قوي على حرية الفنان وقوته"، ثم يستطرد مقتبسًا قول "و. هـ شميدت" W.H.Schmidt: إن (bara) تحتفظ بفكرة عدم بذل الله أي مجهود، فهو حرّ تمامًا، وغير مقيد في عملية خلقه، فهذا هو أساس سيادته المطلقة. وهنا نرى حرية الله السامية، في أن يوجد، أي "يخلق من العدم ما شاء [(١)].

وعلى النقيض من فكرة البابليين، القائلة بأن المادة كان لها وجود منذ الأزل مع الله، فإنه يبدو من المحتمل أن كاتب سفر التكوين أراد أن يشدِّد على أن الله خلق كل الأشياء من لا شيء. فلم يكن هناك شيء موجودًا مع الله منذ الأزل. أليست هذه القصة هي نفسها ما يذكره كُتَّاب الأسفار الآخرون؟

وعلى سبيل المثال، فإنه في العهد القديم يطلب صاحب المزمور من السموات والشمس والقمر وجميع كواكب النور أن تسبح الرب: "لأنه أمر فخلقت" (مز١٤٨: ٣-٥)، وفي (أمـث ٨) نرى أن حكمة الله هي أساس كل الخليقة فقد كان هناك "منذ أوائل الأرض" (أم ٨: ٢٢-٢٧).

---

(١) Wenham, p. 14

وفي العهد الجديد، نجد أن حكمة الله الخالقة، كانت في كلمة الله المتجسد، الذي قيل عنه:

"كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو١: ٣).

"فإنه فيه خُلق الكل . الكل به وله قد خُلق" (كو١: ١٦).

"لأن منه وبه وله كل الأشياء" (رو١١: ٣٦).

"بالإيمان نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يُرى مما هو ظاهر" (عب١١: ٣).

ومن المهم أيضاً، أن نعرف أن ما يخلِقه الله هو شيء مُختلف عنه. ولا يوجد مكان لفكرة "وحدة الوجود" (Pantheism) في هذا الأصحاح، وهي الفكرة القائلة بأن الله هو اسم آخر لعبارة "كل شيء". حقًا يسكن الله في العالم، وأن العالم له وجوده في الله ، لكن الله يظل هو الله، وهو يسمو فوق كل ما خلقه.

ومن الأهمية بمكان، أن نلاحظ أيضًا أن الكتاب المقدس، استخدم كلمة "bara" في سياق الحديث عن الخلاص. والكلمة الفريدة المعبِّرة عن عمل الله في الخلق، تُستعمل بشكل متكرر، عند الكلام عن أعماله المحرِّرة والمخلِّصة في التاريخ (انظر إش ٤٣: ١- وما يليه). فالله الذي يخلق الأشياء، هو نفسه الله الصانع "أمرًا جديدًا" (إش ٤٣: ١٩).

فالله الذي نراه في (تك١)، هو خالق الكل. ويعطي لنا الكتاب المقدس صورة أعمق عنه، فهو الفادي، والمعين، والذي يخلق من جديد، وهو الذي يأتي بكل الأشياء إلى الكمال. ونشاط الله في عملية الخلق تاريخياً، لا يقتصر فقط على حفظ ما خلقه؛ **لأن الله مستمر في الانشغال بعالمه، حيث يقوده إلى الأمام، إلى مجده في المستقبل**[1]

ب. خلق السماوات والأرض

"خلق الله السماوات والأرض.(١: ١). **أو كما يقول قانون الإيمان النيقوي: "ما يُرى وما لا يُرى"**. وعبارة "السماوات والأرض" تصف كل شيء ماعدا الله - فهي تعني في المقام الأول: "كمال الخلق". وربما بالنسبة لفصل كاتب الوحي بين المستويين: السماوات والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، أن القصد منه هنا، كما في كل موضع آخر في الكتاب المقدس، أن يذكِّرنا بأنه يُوجد في الخليقة ما هو أرضي مرئي سُفلي، وما هو سمائي غير مرئي عال، ولكن الله هو خالق الكل.

---

[1] انظر على سبيل المثال: (رو ٨: ١٨-٢٢)، (أف١: ١٠)، (رؤ٢١: ٥)، (مت١٩: ٢٨).

وأحياناً يُفهم من كلمة "سماء" Heaven أنها (الفضاء) sky. إلاّ أنها في الغالب الأعم تشير إلى عالم أعلى من الملائكة، وعرش الله ومجده. والسماء هي موضع الله، ولذلك فحين نتحدث عن السماوات أو عن الأرض (وهي مكان البشرية)، فإن سفر التكوين يذكِّرنا بأن الخليقة "معروفة لله". فخليقة الله ليست نظاماً مُغلقاً من الأسباب الطبيعية، ولكنها نظام معروف عند الله. ولعله يوجد الكثير في العالم المخلوق، مما لا نستطيع أن ندركه نحن. ولا نقدر أن نزنه أو نقيسه، أو نضعه في أنبوبة اختبار، وربما تكون هناك أشياء كثيرة في السماوات والأرض تفوق ما نحلم به في فلسفتنا، لكن الرب الإله هو الذي خلقها كلها.

هناك إذن عالم روحي مخلوق، تماماً، مثلما يوجد عالم مادي مخلوق. وكما يذكّرنا ما جاء في سفر (تث٢٩: ٢٩) : " السرائر للرب إلهنا والمعلنات لنا ولبنينا إلى الأبد ". ولعل هذا ما كان في فكر "تشسترتون" Chesterton في قوله: "هل أدلكم على سر العالم كله؟ في الحقيقية إننا لا نعرف العالم سوى من الخلف! فنحن نرى كل شيء من الخلف، ونراه وحشياً. فهذه ليست شجرة، بل ظهر الشجرة. وهذا ليس سحاباً، بل ظهر السحاب. ألا تستطيع أن ترى أن كل شئ ينحني ويخفي وجهه؟ آه لو كان بمقدورنا الالتفاف والإتيان إلى الأمام!"[١] .

غير أنه في الإمكان، أحياناً، أن نري لمحات من الأمام : فهناك لمحات من السماء، تُرى من الأرض . ففي كتابه: "إشاعة من الملائكة"، يستخدم "بيتر بيرجر" Peter Berger العبارة الرائعة : "**إشارات سمو**"، وهو يعني بهذا أن هناك مؤشّرات في عالم "الأرض"، للأشياء المخفية في "السماء". ونحن في حاجة لأن نكون متفتحين لرؤية إشارات السمو هذه، أو هذه اللمحات من المجد السماوي، وذلك في عالمنا، وفي أنفسنا، وفي بعضنا البعض. لأن كل ما خُلق، في السماوات والأرض، إنما جاء من يد الله. وفي عالمنا الذي يغالي في تقدير القيم المادية "الأرضية"، والذي كثيراً ما يفهم الحياة البشرية على أنها مجرد عوامل مادية، مثل كيمياء الجسم، أو فعالية التكلفة الاقتصادية، يلزمنا أن نتذكر أننا مخلوقات الله، الذي خلق السماوات والأرض، وأن عالمنا مكشوف أمامه.

بل الأكثر من ذلك، هو أن "السماوات و الأرض" يمكن أن يلتقيا، بل سيلتقيان معاً. "فالسماء" تستطيع أن تنزل إلى "الأرض"، والأشياء الخاصة بالأرض سوف تُخطف إلى مكان الله. **وهما يلتقيان في بشريتنا: وهو المكان الذي فيه - بحسب مقاصد الله - تتحد السماء والأرض.**

---

[١] G. k. Chesterton, *The Man who was Thursday*

وكما يوضح لنا العهد الجديد، بكل جلاء، بمقدورنا أن نكون في "سلاسل"، وفي نفس الوقت نكون" في السماويات في المسيح يسوع"(أف ٦: ٢٠، ٢: ٦)، لأنه في المسيح "الوسيط"، يأخذ الله مكاننا، وبعطية من نعمته، يرفع البشرية إلى الله. وفي مسيح الكون، تتحقق مقاصد الله للخليقة كلها : ذلك أن الله "إذ عرّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه. لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السماوات وما على الأرض في ذاك." (أف١: ٩-١٠).

وإذ يقول لنا كاتب الوحي بسفر التكوين، إن الله خلق السماوات والأرض، فإنما يخبرنا بأن هذا الكون معروف لله، وقابل لاحتمالات جديدة، وقابل أن يتغير إلى ملكوت مجده.

ودائماً، يُوجد في العالم، الذي نعيش فيه، الكثير مما لا تستطيع العين البشرية أو الاكتشاف العلمي أن يراه. ولسنا في حاجة إلى أن تتملكنا الدهشة، حين نرى أن أقوالنا عن الإتساق - والتي نسميها قوانين الطبيعة - أحياناً تبدو لنا وكأنها نُحِيّت جانباً، أو تم تجاوزها، بأعمال خاصة من قِبل الله. فالله، الذي بتنظيمه للعالم، جعل العلم ممكناً، هو الله الحر أيضاً، فإذا شاء، يمكنه أن يجعل الأعمال الخارقة للطبيعة مرئية.

ج. الأرض.. خربة وخالية

هناك طريقتان لترجمة الآيات الافتتاحية للكتاب المقدس. فبمقدورنا ترجمتها على هذا النحو: " حين شرع الله في خلق السماوات والأرض، كانت الأرض مقفرة بلا شكل، وتكتنف الظلمة وجه المياه، ولم تكن سوى ريح عاتية تندفع بشدة على وجه المياه - وقال الله بصوت كالرعد - كما في موسيقى هايدن: (الخلق) - "فليكن نور. فكان نور"، بقوة خالقة ومجد. وهكذا نرى أن هذه الترجمة تؤكد تألق نور الله، أما الترجمة الأخرى، والتي تسير على نهجها معظم ترجمات الكتاب المقدس القديمة، فإنها تتحدث بشكل مباشر - كما فعلنا أيضاً - عن الله خالق السماوات والأرض (١:١)، ثم تتحدث بعد ذلك عما ترجمه "كالفن" calvin حرفياً بأنه "خلاء مُشوَّش" (confused emptiness).

" **خربة وخالية** " (١: ٢): إن عبارة كالفن "خلاء مشوش"، عبارة نجد صداها أيضاً في إرميا (٤: ٢٣)، وعلى نحو مماثل في (إش٣٤: ١١). وكلا الموضعين يبرزان المعنى المخيف للتشوّش والخلاء، مثل صحراء مهجورة، لم تعطها كلمة الله الخالقة أي نظام. أما هنا في سفر التكوين، فيشير إلى أنه في البدء، كان العالم المخلوق يفتقر إلى النظام والشكل، وهذا ما يتناقض بشدة مع تقدم النظام في باقي الأصحاح.

في أكاديمية علية بفلورنسا، يقف تمثال القديس متى- لمايكل أنجلو- وهو تمثال لم يكتمل. وتفيد الكتابة التي عليه، كيف أن النحات كان على وشك أن يقطع الحجر، من حول الشكل الذي رآه داخل الكتلة الرخامية!

وهكذا نجد الخليقة هنا، لا شكل لها ولا هيئة، تنتظر يد الخالق المبدعة الخلاّقة والمنظِّمة.

ويُوصف التشوش والخراب أيضاً بأنه " ظلمة " على" وجه الغمر"(١ : ٢) - والبعض يسمع هنا صدى لوحش الخراب البابلي " نيامات" Tiamat، وربما أيضاً "لوياثان" Leviathan، الذي نقرأ عنه في (مز٧٤: ١٤). وهل هناك أيضاً أصداء لكبرياء البحر، التي كتب عنها المرنم في (مز٨٩: ٢٩)؟

الواقع إن البحر و الغمر كثيراً ما يحملان معنى التشويش، والرعب، ويُشار بهما غالباً لقوة معاندة لله . وهذا ما يوضح لنا أهمية قيام الله بشق البحر لشعبه، كي يعبروه، وفي قيام ربنا يسوع المسيح بانتهار الريح، وأمره للبحر بكل سلطان :" اسكت".

غير أنه مهما ظل "البحر" عاصفاً مخيفاً بالنسبة لنا، فيجب ألا نقرأ في سفر التكوين فكرة أن " الغمر " قوة غريبة يجب أن يحاربها الله (كما في بعض أساطير بلاد ما بين النهرين). كلا، لأن " الغمر" نفسه جزء من خليقة الله. بل إن الغمر المظلم، لم يكن سوى مرحلة في الطريق إلى عالم كامل الخلق تماماً. فالأرض كانت لا شكل لها كما نقرأ لكن الله يعطيها شكلاً.. والغمر تغطيه الظلمة، لكن الله سيأمر النور.. والبحر المخيف، سيتم احتواؤه.. و الغمر الرهيب والمخيف، سوف يتم تنظيمه.. وهناك فصل للمياه: فالسواحل، ومجاري الأنهار، تصبح جزءاً من الصورة.. والممرات تُشق في الصحراء.. وتُكبح العاصفة.

وحين عمل الله، في (عدد ٦): "جلداً" Firmament(أو امتداداً) يفصل بين مياه ومياه، نرى الله وهو يدبّر مكاناً لعالم يمكن السكنى فيه. وقد عمل الله فضاء لأرض ترى السماء، حيث تستطيع النباتات والأشجار أن تنمو، وحيث يستطيع أن يعيش الحيوان والإنسان، ويجدوا فيها أسباب معيشتهم.

والأمر يتطلب منا وقفة هنا: فليس المطلوب منا أن نتأمل فقط حرية الله السامية في أن يحضر إلى الوجود كل ما يشاء، وأن يُشكّل ما لا شكل له، وأن يخلق نظاماً حيث لا يوجد نظام، وشكلاً ونموذجاً وجمالاً لما لا يزال خراباً. لكننا في حاجة إلى أن نعمل المزيد، فنحن في حاجة إلى أن نفهم أن هذا هو ما تعنيه كلمة "الخليقة"، لأن عمل الله هو أن يجعل الأشياء منظّمة وجميلة.

وهذا هو أسلوب الله، فهو يأتي إلى الوجود بأمور لم يكن لها وجود، ويأتي بالحياة حيث لا توجد حياة. فالله، بكل بساطة، ليس هو "الطبيعة"، بل هو الذي أوجد الطبيعة، وهو بصفة مستمرة يجدد حياتها.

وهذه كلمة تعزية ورجاء، لأناس اتسمت خبرتهم بالفوضى والقبح والتشويش وبالخراب والخواء، فالله بطبيعته يأتي إلى الفوضى؛ فيجعل الأشياء جديدة. وهو يحوم فوق ظلامك، ويقول: " ليكن نور ". فيا شعب الله تشجعوا!

وثمة ناحية أخرى لذلك؛ فكل هذا جاء من يدي الله، وكما سنرى بكل وضوح في الأصحاحات التالية من سفر التكوين، أنه لمن السهولة الخطيرة أن نتلف ما خلقه الله، وأن نُحدث تشويشاً، حيث يجب آن يسود النظام. غير أنه لا يوجد شيء، مهما تلف، لا يُدين بوجوده لله. **فكل ما نراه، وكل ما نتناوله، وكل مخلوق نقابله، وكل شخص يعبر طريقنا، هو هبة من يدي الخالق، يجب الحفاظ عليه، وإكرامه، ومعاملته باحترام.**

وانطلاقاً من هذا الاقتناع، نحتاج أن يصبح لدينا "فكر مسيحي"، بالنسبة لكثير من موضوعاتنا الاجتماعية والبيئية المعاصرة: اهتمامنا بمحاربة التلوث.. دفعنا لتجنب كارثة بيئية.. غضبنا على الإرهاب.. وكراهيتنا للحرب.. فرحنا بالجمال.. وتشجيعنا للفنون.. ومقاومتنا للاتجاهات الهدَّامة لكثير من الأيديولوجيات الحديثة.. والعمل من أجل العدالة الاجتماعية والاقتصادية في العالم.. وتطلعنا إلى أن نتعلم كيف نحب جيراننا بشكل أفضل؛ وكل هذه الموضوعات، والتي تملأ عن حق صفحات كثيرة من الكتابات المسيحية الحديثة، يجب أن نعود بها إلى بدايتها. وبداياتها، نجدها في الله، الذي خلق كل الأشياء، والذي يصنع " كلَّ شيءٍ جديداً " (رؤ٢١: ٥) . واهتمامنا البالغ، نحن البشر، بأن نجعل الأشياء على وجه أفضل، هو في حد ذاته انعكاس لطبيعة الله.

" أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخلقت " (رؤ٤: ١١) .

د. الخلق.. بالروح والكلمة

" وروح الله يرف على وجه المياه" (١: ٢): إن الكلمة العبرية المترجمة هنا "روح"، معناها (ريح) أو (روح). ومن الصواب، أن تؤخذ هنا على أنها تعني "روح الله الخالق". والصورة هنا هي صورة أنثى النسر، وهي تحرِّك عشها، وترفرف فوق صغارها، لتجعل الصغار التي لم تنضج بعد،

أكثر نشاطاً (نفس الكلمة استُخدمت في تث ٣٢ : ١١). ويعلّق على ذلك "ديريك كدنر" Derek Kidner قائلاً : "في العهد القديم تُستخدم كلمة " الروح"، للإشارة، بصفة خاصة، إلى قوة الله المتدفقة الخلاّقة والحافظة"[١]. وهو - هنا - يشير إلى (أي ٣٣ : ٤) "روح الله صنعني ونسمة القدير أحيتني". والله بالنسبة لخليقته، يهتم بخليقته اهتمام أنثى الطير، التي بكل حنان ترعى صغارها. **وحنان الأم عند الله، نراه في عملية الخلق هذه - حيث نراه كمن وَلَدَ الخليقة.**

وثمة تشبيه مجازي، مماثل لإبداع الله في الخلق، بمقدورنا أن نراه في الطريقة التي صُورت بها "الحكمة"، التي هي العامل الرئيسي في عملية الخلق، حيث صُوِّرت بعبارات التأنيث في سفر الأمثال (٨: ١و٢٢).

وحياة الروح تعطي حياة، كما كتب صاحب المزمور عن كل خلائق الله " تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود. ترسل روحك فتُخلَق " (مز ١٠٤: ٢٩- ٣٠).

ويمكن أن نستنتج أن الروح القدس "سُكِب" على كل خليقة الله. وكما كان يعتقد كالفن calvin- وحده تقريباً بين سائر اللاهوتيين القدامى- " أن الروح الذي ينتشر في كل مكان، هو الذي يحمل كل الأشياء، ويسبِّب نموها، ويحيّيها في السماء وفي الأرض". وكما يقول مولتمان Moltmann: "الروح، يخلق مجتمعاً، يتشارك فيه الله والإنسان وكل الأشياء، بحيث يجعله شركة الخليقة، التي تتصل في إطارها كل الأشياء المخلوقة بعضها مع بعض ومع الله، كلٌّ بطريقته الخاصة (لأننا به نحيا ونتحرك ونُوجد) (أع ١٧ : ٢٨)"[٢].

وكل هذا، يعني أنه بالإضافة إلى الموضوع القوي الذي سبق أن استكشفناه، والخاص بحرية الله السامية على خليقته، فإن هذا الأصحاح يكشف لنا أيضاً موضوع سُكنى الله مع خليقته، وفي خليقته. فالروح الكوني (cosmic spirit)، هو روح الخلق، روح الكمال، روح المجتمع. ومن خلاله يسكن الله في كل خليقته، ومن خلاله يصبح "النظام المفتوح" للأرض مفتوحاً "للسماء". وهذا يذكّرنا بأن حضور الله المتأصل في عالمه، هو جزء من عملية تغيير، وتنقل من خلالها، كل الأشياء من درجة إلى درجة في المجد، إلى أن نصل الكل، إلى الكمال، في المسيح. **فعالمنا ليس مغلقاً، جامداً، متحجراً، لا يتغير، بل هو منفتح متحرك، نُفخت فيه حياة الروح، الذي في حياته حرية (٢كو٣: ١٧).**

(١) Kidner, p. 4.

(٢) J. calvin, *Institutes*, I. Xiii. 14; cf. Moltmann, *God in Creation*, pp. 10f.

وتأصل سُكنى الله في عالمه، يجب أن يؤثر في الطريقة التي ننظر بها إلى الفضاء Space. فقد تعلمنا أحياناً أن ننظر إلى الفضاء "كنوع من الطريق ينزل فيه الله وذلك بميلاد يسوع، ومنه يصعد يسوع ثانية إلى الآب بعد القيامة. ومن الطبيعي أن هذا التشبيه المجازي المكاني، هو جزء من القصة الكتابية، وغالباً ما يكون أكثر الأساليب الرمزية مناسبة للكلام - كما تكلمنا نحن بالفعل - عن علاقة الله بالعالم. ولكن فكرة "الطريق" هذه بالنسبة للفضاء، تدين بالكثير للصورة التي رسمها نيوتن عن الكون، بصفته كون ميكانيكي، قام فيه الله بدور "الساعاتي" (clockmaker)، الذي هو بالنسبة للعالم، كمن ملأ ساعة، ثم تركها بعد ذلك تدق، وهذا أمر ليس له علاقة بالكتاب المقدس.

ذلك أن الكتاب المقدس يشير إلى صلة أقوى بين الله والفضاء[1]. **فعلاقة الله بعالمه، هي علاقة تمتزج فيها الفعالية مع الإبداع الخلاَّق. فميلاد يسوع وصعوده، ليس هما مجيء الله إلى مكاننا، وخروجه منه. كلا، بل إن ذلك يوضّح، بالأحرى، علاقة الله الفعّالة الوثيقة بعالمه، والتي كُشف عنها في ميلاد المسيح، ثم حُجبت ثانية عند الصعود.** ونحن في حاجة إلى الاستمرار في التمسك بعلاقة الله المتأصلة بخليقته، وإلا، فإننا قد نسقط في مذهب التأليه الطبيعي (deism)، الذي يجعل الله في سموه منفصلاً عن خليقته، حتى إنه في الواقع يصبح بعيداً، ليس له اتصال بعالمنا أو حياتنا.

وفي إطار عمل الروح المحيي، هناك بعض الأوقات التي تُؤمر فيها أشياء جديدة؛ لتبرز إلى الوجود، وذلك بكلمة الله. وقد سبق أن رأينا كيف أن سفر التكوين يستعمل في بعض الأحيان كلمة " عَمَلَ"، إلا أنه إلى جانبها، يستخدم أيضاً الكلمة ذات الدلالة اللاهوتية الخاصة التي تُترجم "خَلَقَ". وبينما نتنقل بين عمليات الصنع (العمل)، وخطوات الخلق؛ نجد عبارة خاصة بالأوامر الإلهية : "وقال الله" (١: ٣ و ٦ و٩ و١١ و١٤و ٢٠ و٢٤ و٢٦ و ٢٩). **فكل ما لم يكن له وجود، استدعي إلى الوجود، بكلمة الله. وكل شيء في الوجود، يرجَع أصله إلى حقيقة أن الله أمر بوجوده.** ولذلك، فإننا هنا، كما في السابق، نجد أنفسنا في حاجة إلى أن نؤكد ثانية "سمو الله"، كي يخلِّصنا من نوع من "البانثئية" (وحدة الوجود Panentheism)، التي تشدد على سكنى الله على هذا النحو، وتنسي قداسته وسيادته.

---

[1] Torrance, *Space, Time and Incarnation.*

وهكذا، فإن هذا الإصحاح يجمع بين: روح الله الخلاَّق، المحيي، الحميم، وبين كلمة الله الآمرة النافذة الخلاَّقة. فالروح والكلمة ينتمي كل منهما للآخر.

والصلة القوية بين الروح والكلمة، مُصوَّرة في مواضع أخرى من الكتاب المقدس. فالملك المسياني الذي يتنبأ عنه إشعياء (أصحاح ١١)، هو مَلكٌ " حل عليه روح الرب " (إش١١: ٢)، ويحكم " بقضيب فمه " (١١: ٤) .

أما بالنسبة لنا كمسيحيين، خليقة الله الجديدة (٢كو ٥: ١٧)، فقد ذكر العهد الجديد ولادتنا " **بالروح** " (يو٣: ٦)، وفي موضع آخر "**بالكلمة** " (يو١: ١-٣، يع ١: ١٨) . وفينا، كما في الخليقة، نجد أن عمل الروح بالكلمة يأتي بالحياة إلى حيث لا تُوجد حياة، ويأتي باحتمالات النمو والإكمال، حيث لم يكن يُوجد قبلاً سوى الخراب. **إن علاقة الله الخلاَّقة بعالمه هي علاقة وثيقة، ومع ذلك هي علاقة قوة آمرة.**

وإذا عشنا بالكلمة فقط، يمكن أن يصبح إيماننا نظاماً عقلانياً فاتراً جامداً متعنتاً - يصبح فلسفةأكثر منه أسلوب حياة. وإذا عشنا بالروح فقط، فلن يتوفر لنا طريق موضوعي لاختبار أي ريح هي التي تهب، ويصبح فرح الحياة فرحاً غير ناضج بلا اتجاه. لندع الله يساعدنا على أن نعيش في صلة مع خالقنا، الذي خلقنا ويحفظنا، بكلمته وبروحه.

هـ. الخلق.. كجنسه

لقد أعطيت الحياة النباتية والكائنات الحية، القدرة على الإثمار والإكثار " وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً **كجنسه**، بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً **كجنسه** وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه **كجنسه**." (١: ١١- ١٢).. " فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه **كأجناسها** وكل طائر ذي جناح **كجنسه**." (١: ٢١).. "وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية **كجنسها**. بهائم ودبابات ووحوش أرض **كأجناسها**" (١: ٢٤).

فعالمنا إذاً ليس عالماً جاهزاً، بل يتضمن مبدأ التجديد والخلق. والصورة هي لخليقة " تنشأ ". لوحظ في إحدى صور الفنان "تينتوريتو" Tintoretto، أن الطيور و مخلوقات البحر رُسمت وكأنها تتدفق من يدي الخالق، وفي مجرى الحياة هذا، كانت تُوجد قوة خالقة. وفي كل نوعية متميزة من المخلوقات الحية، توجد قوة لحياة جديدة. فالثمار بها بذار والحياة الحاشدة في المياه،

وأسراب الطيور في السماء، والحيوانات على اليابسة؛ كل هذه لها القدرة على الإثمار والإكثار، وكلها أُعطي لها أن تنقل عطية الحياة التي منحها لها الله.

فالخصوبة، والنمو - وقد نرغب أن نقول - والقدرة على التطور، كل هذه إنما هي من عطايا الله. وفي نهاية كتابه " أصل الأنواع" The Origin of Species، كتب "داروين" Charles Darwin يقول : "هناك عظمة في هذه النظرة للحياة، بقواتها المتعددة، التي خلقها الخالق بكلمة فمه في صور قليلة، أو في صورة واحدة . . .".

ومهما كان ما نعتقده في علم الأحياء عند "داروين" - ومن المؤكد أن مجرد إيمانه المسيحي لا يدفع عنه الشبهة على الرغم من أنه تبنى ذات مرة الآراء المسيحية، ولكنه سرعان ما تخلى عنها، وسواء اتفقنا أو لم نتفق مع أولئك الذين يعتقدون أن كل الحياة تعود إلى شكل أساسي واحد، إلا أننا - مع داروين - يجب أن نضع كل نظرياتنا العلمية تحت قولٍ أساسٍ واحدٍ: "خلقها الخالق بكلمة فمه".

وكلمة "نشوء أو تطور" (Evolution)، لها تأثير غريب على الناس. فبمقدورها أن تخلق الذعر في أذهان بعض المسيحيين، الذين يعتقدون أنها تعني - ولابد - إنكاراً لعمل الله في الخلق. ومع ذلك، فإن آخرين يتصفحون كتباً تتناول سفر التكوين، ويتساءلون ما إذا كان سيأتي ذكر لهذه الكلمة، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فيجب إهمال الكاتب باعتباره ممن يخفون الحقائق، مخفياً رأسه في الرمال. وعلينا أن نكون حريصين، لأن كلمة "نشوء أو تطور"، تُستخدم أحياناً لتعني أشياء مختلفة. فيمكن استخدامها، كاختزال للعمليات الحيوية التي من خلالها تتغير الأجناس وتتطور. وعلى هذا، فإن التطور نظرية علمية، خاضعة لتقنيات الإشباع والدحض (Verification and falsification)، التي يجب أن تُطبَّق على أية نظريات علمية.

ويعتقد معظم العلماء، أن شكلاً ما من نظرية تطورية، يُعَد أكثر الفروض التفسيرية "تناغماً" مع ظاهرة التطور البيولوجي والتنوع، المتاحة الآن. وعلى الرغم من ذلك، نحسن صُنعاً إذا ما اهتممنا بما كتبه "كيركوت" G.A.Kerkut عام ١٩٦٠، في نهاية رسالته العلمية عن علم الأحياء، وعنوانها : "مضامين التطور" (The Implication of Evoluation) حيث كتب يقول (وكثيرون غيره قالوا الشيء نفسه):

"هناك نظرية تقول بأن كثيراً من الحيوانات الحية، يمكن القول عن طريق ملاحظتها على مَرّ الزمان، بأنه يطرأ عليها تغييرات معينة، فتتشكل منها نوعيات جديدة. وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه "نظرية التطور الخاصة"، والتي يمكن إثباتها في حالات معينة، عن طريق التجارب. وعلى

صعيد آخر، هناك النظرية القائلة بأن كل الأشكال الحية في العالم، تولدت عن مصدر واحد، جاء هو نفسه من صورة غير عضوية. وهذه النظرية، يمكن تسميتها "نظرية التطور العامة"، والدليل الذي يؤيدها، ليس قوياً بما فيه الكفاية، بحيث يسمح لنا باعتبارها أي شيء أكثر من كونها فرضاً. وليس من الواضح ما إذا كانت التغييرات التي تنجم عنها أجناس جديدة، هي من نفس طبيعة تلك التي نتج عنها ظهور أشكال جديدة. ولسوف نأتي الإجابة عن طريق تجارب مستقبلية، وليس عن طريق تأكيدات بدون دليل، بأن نظرية التطور العامة لابدّ وأن تكون صحيحة؛ لأنه لا يوجد شيء آخر يحل محلها بطريقة مُرضِية"[١] .

ومع ذلك، فإن بعض الكُتَّاب يستخدمون لفظ " تطور" (evolution)، بمعنى آخر، كي يعني أكثر من مجرد العمليات البيولوجية. وقد أصبحت اختزالاً "لمذهب النشوء" (Evolutionism)، الذي هو في واقع الأمر نظرة فلسفية عالمية عن طبيعة الواقع. ويقول مذهب النشوء، إن النظريات البيولوجية الخاصة بالتطور، تكفي لشرح كل شيء عن العالم الحي. إلا أن هذا يخلط بين الوصف و التفسير. والنظريات البيولوجية قد تساعدنا على فهم علم الحياة الذي لدينا، وذلك عن طريق وصف العمليات البيولوجية، لكنها لا تستطيع أن تفسر أو تعلل تماماً معنى هذه العمليات وهدفها.

ولكي نوضح هذا، دعنا نستخدم تشبيه "الساعة" . دعنا نتخيل أننا وجدنا ساعة في حقل، ولم يكن قد سبق لنا أن رأينا ساعة من قبل. فما الذي سنفعله بها؟ قد يكون بمقدورنا أن نصف عملها، ونفهم طبيعتها، وتركيبها الكيميائي، ونتعجب من تعقيداتها. ولكننا لن نصفها إطلاقاً بأنها "ساعة"، ما لم نكن نعرف وظيفة الساعات، وهذا أمر ليس بمقدور علم الطبيعة أو الكيمياء أن يرشدنا إليه. وكما يقول الأديب الروسي العظيم "ديستوفيسكي" Dostoevsky في كتابه "الفضولي العظيم"، عند نقطة ما : "إن سر حياة البشر لا يكمن فقط في أنهم أحياء، بل في معرفة لماذا يعيش الإنسان". الأمر الذي يجعل أتباع "مذهب النشوء والارتقاء"، ليس لديهم إجابة مقنعة.

وهناك خطر آخر "لمذهب النشوء". إذ غالباً ما يكون هناك ميل للوقوع في خطأ "الاختزالية" (reductionism)، التي تختزل كل أبعاد الحياة الأخرى في البُعد البيولوجي، بل ربما تتعدى ذلك، إلى مبادئ الطبيعة والكيمياء التي يعتمد عليها علم الأحياء. وكل الظواهر الأخرى، من الأبعاد السيكولوجية والاجتماعية، والأخلاقية، والذهنية، والروحية، وغيرها من أبعاد الحياة - يتم شرحها

---

(١) G. A. Kerkut, *The Implications of Evolution* (Pergoman press, 1960), p. 157.

في ضوء علوم الأحياء والطبيعة والكيمياء. وهذا يتضمن، بشكل جزئي، خطأ اختزال الكل إلى مجموع أجزائه. وهذا إلى حد ما، الخطأ الذي يحدث، نتيجة اقتصار معرفتنا على تلك الأجزاء التي نستطيع أن نراها بنظرتنا الخاصة والاختزالية - في أسوأ حالاتها تشبه قولنا إن غروب الشمس ما هو إلا إشعاع كهرومغنطيسي، أو أن كونشرتو الكمان، ما هو إلا حك شعر أحد الحيوانات على أحشاء حيوان آخر. أما في مجال علم الأحياء، فهو يختزل كل الحياة في دائرة الكيمياء الحيوية، وأخيراً إلى علم الطبيعة.

أما النهاية المحزنة لهذا الخط الاختزالي، فقد عبَّر عنها بفصاحة، ولكن بشكل يدعو إلى الأسى، "نوبل لوريت جاك مونود" J. Monod ، في كتابه "الصدفة والحاجة"، فقد أدى اكتشاف "مونود" لمعنى الحياة على أساس علم الأحياء الجزيئي، إلى أن يكتب الآتي على أساس معتقداته الفلسفية : "إن العهد (الميثاق) القديم قد انهار، فقد عرف الإنسان أخيراً أنه وحيدٌ في هذا الكون الشاسع المُوحِش، وأنه لم يوجد فيه إلا عن طريق الصدفة."(١)

بيد أن "مونود" في قوله هذا، تخطى دائرة علم الأحياء، بل إنه تعدى نظرية النشوء، وهذا هو معتقده، الاعتقاد بأنه ليس هناك إله.

ومن الجلي، أنه لو نُقلت نظرية النشوء من دائرة الافتراضات البيولوجية، حيث يكون متاحاً للبحث العلمي، ثم ارتفعت إلى أن تصبح رأياً عالمياً، عن كيفية وجود الأشياء؛ هنا، يكون ثمة صراع مباشر مع الإيمان الكتابي. غير أنه إذا ظلت نظرية التطور، على مستوى الافتراضات البيولوجية العلمية؛ فسوف يبدو أنه لا يُوجد سبب كافٍ للصراع بين مضامين الإيمان المسيحي في الخلق، والاكتشافات العلمية المتعلقة بالطريقة التي فيها - على مستوى علم الأحياء - قام الله بعمليات الخلق.

ومع ذلك، فإن كل هذا، ما هو إلاّ تجاوز للنص الذي نحن بصدده، فسفر التكوين لا يجب أن يُقرأ ككتاب مدرسي خاص بعلم الأحياء. بل إن السفر يريد بصفة مستمرة أن يرفع أذهاننا إلى إدراك قدرة الله على الخلق. أما أسرار علم الحياة، التي دأبت أجيال من العلماء على استكشافها، فهي كامنة تحت العبارة البسيطة : " كأجناسها ".

(١) J. Monod, *chance and Necessity* (Eng. tr. Collins, 1971)), p. 167.

و. خلق النجوم

وإذا كانت مساحات كبيرة من المناقشة في إطار علم الأحياء قد تعرضت للتعتيم بعبارة "كأجناسها"، فكم بالأكثر ما تخفيه أعظم الأقوال قاطبة، وهي : " **فعمل الله .... النجوم**" (١ : ١٦) .

ومن الطبيعي أن يفتتن القدماء بالنجوم، فقد كان البابليون أساتذة الفلكيين في أيامهم، حيث طوّروا قدرات متقدمة للغاية للملاحظة والحساب، ولا سيما بالنسبة لاهتمامهم بحركة الكواكب.

والمنجمون المصريون، والبابليون، ومن بعدهم اليونانيون والرومان، وضعوا جميعاً خططاً لربط حركات النجوم بالاحتياجات الأرضية - ومعظمها في إطار الإيمان بأن النجوم آلهة.

وافتتان القدماء بالنجوم، لا يُعد شيئاً، إذا ما قُورن بأسرار الفَلك التي فتح الباب إليها تلسكوب "جاليليو". ففي سنة ١٦٠٩، حين رأى فوهات البراكين على القمر، و" ثورة كوبرنيكوس" (Copernican Revolution) ، كانت تتمثل في اكتشافه أن الشمس لا تدور حول الأرض. وإلى جانب الكواكب الخمسة التي كانت معروفة للقدماء (عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى و زحل) - وهم بالطبع لم يكونوا يعرفون أن الأرض كوكب - استطاع الفلكيون إضافة "أورانوس" الذي تم اكتشافه في سنة ١٧٨١، و"نبتون" في سنة ١٨٤٦، و"بلوتو" في سنة ١٩٣٠.

وبعد ذلك، وبالطبع، وعلى مدار حياة البشر، تمت اكتشافات كثيرة جديدة. وكان لابدّ من تعديل الآراء المتعلقة بتاريخ الكون، مرة تلو الأخرى. وإذا فكرنا على ضوء الإجماع الحالي، فلسوف نُواجه بكون عمره بلايين من السنين، وله أبعاد لا يُسبر غورها. حيث يبلغ اتساع مجرتنا مائة ألف سنة ضوئية عبر مجرتنا. وحيث مليونا سنة ضوئية، تفصلنا عن مجرة "أندروميدا" (المرأة المسلسلة)، وهي واحدة من أقرب جيراننا من المجرات! وهذا معناه أن ما نراه الآن في "أندروميدا"، هو ما كانت عليه منذ مليوني سنة مضت! وهناك على ما يبدو ما يقرب من مائة بليون مجرة أخرى! تتحرك، فُرادى، في نوع من الأسلوب الذي بمقدورنا توقعه، إذا ما كانت قد جاءت كلها من انفجار كبير، وقع منذ عشرة آلاف مليون سنة مضت! الأمور التي لم يكن جاليليو على علم بأي منها.

ولقد كانت للسماوات دائماً قوة هائلة لإثارة الإعجاب - وكثيراً ما كانت تؤدي بالعالم القديم إلى عبادة النجوم. وهذا هو ما حُذّر شعب إسرائيل من أنهم حين يرون الشمس والقمر والنجوم وكل جند السماء، أن لا يبتعدوا عن الله يعبدوها ويسجدوا لها" (تث ٤: ١٩). والعابدون الحقيقيون لله، كانوا يعرفون أن السماوات إنما تحدّث بمجد الله والفَلَك يخبر بعمل يديه (مز١٩:

١)، وأن الله هو الذي صفَّح "الجلد الممكن كالمرآة المسبوكة" (أي ٣٧: ١٨). وعظمة الله وسيادته، بدتا، بصفة خاصة، في النجوم. والأصحاح التاسع من سفر أيوب، يلفت نظرنا إلى الله الآمر الشمس، والذي "يختم على النجوم"، الباسط السموات وحده، والماشي على أعالي البحر، "صانع النعش والجبّار والثريا ومخادع الجنوب. فاعل عظائم لا تُفحص وعجائب لا تُعد" (أي ٩: ٧- ١٠). ويعد ذلك يتساءل: " هل تربط أنت عقد الثريّا أو تفك ربط الجبّار " (أي ٣٨: ٣١) . وبالنسبة لإشعياء، كانت النجوم تبعث على احترام عظيم : " ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه" من الذي يخرج بعدد جندها يدعو كلها بأسماء" (إش ٤٠: ٢٦). ويقول "كالفن" Calvin: نحن نعرف الله، الذي هو نفسه غير منظور، إلا من خلال أعماله فقط . . . وهذا هو السبب الذي حمل الرب لكي يدعونا لمعرفته هو - أن يضع نظام السماوات والأرض أمام عيوننا، لأنه جعل نفسه، بطريقة معينة، ظاهراً فيها" (مز٨: ٣-٤)[1] .

وعظمة الله وسره، اللذان يظهران من خلال أعماله، كانا بلا شك يشكلان جزءاً من إيمان كاتب الأصحاح الأول من سفر التكوين. والذي كان، بلا ريب، يتفق مع المرنّم الذي يقول : " إذا أرى سماواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التي كونتها. فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده . . . " (مز٨: ٣- ٤). فكان بمقدوره أن يستخدم النجوم صورة لقوة الله العظيمة، وذلك بوصف العجب الرهيب الذي تثيره ليلة تتلألأ فيها النجوم. ولكنه أوضح ما يرمي إليه بطريقة أخرى، ولعله فعل ذلك عن عمد؛ ليبعدهم عن وثنية عبادة النجوم. فعظمة الله قد استُعلنت، بمقارنتها بالمجد التافه، نسبياً، لكل هذه النجوم، فقال الوحي المقدس بكل بساطة : " فعمل الله . . . . النجوم " .



(1) Calvin, *Genesis*, p. 59.

٥. مكان الإنسان

(١: ٢٦- ٣١)

إن التعاقب الثابت، للآيات الخمس والعشرين الأولى من الإصحاح الأول، وصل ذروته في (العدد ٢٦)، مستخدماً "صيغ الجمع"، حيث يأتي بنا إلى خلق الإنسان : " **نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا**" .

ومن بين الحقائق البارزة عن الكون، والتي عُرفت نتيجة لبحث تم حديثاً على طبيعة نظرية "الانفجار الكبير" (Big Bang)، والذي قيل أن كل شيء بدأ به، هو التفرد الرائع لهذا الكون. والتوازن الذي كان مطلوباً بين عناصر مختلفة كثيرة عند نشوء الكون في بدايته، كان دقيقاً للغاية؛ حتى أن أي تغيير مهما كان بسيطاً في أي جزء من الكون، كان سيؤدي إلى عدم وجوده. وأول زمن تم تصوره، بعد حدوث الانفجار الكبير، هو زمن العالِم بلانك (Plank Time) (١٠ ^{٤٣} من الثواني) حين بحسب ما أعتقد - ضُغطت كل مادة الكون في كرة صغيرة، في حجم رأس الدبوس. ومن هنا، حدث التمدد الهائل للكون، ليتكون العالم الذي نعرفه، هكذا، متخذاً مساراً غاية في التجديد. ولو كانت نسب الجُسيمات، التي تتكون منها الذرة، مختلفة اختلافاً صغيراً جداً عمَّا كانت عليه؛ كما تكونت النُوى (جمع نواة) الأثقل من الهيليوم، وهي الشيء الضروري جداً لنشوء الحياة. ولو كان التوازن بين التمدد الانفجاري، وقوى الجاذبية مختلفاً؛ لما وُلد العالم الذي نعرفه، فالمسار الفعلي الذي اتخذه العالم، هو مسار محدد للغاية، بهدف ظهور الحياة.

وما كان من الممكن أن تنشأ الحياة، إلا على كوكب من حجم معين، وفي مدار دائري تقريباً، وعلى مسافة معينة من الشمس. وكما يقول "بيتر هدجسون" P.E.Hodgson: "كلما تمعنّا في دراسة هذا النشوء؛ زاد إدراكنا لمدى استحالة وجودنا على هذا الكوكب"(١). وهو يستشهد بقول "فريمان دايسون" F.J.Pyson: "كلما تطلعنا إلى الكون، وتعرفنا على أحداث الطبيعة والفَلك التي تضافرت معاً من أجل فائدتنا؛ يبدو لنا كما لو أن الكون كان بصورة ما يعرف بمجيئنا!"(٢)

---

(١) P.E.Hodgson, *The Desecularisation of Science*, in W.oddie (ed.), *After the deluge* (SPCK, 1987).

(٢) F.J.Dyson, Scientific American, 225.25 (1971).

وبعض العلماء يسمُّون فكرة اتخاذ الكون لهذا المسار بعينه، والمؤدي إلى إمكانية الحياة البشرية، "بالمبدأ الإنساني" (anthropic principle). لأنه، لكي نوجد نحن هنا؛ كان الأمر يتطلب ما يسميه جون بولكنجهورن "بالضبط الدقيق لمفاتيح الكون"، وهذا في الواقع هو عالمنا.

ولذلك، فإنه من الغريب أن صورة العالم القديم عن كون يتمركز حول الإنسان، والتي انهارت نتيجة اكتشاف كوبرنيكوس لأن الشمس لا تدور حول الأرض، أعيد رسمها الآن من منظور مختلف، نتيجة الاكتشافات التي تمت في مجال طبيعية الكون.

ويجب علينا أن نتوقف قليلاً هنا، متوخين الحذر، فمهما كان مبدأ التمركز حول الإنسان مثيراً وهاماً، فلا يجب القول بأن هذا كان يدور في ذهن كاتب الوحي بسفر التكوين. والواقع أنه، هو نفسه، كان سيقدم لنا سبباً للتوقف أيضاً على أساس نقطة أخرى. لأنه، على الرغم من أن خلق الإنسان جاء كذورة في قصة التكوين، إلا أن بقية الأصحاح الأول من سفر التكوين موجودة أيضاً. **ونحن كثيراً جداً ما وقعنا تحت إغراء الاعتقاد بأن بقية الخليقة كلها، هي بكل بساطة ما وُجدت إلا من أجلنا!** لكن "س. ويسترمان" Westermann يعلِّق بكل صواب على هذه النقطة قائلاً:

"إن الحقيقة البسيطة في أن الصفحة الأولى من الكتاب المقدس تتحدث عن السموات والأرض، وعن الشمس والقمر والنجوم، وعن النباتات والأشجار، وعن الطيور والحيوانات، إنما هي علامة أكيدة على أن الله الذي نعترف به في قانون الإيمان بأنه أبو يسوع المسيح، يهتم بجميع هذه المخلوقات. وليس بالإنسان فحسب. والإله الذي لا يُفهم إلا أنه إله الإنسان فحسب، ليس هو إله الكتاب المقدس." (١)

والتفسيرات المسيحية (للعدد ٢٨) : " تسلطوا .... "، كثيراً ما أخطيء فهمها، واعتبرت أن بقية الخليقة لم تُوجد إلا لنفع الإنسان فقط! والواقع أن المؤرخ الأمريكي "لين وايت الصغير" .Lynn White, Jr ذهب إلى حد أنه وصف المسيحية الغربية على أنها أكثر الديانات التي شهدها العالم تمركزاً حول الإنسان، وألقى باللوم على تعليم كنيسة العصور الوسطى الخاص بتسلط الإنسان، إزاء فظائع التلوث التي نلمسها حديثاً. ومع ذلك، وكما يوضح "كيث توماس" Keith Thomas أنه لا يتفق كل المؤرخين مع هذا الرأي ، ويجادل بأنه إلى جانب التأكيد الذي ساد كنيسة العصور الوسطى بخصوص حق الإنسان في استغلال الأنواع الأدنى، كان هناك تعليم خاص بوكالة الإنسان ومسئوليته. ومع ذلك، لم يكن سجل الكنيسة خالياً تماماً من الغموض، وإنها

(1) Westermann, *Genesis 1-11*, p.176.

لحقيقة أن كثيراً من الكوارث البيئية، التي نشهدها في أيامنا هذه، يمكن إرجاع مسئوليتها إلى تمركز الإنسان حول ذاته."(١)

وفي كتابه الرائع "نقطة التحول"، يوضح "فريتوف كابرا" Fritjof Capra، الأمر على نحو جيد فيقول : "إن النمو التكنولوجي المفرط قد خلق لنا بيئة، أصبحت الحياة فيها غير صحية من الناحيتين البدنية والذهنية: هواء ملوث، ضوضاء بغيضة، اختناق في حركة المرور، تلوث كيمائي، مخاطر الإشعاع، ومصادر أخرى كثيرة للضغط البدني والنفسي، أصبحت تشكّل جزءاً من الحياة اليومية لغالبيتنا. وهذه المخاطر الصحية البالغة، لم تكن مجرد نتاج عارض للتقدم التكنولوجي، بل هي ملامح متأصلة لنظام اقتصادي تستحوذ عليه – وبشكل غير سوي – فكرة النمو والتوسع للإنسان، فيواصل جهوده في النواحي التكنولوجية المتقدمة، في محاولة منه لزيادة الإنتاجية."(٢)

وعلاوة على المخاطر الصحية هذه، يشير "كابرا" – وعن حق – إلى نواح من ثقافتنا الراهنة، قد تكون أكثر خطورة بكثير: إفساد العمليات البيئية التي تدعم بيئتنا الطبيعية، والتي هي أساس وجودنا المادي نفسه. فأنانية الإنسان المتسترة وراء رداء " الإنتاج "، أو "الكفاءة"، أو "المنافسة"، تفضّل المكاسب الاقتصادية قصيرة الأمد، عن الاهتمامات طويلة الأمد التي تراعي مصلحة الكوكب الذي نسكنه نحن وأحفادنا من بعدنا. ولكن (تك١) يذكّرنا بأن خليقة الله – ونحن البشر أيضاً – موجودون من أجل الله (أو لله) . فالخليقة تشكل مجتمعاً، وكل جزء منها لا يحقق كماله، إلا من خلال تناغمه مع الأجزاء الأخرى، واتفاق كل جزء مع الأغراض التي خلقها الله من أجلها.

وللتأكيد، بعد أن خلق الله الرجل والمرأة، أمرهما أن يتسلطا على .. .." (١: ٢٨)، حيث التسلّط على الأسماك، والطيور، وكل الكائنات الحية.. ولكن ما هو المقصود بهذا التسلط؟!

أحياناً، يُستخدم هذا النص، وبطريقة غير صحيحة، لتأييد أفكار تسلط الذكور، وخضوع الإناث، ولكن هذا ما لا نستطيع أن نجده هنا. ومن الواضح تماماً، أن التسلط قد أعطي للإنسان الذي خلقه الله، سواء كان ذكراً أم أنثى.

(١) K. Thomas, pp.22f

(٢) F. Capra, *The Turning Point* (Fontana, 1982), p.249.

وكما سنرى بعد قليل، يلزمنا أن نعرف نوعية السيطرة التي يمارسها الإنسان على ضوء وضعه، كممثل لله "على صورة الله" (١: ٢٧). والأصحاح الثاني من سفر التكوين، سيقدم لنا صورة للإنسان، كمدير أو وكيل للمتلكات، يزرع جنة الله ويحميها. وهكذا، فإن " تسلط " الرجل والمرأة، ينبغي أن يكون بصفتهما مُمثلين لله، وفي ضوء قوة الله الخالقة. وعلى ذلك، فمن غير الممكن أن تكون سيطرة سيادية مستغلة، بل وكالة مسئولة، وخدمة مساعدة، تعترف بأن كل الأشياء تستمد وجودها من يدي الله.

وقد نحسن صنعاً بأن نقرأ (تك١: ٢٨)، على هدى الصورة التي وصفنا بها قوة الله الخالقة. فهو الذي قد يُخرج النظام من الفوضى، وهو أيضاً الذي يحمل عالمه ويحفظه. وإخضاع الإنسان للخليقة، ما هو إلا مشاركة في كل هذه النواحي من العمل الإلهي.

وإذا نُظر للبشر على اعتبار أنهم " ملوك على الطبيعة"، ولعل هذا تضمنه الأمر: "أن يُخضعوا سائر الخليقة"؛ فإن هذا لا يمكن فهمه إلا على ضوء حكم الله الملكي، الذي يهدف إلى خير رعاياه، وخدمة احتياجاتهم بكل محبة.

فالإنسان - إذا جاز القول هو الملك الخادم . وعلينا أيضاً أن نحافظ على العالم، ونهتم به، حتى يمكن تحقيق قصد الله في جعل خليقته مجتمعاً متكاملاً، يعتمد كل جزء فيه على الآخر.

وفي (الأصحاح ٢)، نرى الحيوانات رفيقة للإنسان. ولذلك، يجب أن يكون حكمنا: " حكم سلام". ثم إنه علينا أيضاً - إذا ما غيّرنا التشبيه المجازي - أن نتصرف " كقابلة "، بالنسبة للخليقة التي تئن(انظر رو٨ : ١٢)؛ لتأتي بحياة جديدة وإمكانات للحياة. ومما يُؤسف له، أن كلمة "أخضعوا" أحياناً لا تُترجم إلا بمعنى (تسلطوا)، مما دفع بالإنسان، ليس إلى دور الخادم الذي يسهل الأمور، بل إلى دور السيد المستغل.

وبعد أن أبدينا هذا التحذير، علينا أن نعود ثانية للأهمية البالغة التي يضفيها هذا الأصحاح على الإنسان. ومن بين سلسلة المخلوقات العديدة ،اختار الله جنساً واحداً منها وميّزه ؛ **والتميّز الذي أعطى للإنسان، كان على أساس أنه خُلق على "صورة" الله و"شبهه".**



٦. صورة الله

(١: ٢٦-٢٧)

إن مناقشة التفسيرات الكثيرة والمتنوعة لعبارة "على صورة الله"، سوف تستغرق وقتاً طويلاً جداً. وقد صدرت كُتب كثيرة في هذا الموضوع، وثارت المجادلات فيما لو إذا كانت كلمتا " صورة " و"شبه " مترادفتين، أم أنهما تشيران إلى نواح مختلفة من حياة الإنسان وإيمانه. وتتباين تفسيرات الكاثوليك والبروتستانت في هذا الشأن، ولكل من اللوثريين، والبارتيين (اتباع كارل بارت) Barthians، والنيبوريين (Niebuhrians) مفهومه المختلف.

ولعلنا إذا ما دققنا في هذا الاختلاف، لن ندهش منه إلى هذا الحد. لأن ما تشير إليه عبارة "صورة الله"، يكمن في هذا السؤال : ماذا يعني أن تكون إنساناً حقيقياً؟

ودون أي جدال، فإن لعبارة " صورة الله " علاقة بإنسانيتنا، بل إن التعقيد كله هو في كون الإنسان إنساناً. فالاختلافات والتميّزات مرتبطة بما يعنيه أن تكون إنساناً في هذا العالم، الأمر الذي حمل كُتّاباً مختلفين على إبراز نواح مختلفة من طبيعتنا.

ولقد فهم بعض المفسرين كلمة " صورة " بمعنى مادي بحت. وإذا كان لله أن يأتي بيننا، في إطار قيود هذا العالم المادي؛ فسوف يكون إنساناً. وآخرون يقارنون قامة الإنسان المعتدلة، وتركيبة جسم الحيوان الذي تتجه رأسه إلى أسفل، ويقولون إن هذا يشير إلى تميزنا عن عالم الحيوان.

وثمة كتّاب كثيرون يشيرون إلى معنى الكثير من السمات الأخلاقية والعقلانية والروحية للإنسان، ويقولون بأن " صورة الله " هي أسلوب آخر لوصف الأخلاقيات، أو العقلانية، أو القدرة على الانتساب إلى الله. ومع ذلك، هناك آخرون يربطون هذه العبارة بالكلمات التي تتبعها في النص الكتابي، والتي تتحدث عن " التسلط "، وهم يعتقدون أن صورة الله، تم التعبير عنها في تسلطنا على بقية العالم المادي، وإبداعنا فيه.

وهناك واحد من المفكرين اللاهوتيين، بصفة خاصة، وهو "كارل بارت" Karl Barth، يشرح صورة الله في إطار الكلمتين " ذكراً وأنثى "، معتقداً أن التكامل الجنسي هو مفتاح فهم هذه العبارة. ومع ذلك، يعتقد آخر أن ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، ويربطنا بالله، هو قدرتنا

على إدراك ذواتنا، وتأملنا الواعي لها. والله هو المُدرك الأعظم لذاته؛ وأن نكون على صورته ، هو أن ندرك ذواتنا بصفتنا خليقته .

وبمعنى ما وعلى غرار المثل الخاص الرجال العمي، الذين حاولوا أن يصفوا الفيل، عن طريق اللمس فحسب، بأن يقوم كل واحد منهم بلمس جزء صغير فقط . فإن كل هذه الآراء من جهة ما تعنيه أن تكون أنساناً ، تحمل حقاً بين ثناياها؛ فقد ألقى جميعهم الضوء على معنى "صورة الله". إلاّ أنه مازال هناك الكثير الذي يقال في هذا المقام.

وكثير من هذه الآراء الخاصة بالصورة الإلهية تركز على " قدرة " ما في الإنسان على الوجود، أو على حمل أشياء معينة، فالتركيز هو على شيء فينا، يمكننا الإشارة إليه، قائلين: "هنا تستطيع أن ترى صورة الله " .

وعلى النقيض من ذلك، ثمة كثيرون من المتخصصين في العهد القديم، يعارضون هذا الاتجاه. ويحتجون بأن "الصورة" ليست موضوع صفة في الناس، ولكنها تتعلق بحقيقة أن الله خلق الناس كنظراء له، وأنه بمقدور الناس أن يكون لهم تاريخ مع الله. ويقول "ويسترمان": Westermann "إن الناس قد خُلقوا بطريقة، رُوعي فيها أن يكون وجودهم ذاته هو صلتهم بالله"[1]. والصورة – على أساس هذا الرأي – ليست في شئ نمتلكه، أو بمقدورنا أن نعمله: إنما هي تشير إلى علاقة.

فهي أولاً، وقبل كل شيء عن (العلاقة) الخاصة التي يضع الله فيها نفسه مع الناس، فهي (علاقة) نصبح فيها نظراء الله، وممثليه، ومجده على الأرض.

وسوف نحاول أن نكتشف، بأي الطرق تُرى هذه الصورة، من منظور العهد الجديد. ولا يوجد سوى إنسان واحد قِيل عنه بوضوح : " إنه صورة الله غير المنظور" (كو١: ١٥). ويوضح العهد الجديد، بدون أي لبس، أنه إذا ما رغبنا في أن نرى " صورة الله " في هذا العالم، فإننا نراها في يسوع المسيح. ويتحدث القديس بولس عن " مجد المسيح الذي هو صورة الله "(٢كو٤: ٤). وقبل ذلك، حين كان يكتب عن تغيرنا إلى شبه المسيح، استخدم تشبيه المرآة : " ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب . . . . كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها " (٢كو٣: ١٨) . فما الذي يُوحي به تشبيه المرآة ؟

---

(1) Westermann, *Genesis 1-11*, p.158.

بمقدورنا أن نرى صورة شئ معين في مرآة؛ إذا كانت المرآة في الزاوية الصحيحة، أو كما يمكن أن نقول، في العلاقة الصحيحة، بالنسبة لهذا الشيء. والمسيح يسوع يعكس بحق طبيعة الله، لأنه في علاقة الابن بأبيه: هو صورة الله ومجده على هذه الأرض.

وأن تكون في " صورة الله"، - ربما من الأفضل أن نقول- " كصورة الله "، فإن هذا ليس معناه، في المقام الأول، أن تتوفر لنا القدرة على أن تكون أو أن تعمل أي شئ، بل الأمر يتوقف على صلة الله بنا، أو بتعبير آخر: على صلة بنويتنا للآب. **فالموضوع لا يتعلق ببعض الخصائص التي نمتلكها : بل يتعلق بوجودنا كله. فالإنسانية الحقة، نجدها في الشركة الشخصية مع الله – وفي مثل هذه الشركة الشخصية، ينعكس مجده، ونرى صورته.**

ونحن في حاجة الآن، لنوضح هذا، بمزيد من التفصيل بقدر الإمكان، إذا ما أعدنا النظر إلى الموضوع – إذا جاز لنا القول – من منظور إيماننا المسيحي:

[١] إن الله الذي عرفناه، ونعبده في المسيح يسوع بالروح القدس، هو مثلث الأقانيم، فيه تجتمع المحبة الخالقة والشركة الشخصية معاً. فالله هو **"أن تكون في شركة"** (إذا ما استعرنا عبارة من "جون زيزيولس" John Zizioulas). وهذا معناه أن الشركة الشخصية، في المحبة بين الأشخاص، هي في المقام الأول ما يُقصد بصورة الله. ويسوع، هو صورة الله في هذا العالم؛ لأنه في علاقة شركة محبة مع أبيه. ونحن نعكس صورة الله، إلى حد أننا ننمو في شركة شخصية معه، ومن ثم، مع بعضنا البعض. ولتقديم مثل واحد على ذلك: نرى بعض الفلاسفة مثل "جون ماك موري" J. Macmurray، يقولون : " أن تتحدث عن " شخص بصورة مطلقة "، فلا يمكن أن يكون لذلك أي معنى؛ إلا إذا تكلمنا عن **"أشخاص تربطهم علاقة "**، **"فأنا أكون ما أنا، بعلاقتي بك"**[(١)].

وهذه النقطة تم توضيحها على أفضل وجه في كتاب، أعتقد أنه يجب أن يكون في كل بيت مسيحي، وعلى قائمة قراءات كل الزملاء من المفكرين اللاهوتيين : وهو كتاب "مارجري ويليامز" Margery Williams، "الأرنب والحصان". حيث توجه الأرنب إلى الحصان العجوز العاقل والمختبر، وسأله قائلاً : ما هو المقصود **"بالحقيقي"** ؟ هل معنى هذا أن يكون لك شيء يزِّن في داخلك وله يد بارزة ؟ أجاب الحصان قائلاً : **"الحقيقي"** ليس الكيفية التي عُمِلت أنت بها، بل هو أمر يحدث لك. حين يحبك طفل لمدة طويلة، وليس مجرد أن يلعب معك، بل يحبك **"حقيقة"**؛ هنا تصبح أنت **"حقيقياً"**. سأل الأرنب : وهل هذا يؤلم ؟ قال له الحصان : أحياناً، لأنه كان دائماً أميناً. فسأل

(١) J. Macmurray, *Persons in Relation* (faber, 1961).

الأرنب: هل يحدث ذلك في الحال، أم شيئاً فشيئاً ؟ قال الحصان : إن هذا لا يحدث دفعة واحدة. بل أنت "تصير" هكذا. فالأمر يستغرق وقتاً طويلاً . . . وفي العادة، ومع الوقت الذي تصبح فيه "حقيقياً"، يكون معظم شعرك قد تساقط، وتكون عيناك قد وهنتا، وصورتك مشوهة . . . . ولكن ما أن تصبح حقيقياً، فإنه لن يكون بمقدورك أن تعود غير حقيقي مرة ثانية، لأنك ستظل حقيقياً بصفة دائمة".[١]

ونحن نصبح حقيقيين من خلال علاقات المحبة. وسوف نعود ثانية إلى هذه النقطة بالطبع، في (تك٢)، حين نسمع الله يقول عن الإنسان إنه ليس جيداً أن يكون وحده.

وقد يكون جديراً بالذكر، أن مفهوم الصلة هذا عن الصورة الإلهية، يمكن أن يعطي معنى لذكر الله بصيغة الجمع في (تك١: ٢٦) : " نعمل. . . "، في حين أن هذه قد تكون صيغة الجمع للتعظيم، إلا أن مفسرين مسيحيين كثيرين، رأوا هنا أيضاً لمحة عما عبرت عنه عقيدة الثالوث.

وعلى سبيل المثال يقول "القديس أغسطينوس" :

"حينما أقرأ أن روحك كان يرف على وجه المياه؛ أرى لمحة من الثالوث الذي أنت عليه يا إلهي. لأنك أنت أيها الآب الذي خلق السموات والأرض من خلال "حكمتنا"، التي هي حكمتك، المولود منك، والمساوي لك، والذي كان معك منذ الأزل أي في ابنك . . . إذاً؛ هنا الثالوث المقدس: الله، الآب، والابن، والروح القدس، خالق كل خليقة".[٢]

وسواء كان "أغسطينوس" مصيباً أم لم يكن، إلا أنه من المؤكد أن هناك سؤالاً مطروحاً: مع من كان الله يتكلم، حين اتخذ هذا القرار الحاسم : " نعمل. . . . "؟!

إن أكثر الإجابات احتمالاً، هي أنه كان يتكلم مع نفسه - شركة بين كلمة الله الخالق، وروح الله الخالق، واللذين فيهما نرى الله في أعمال خلقه. أو لعله كان يتحدث مع حاشيته السماوية، والذين - كما يشير سفر أيوب انضموا إلى كواكب الصبح في الترنيم والهتاف (أي ٣٨: ٤ و٧).

[٢] وقصة الأرنب والحصان، تقودنا إلى النقطة الثانية : فالإنسانية الحقة هي في أن " تصبح " وليس في أن "تكون" فحسب. فالعلاقات تحدث على مرّ الزمن، وأن تكون في علاقة مع الله، فهذا معناه - كما يقول ويسترمان أن "يكون لك تاريخ" مع الله. ولذلك ، فإنه من ناحية ما، إنه أمر

---

(١) Margery Williams, *The Velveteen Rabbit* (Heinemann, 1922).

(٢) St Augustine, *Confessions*, Book XIII.5.

صحيح أن تتكلم عن يسوع المسيح على أنه الإنسان الحقيقي، إلا أنه ينبغي أن نتحدث عن أنفسنا على اعتبار أننا "أصبحنا" أناساً. وأن تفهم صورة الله أساساً في إطار العلاقة، هو أن تراها ليس باعتبارها هبة من الله فقط الذي يدعونا إلى علاقة معه - بل كمهمة يجب أن تُعمل، ومصير يجب أن يُتّبع .

وكما سبق القول، إذا كنا نود رؤية صورة الله بوضوح، فإننا نراها في المسيح يسوع. فما نراه في بعضنا البعض، لا يخرج عن أن يكون انعكاساً باهتاً فيها، لأن صلتنا بالله أبعد من أن تكون كاملة.

وقصة علاقة الله بنا هي قصة المغفرة، والولادة الجديدة، والقيامة. ومهمة التلمذة المسيحية، يمكن أن تُروى على أنها قصة علاقة الله معنا، على مدى حياتنا، إذ يساعدنا بنعمته على أن نصل إلى " قياس قامة ملء المسيح " (أف ٤ : ١٣). **فنحن - إذا جاز التعبير - في رحلة إلى شخص الله. فالله هو الكائن الحقيقي الذي يحبنا، ويساعدنا على أن نكون نحن أيضاً أناساً حقيقيين.**

[٣] وأن نُخلق على صورة الله؛ فهذا معناه أن الإنسان يمثّل الله على الأرض. فنحن إذا جاز التعبير وكلاء الله في مجتمع الخليقة. وقد وضّح "مولتمان" Moltmann هذا الأمر، على هذا النحو، فقال:

"باعتبار الإنسان صورة الله وشبهه على الأرض، فقد دخل الإنسان في ثلاث علاقات أساسية : فهو يسيطر على المخلوقات الأرضية الأخرى، باعتباره ممثلاً لله وفاعلاً ذلك باسمه. وهو نظير الله في الأرض، الذي يريد الله أن يتكلم معه، والمفروض أن يستجيب له. كما أنه مظهر بهاء الله ومجده على الأرض"[١].

ولم يُعط هذا الوضع، إلاّ للإنسان فقط - فلم يُعط للملائكة أو لأية مخلوقات أخرى أن تكون صورة الله. ولذلك، نجد هنا تأكيداً على تميّز الإنسان، الأمر الذي في حاجة إلى تأكيده في مواجهة فلاسفة الحركة الإنسانية (Humaniam)، وبعض المتطرفين من حركة حقوق الحيوان (Animal Rights)، الذين من رأيهم أن هذه التفرقة في النوع (Specisism)، تستحق الشجب، شأنها شأن حركات أخرى مثل العنصرية (Racism)، والتميّز بسبب الجنس (Sexism)، وهؤلاء

(١) Moltmann, *God in Creation*, p.221.

في بعض الأحيان يقدمون حقوق الحيوان، على قداسة الحياة البشرية. وأما سفر التكوين فيصر على أن الإنسان هو الذي أعطاه الله مهمة ومجد تمثيله على الأرض.

[٤] هناك قدرات وإمكانات معينة للإنسان، تشكِّل جزءاً من صنع العلاقات وتعلم الحب من خلالها. وإنه ليس من المستغرب أن هذه كثيراً ما تُوصف بأنها وجه أو آخر من صورة الله.

والواقع، أننا قد نود أن نرى شخصاً يتمتع بالصحة، وممتلئاً بالروح، قوياً، عقلانياً، ذا أخلاق حميدة، يتمتع وينمو من خلال العلاقات مع الآخرين كشخص- أصبحت صورة الله فيه أكثر وضوحاً. ومن بين هذه القدرات الإنسانية نفسها "العقلانية"، وهي - كما سبق القول - تشكل عنصراً هاماً في عمل الإنسان الذي نسميه "العلم". فهناك اتصال بين عقولنا والعالم المنظّم الخارج عنا، الذي يعكس شيئاً من عقلانية الله (اللوغس) (Logos). ومع ذلك، فعلينا أن نأخذ حذرنا من القول بأن الطفل الذي لم يدرك النواحي الأخلاقية بعد، (ناهيك عن الجنين في الرحم)، والشخص المصاب بالشلل، والمريض بالسرطان، أو الأشخاص الذين تقدموا في السن والذين بدأت عقلانيتهم تضمحل، انهم، نظراً لعدم قدرتهم على عمل أشياء معينة ، تقل صلتهم بالله. لأن الصورة (صورة الله فيهم) هي مسئولية، كما أنها عطية، وهي تاريخ بقدر ما هي وضع ثابت. إنها مسئولية وتاريخ يتحرك عبر مراحل كثيرة: من الحياة الجنينية، إلى الطفولة، إلى حالة البلوغ والرجولة، ثم إلى الشيخوخة، ومن الصحة إلى المرض، ومن عدم القدرة، إلى القدرة، ثم العجز. وليس المهم هو توافر قدرات معينة، بل المهم هو حقيقة أن الله قد وضعنا في علاقة معينة بالنسبة له.

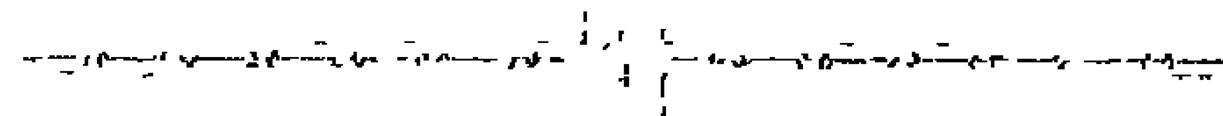
[٥] وإذا كانت "صورة الله"، هي أمر له علاقة بالشركة الشخصية، فلعلنا نستطيع الآن أن نرى معنى ربط "بارث" Parth بين الصورة الإلهية والعلاقة بين الجنسين. لأنه، وكما سيتضح بالأكثر من (تك٢) ، فإن حالة التكامل وتبادل العواطف والقدرة على الإبداع في العلاقة بين الجنسين، ذكر وأنثى في شركة شخصية، وقد رُمز إليها وتعمقت من خلال العلاقة الجنسية، فهي من أقوى الجوانب في إنسانيتنا. **وإذا كانت الشركة الشخصية في الحب، هي جزء من معنى علاقة الذكر والأنثى، التي تجد أقوى تعبير لها في رحلة الزواج، فهذه أيضاً، تشكل جزءاً من معنى "صورة الله".**

[٦] وأخيراً، فإنه في (تك ١ : ٢٨)، نجد أن صورة الله في الإنسان - ذكر وأنثى - رُبطت ببركة الإثمار : "أثمروا واكثروا واملأوا الأرض". وهذا في تناقض صارخ مع عبادات الخصوبة الوثنية، والتي يحاول فيها الإنسان أن يقنع الآلهة أن تجعله مثمراً. وقد أعطى الله الخصوبة والإثمار للإنسان. والإنسال والإنجاب يعني بدقة " الخلق نيابة عن آخر " - وفي هذه الحالة، هو نيابة عن ذاك الذي هو

المحبة، أي الله نفسه. وعلى ذلك، فإن قدرة الإنسان على الإبداع، ولا سيما قدرته على الإنسال، نشكِّل في تاريخنا جزءاً من إتمام محبة الله الخلاقة فينا، كصورته في تاريخنا، **وعلى ضوء هذا، يُنظر إلى كل حياة على أنها هبة من الله. فبركته، شأن كل البركات، لا تمنح هبة وحسب، بل تمنح عملاً أيضاً.**

وهكذا، فإن قدرة الإنسان على الإبداع، تعبِّر عن قدر من طبيعة قدرة الله الخلاَّقة، وكما يتضح مما جاء في (تك١: ٢٨)، فإن هذا لا يكمن في كون الإنسان مثمراً ومكثراً وحسب، بل بالأحرى في إخضاع الأرض والتسلط عليها.

وفي ضوء كل ما قلناه عن صورة الله، بات من الواضح جداً الآن أن "التسلط" لا يمكن أن يعني الاستغلال، بل يجب أن يُنظر إليه على أنه نوع من الخدمة المساعدة، التي تحافظ على جو، يشعر فيه الأشخاص الذين يعكسون قدراً من طبيعة محبة الله وقدرته الخلاَّقة بالراحة. والأصحاح الأول من سفر التكوين، سرعان ما يقودنا إلى الأصحاح الثاني، حيث يوضِّح معنى علاقة الإنسان بالله، وبسائر خليقته، بعبارات دقيقة للغاية.



٧. إنه حَسَنٌ

أ. البركة

لقد جاء في (تك١: ٢٢) أن الله بارك الحيوانات، وبارك الإنسان الذي خلقه على صورته ذكراً وأنثى (١: ٢٨). وبعد ذلك، بارك اليوم السابع (٢: ٣). "والبركة" في الكتاب المقدس، كلمة تشمل الحيوية، والإبداع، والإتمام. وحياة الخليقة كلها، هي نتاج بركة الله. والخليقة بجملتها تشملها الآن بركة الله - فالخليقة تتمتع بفيض وفرح. وبركة الله هي الموسيقى التي تطرب لها الخليقة.

ب. الطعام

نستطيع أن نلمس جزءاً من بركة الله، في تدبيره الطعام لشعبه(تك١: ٢٩ -٣٠). وعلى النقيض من قصص بلاد ما بين النهرين، والتي يجب فيها على الناس توفير الطعام للآلهة، نرى الله هنا هو الذي يوفر الطعام لشعبه. وفي هذا التدبير، نرى تذكِرة أخرى لاعتماد الخليقة بعضها على بعض. فنحن نساهم في الخليقة التي نحتاج إليها للحياة، تماماً مثلما تحتاج إلينا بقية الخليقة، كي نعتني بها ونحفظها. إن نُظُم البيئة التي وُضعت فيها دوائر حياة كل المخلوقات، وحاجة كل مخلوق إلى الإعالة من قبل بقية نظام الخليقة، وبالتالي الحاجة إلى خليقة تُحترم فيها حاجة كل عضو إلى الآخر، والتكامل المتبادل بين الجميع : كل هذه الأمور يجب إرجاعها إلى حقيقة أن الله هو الذي يدبر الطعام : " كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه" (مز١٠٤: ٢٧).

ج. الجود

يا له من احتفاء عظيم بالخليقة! ذاك الذي تمثل في هذه الصيحة المتكررة : "ورأى الله ذلك أنه حسن" (١: ١٠و١٢ و١٨ و٢١ و٢٥)، وبلوغ ذروتها في (العدد ٣١) ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً ". حقاً، لقد كان حسناً جداً.

وقبل أن يُقال أي شيء عن الشر، أو الألم، أو الخطية، و ما إلى ذلك،نحن في حاجة أولاً أن نسمع هذه العبارة التي تفيض سروراً. فما خلقه الله هو حسن!

هذا هو أساس الاحتفاء بعالم الله والتمتع به، الأمر الذي ضاع في بعض التعاليم المسيحية، وراء التأكيد، الذي يكاد أن يكون قاصراً على الخطية. **فالفن، والموسيقى، والتمثيليات**

والرقص، كلها أمور يمكن استخدامها للاحتفاء بصلاح الله نحو العالم - وهذا ما كان بالفعل. فداود الملك كان " يرقص بكل قوته أمام الرب " ، وذلك احتفالاً بإحضار تابوت العهد إلى أورشليم، الأمر الذي أزعج زوجته . ونلاحظ " تبذيراً " في احتفاء مريم بالمسيح وتعبدها له، حين صبَّت طيباً كثير الثمن على قدميه (يو١٢: ٣). إننا في حاجة إلى أن نستعيد الإحساس بالفرح بالأشياء الحسنة، حتى ولو كان هناك كما سنرى في (تك ٣) ظلاً يخيِّم على هذا الفرح.

وقد استطاع "جوليان النرويجي" Julian of Norwich أن يلمس محبة الله الخالقة العجيبة، وذلك في "بندقة" صغيرة، فقال: "في هذا الشيء الصغير رأيت ثلاث حقائق: الحقيقة الأولى، هي أن الله خلقها. والثانية، هي أن الله يحبها. أما الثالثة، فهي أن الله يفديها"[1] وفي صغر البندقة، وفي بساطة الطبيعة، رأى "جوليان" محبة الله التي تمثلت في الخلق والإعالة.

وقد احتفى الشاعر "بليك" Blake، والشاعر "وردزورث" Wordsworth بصلاح خليقة الله في أشعارهما. أما "توماس تراهيرن" Thomas Traherne، فقد كتب في القرن السابع عشر يقول:

"إنك لن تتمتع بالعالم على نحو صحيح، إلا حين يتدفق البحر نفسه في عروقك، وحتى تكتسي بالسماء وتُتَوج بالنجوم : وترى نفسك الوريث الوحيد للعالم كله، بل إنك ستسعد بالأكثر، لأنه يوجد بالعالم أناس كل منهم يعتبر نفسه الوريث الوحيد مثلك، وحتى تستطيع أن تترنم وتفرح في الرب، مثلما يفرح البخلاء بالذهب، والملوك بالصولجان. فإذا لم يتولد فيك هذا الشعور، فلن تتمتع بالعالم على الإطلاق".

تمتع بالعالم!

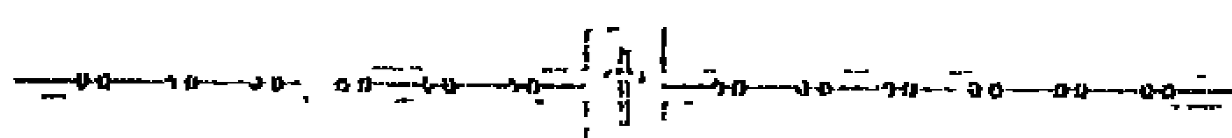
إن حسن الخليقة، ينطبق أيضاً على الإنسان!

ولكن من النواحي المفزعة في ثقافتنا المعاصرة، فقدان احترام الشخص لذاته. إذ يرجع السبب في الكثير من الأمراض التي تثير الكآبة في النفس، والتي هي موضع الاهتمام اليومي لأخصائي العلاج النفسي والمرشدين الروحيين، والصعاب التي يواجهها الكثيرون منا في تكوين الصداقات والحفاظ عليها؛ كل هذا يرجع إلى نظرتنا المشوَّهة التي تبخس من قدرنا في نظر أنفسنا. فكلمات مثل : "أنا لست شيئاً "، " لست مستحقاً " ، من الطبيعي أن تكون في موضعها الصحيح

---

[1] Julian of Norwich, *Revelations of Divine Love* (Penguin ed.), p. 68.

في مجال التقوى المسيحية. لكني لست كلا شئ، كما أني لست "غير مستحق" على ضوء صورة التكوين هذه لخليقة الله. و"صورة الله" قد تُشَّوه؛ ومن ثم لا تصبح كما خلقها الله، وقد يكون هناك الكثير مما لا يزال في حاجة إلى "التجديد". ولكن قد يبدو لنا، بل يجب أن نقول عن أنفسنا - كما عن كل شيء آخر خلقه الله   إن هذا في الواقع حسن جداً.



٨. اليوم السابع

(٢: ١-٣)

ليس صحيحاً القول إن الأصحاح الأول من سفر التكوين قد وصل إلى ذروته، بخلق الإنسان. ذلك أن هيكل الأصحاح كله كأسبوع أيام كامل، يأخذنا إلى اليوم السابع كالذروة الختامية لعمل الله في الخليقة. لقد أنهى الله عمله، وسُرّ به، وقال " هذا حسن " ، ثم استراح. وقد بارك الله اليوم السابع، وقدّسه.

وما حدث في العصور الوسطى، من تقسيم الأصحاحين عند نهاية الأصحاح الأول في الكتاب المقدس، قد ألقى عتامة على الخاتمة الحقيقية لهذا الجزء من القصة، في الأصحاح الثاني (الأعداد ١- ٣). وهكذا، نجد أن اليوم السابع يواصل قصة الله المستمرة مع شعبه، ومع عالمه، وهكذا توجهنا هذه الصيغة إلى الأمام. وهناك أمران في هذا الخصوص، سوف نركز عليهما، وهما : الزمن والسبت.

أ. الزمن:

من بين السمات البارزة للإصحاح الأول من سفر التكوين، تركيزه على الزمن. ولقد بُنيت القصيدة في صورة أسبوع من الأيام. وفي اليوم الرابع، خلق الله الأنوار في جَلَد السماء " لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين " (١: ١٤). والخالق يريد تقسيم الزمن؛ حتى يتسنى تنظيمه. وهكذا، وكما قال "وولف" H. W. Wolff: "إن تنظيم الوقت يُعد من هبات الله للخليقة "[1]. وهذه الصورة نجدها أيضاً في بعض المزامير : " لك النهار ولك أيضاً الليل. . . الصيف والشتاء أنت خلقتهما " (مز٧٤: ١٦ ١٧).. " صنع القمر للمواقيت الشمس تعرف مغربها " (مز ١٠٤: ١٩).

وتقسيم الزمن، معناه أنه باستطاعتك أن تضفي على أوقات معينة أهمية خاصة. **والواقع أن (تك٢: ١- ٣) فعل هذا، وذلك بالتشديد على إبراز الأهمية الخاصة لليوم السابع.**

---

(1) H. W. Wolff, The Old Testament concept of time, in *An thropology of the old testament* (Eng. tr., SCM, 1974) p.86.

وعندما ننتقل بعد ذلك إلى (تك٢)؛ نجد أن الأوقات "الهامة" تُعطي لها مكانة خاصة. ونفس التعبير، نجده في حديثنا عن " الوقت الصحيح" (The right time) الذي يُخصَّص لعمل شيء ما. ولذلك، فإن كلمة "يوم"، في (تك ٢) لا تُستخدم بنفس الطريقة التي أُستُخدمت بها في الأصحاح الأول. فكلمة " يوم "، في الأصحاح الثاني، تعني حدثاً يتعلق بعمل إلهي : " يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات " (تك٢: ٤). وقد خُلعت أهمية على اليوم؛ لدوره في قصة علاقة الله بعالمه.

وفي بعض الأصحاحات التالية من سفر التكوين، نجد أن "الزمن"، بالنسبة للإنسان، كثيراً ما تُخلع عليه، وبهذه الطريقة، أهمية اختبار الإنسان لله. فقد طُرد قايين " اليوم " (تك٤: ١٤) وهو بالنسبة له يوم دينونة. وبعد الطوفان، وُعد نوح أنه " مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال " (تك٨: ٢٢). وكان هذا، وعداً صريحاً من الله، بأنه لن يأتي بطوفان آخر. فبالنسبة لنوح، خلع الله على الأوقات، الأهمية الخاصة بأمانته.

وبالنسبة للفكر العبري، فإن ما يعنيه "الزمن" ليس هو ترتيب وقوع الأحداث، بل الأهمية التي صاحبت تلك اللحظة.

وفي بقية العهد القديم، يصور لنا هاتين الناحيتين من الزمن. فالزمن هو ترتيب زمني متسلسل للأحداث، كما أنه، وبصفة خاصة، أوقات لها - لأهميتها - أوقات عمل إلهي، أو مناسبات لها أهميتها للإنسان. وسفر الجامعة، وهو من كتابات الحكمة، يقدم تعبيرات معروفة جيداً لهذه الناحية الثانية : " لكل شيء زمان ولكل أمر تحت السموات وقت " (انظر جا٣: ١- ٩).

وينطبق نفس الكلام على العهد الجديد، وهناك عدة كلمات تشير إلى "الزمن". ولكي نبسِّط للغاية ما هو في حقيقته، مجموعة معقدة من الأفكار المترابطة، بمقدورنا أن نختار بصفة خاصة كلمة "كرونس" (chronos) التي تُستعمل في الغالب لتسلسل الأحداث (مرتبة ترتيباً زمنياً chronological time)، والكلمة الثانية "كايروس" (kairos)، وتُستخدم بالنسبة للأوقات الهامة (Significant time): أوقات الكوارث، أو الأوقات الخاصة بالمناسبات(١). ولذلك، حين بدأ يسوع خدمته الكرازية (بحسب إنجيل مرقس) استهلها بقوله : " قد كمل الزمان [kairos]

(١) cf. J. Barr, *Biblical words for time* (SGM, 1969); *cf. The New International Dictionary of New Testament Theology*, vol. 3 (Eng. tr., Paternoster, 1978), pp. 826 ff.

" (مر١: ١٥)، ولم يكن يطلب من سامعيه - إذا جاز القول - أن ينظروا في ساعاتهم - بل كان يعلن أن زمن الله قد حلّ: وهذه لحظة هامة في مقاصد الله لعالمه، وهي لحظة إنتهاز الفرصة المتاحة، ولحظة لها مناسبتها.

والواقع أن العامل الجديد الذي له أهميته حقاً في المفهوم المسيحي للزمن، بخلاف ذلك المتعلق بالعهد القديم، هو أنه بمجيء المسيح أشرق زمان (kairos) جديد. فكل أوقاتنا الآن تأخذ معناها من ذاك الذي يسميه " بارت" Barth: " رب الزمن".

وكثير مما ذُكر، يُعدّ غريباً بالنسبة لطرق تفكيرنا. فلقد اعتدنا ألاّ نفكر في الوقت، إلاّ على ضوء الترتيب الزمني. هل سيتوفر لنا الوقت ؟ هل سيكون الوقت متأخراً ؟ كم الساعة الآن ؟ كيف نرتب كل شيء، بحيث يتمشى مع الزمن ؟ نحن نهدر الوقت، نحن نفقد الوقت، نحن نُمنح الوقت، نحن نخصص الوقت لأمور الحياة. غير أن المفاهيم الكتابية للوقت تطلب منا أن ننظر بالأكثر إلى الوقت بحسب أهميته : **فمقاصد الله في التاريخ، قد تركزت واكتسبت معناها من يسوع المسيح.**

ولسنا وحدنا الذين نشعر بالصعوبة في محاولتنا فهم الزمن. فمن بين آباء الكنيسة الأوائل العظام، نجد أن أغسطينوس صارع، لمعرفة معنى الزمن بالنسبة لإيمانه المسيحي، على الرغم من أن بعضاً من استنتاجاته، لم تأت بالوضوح الذي كان متوقعاً. حيث يتساءل أغسطينوس: "هل كان هناك زمن قبل أن يخلق الله العالم؟". ويرد على ذلك بقوله : "كلا ، لم يكن هناك زمن، لأن الزمن نفسه كان من صنعك يارب" ، فما هو الزمن إذاً؟ "إني أعرف جيداً ما هو ، شريطة ألاّ يسألني عن ذلك أحد ، غير أنه إذا ما سُئلت ما هو ، وحاولت أن أشرحه، فسوف تتملكني الحيرة" . وقد انتهى أغسطينوس إلى أنه ليس بمقدورنا أن نعي الزمن، أو نقيسه، إلا وهو ينقضي .

"أنت يا إلهي آب أبدي . أما أنا فممزق بين الزمن الذي انصرم، والزمن الذي سيأتي، ومجراه يُعد سراً بالنسبة لي . . . أنت الخالق الأبدي لكل الزمان"[١] .

وفيما كان أغسطينوس مُحقاً في قوله إن الله هو خالق زماننا الأرضي، إلا أنه كان أقل دقة حين قال إن الإله الأزلي خارج حيز زماننا. وكان " بارت " أكثر منه تمشياً مع ما جاء في الكتاب المقدس، حين تحدث عن "زمن الله"، "وزماننا" .

---

[١] St Augustine, *confessions*, Books XIII.

أما الأستاذ في قصة " الأسد والساحرة وخزانة الملابس"، فقد تحدث عن نفس هذه النقطة، حين أيَّد قصة لوسي في محاولتها إقناع أخيها وأختها بأنه كان هناك حقاً عالم آخر خلف ظهر الخزانة : "قالت سوزان : لكن لم يكن هناك وقت . فلم يُتح للوسي وقت للذهاب لأي مكان، حتى وإن كان هناك مثل هذا المكان. لقد جاءت تعدو خلفنا، في نفس اللحظة التي كنا فيها خارج الحجرة، ولم يستغرق الأمر سوى أقل من دقيقة، وقد ادّعت أنها غابت عنا لساعات...

قال الأستاذ : هذا هو نفس الشيء، الذي يجعل قصتها من المحتمل جداً أن تكون حقيقية، فإن كان هناك حقاً باب في هذا البيت يؤدي إلى عالم آخر. . . فلن أتعجب إطلاقاً أن أجد أن العالم الآخر له زمن خاص به هو ، ولذلك، فمهما كانت المدة التي أمضيتها هناك، فإنها لم تأخذ إطلاقاً شيئاً من " وقتنا.. ".

قال بيتر : هل حقاً تعني يا سيدي أنه من الممكن أن تُوجد عوالم أخرى - في جميع أرجاء المكان، وبجانبنا تماماً مثل ذلك ؟

قال الأستاذ : "لا شيء أكثر من ذلك احتمالاً".(١).

ومع أن الله ، باعتباره خالق زماننا، يُعد خارج حيز هذا الزمان، إلا أن ذلك لا يعني أن لا زمان له. فالله موجود داخل حيز " الزمان الخاص به "، هو الذي يستطيع أن يتدخل في زماننا ويغيره، فهو الإله السرمدي الأزلي الأبدي (انظر خر ١٥ : ١٨ ، مز ٩٠ : ١ - ٢ ، إش ٤٠ : ٢٨).

وحين يحدّثنا العهد الجديد عن الأشياء الأبدية ، فهذا لا يعني أنها بلا زمن. فالحياة الأبدية هي حياة من " نوع " مختلف - فهي الحياة التي تنتمي إلى الله ، غير أنه بمقدورنا أن نشارك فيها، سواء في زماننا، أو بعده ، ولكنها ليست محدودة بماضينا أو حاضرنا أو مستقبلنا . **أما مركز زمن الله، والنقطة الفاصلة في كل الزمن ، أو بالأحرى الحدث الذي يدور حوله كل معنى الزمن في النهاية، فهو يسوع المسيح، الذي "هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد " (عب ١٣ : ٨). وفيه " هوذا الآن " (الآن الخاصة) بخلاص الله والتي لا تتغير (٢كو٦ : ٢) .**

وعلى الرغم من أن الله دائماً خارج عن نطاق زماننا، إلا أنه دائماً يعمل بنشاط في تاريخنا، على الرغم من أنه لا يقيده على الإطلاق.

(١) c.s. Lewis, *The Lion, the witch and the Word robe*.

إذاً، فالزمن الكتابي، ليس هو موضوع ترتيب شيء وراء الآخر، بقدر ما هو قصة تفاعلات الله مع عالمه، وهي قصة، يعطي الله فيها لحظات للفرص، وأخرى لاتخاذ القرار، وأوقات للتوبة، ويوماً للنعمة. ولأن الله يضفي على وقتنا أهمية، حيث يحوّل " chrono " (الترتيب الزمني للأحداث) إلى (kairos) (أي مناسبات وفرص)، تقول لنا الرسالة إلى أفسس أن نسلك في حكمة "مفتدين الوقت (kairos)". (أف ٥ : ١٥ ، ١٦).

وأوقاتنا، أي أوقاتنا المنظمة، وأوقاتنا الهامة، هي عطايا من الخالق كي نتمتع بها ونستخدمها.

ومع ذلك، فكثيراً ما نرتاع من جهة الوقت. ذلك أننا في صغرنا، نجد أننا نكبر بسرعة، ومنتصف العمر يذكّرنا أن الوقت يطير بسرعة. فهل نعطي لأولادنا وقتاً كافياً ؟ فنحن نصل إلى مرحلة الشيخوخة، ونتعجب أين ذهب وقتنا. وكتبة الأسفار المقدسة يحثوننا على إعادة اكتشاف الإحساس الذي عبّر عنه صاحب المزمور بقوله : " في يدك آجالي " (مز٣١: ١٥).

وجهاد "أغسطينوس"، حمله في النهاية، على أن يصلي قائلاً : "أيها السيد الرب، امنحنا سلاماً، لأن كل ما لنا هو عطية منك. امنحنا سلام الراحة ، سلام السبت، السلام الذي لا تغرب له شمس. لأن كل نظام العالم، بكل ما فيه من جمال، مصيره إلى زوال.. وكل هذه الأشياء الطيبة جداً، سوف تنتهي، حين تصل إلى الحد الذي تعيَّن لوجودها، وكلها أعطى لها صباحها ومساؤها"[١] .

أما "مايكل كويست" (Michel Quoist)، فقد عّبر عن ذلك بطريقة أخرى:

أنت، أيها الرب، الذي لا يحدك زمان، تبتسم حين ترانا نحاربه.. وأنت تعرف ما تعمل.. أنت لا تخطيء في توزيع الزمن للناس.. فأنت تعطي كل واحد زمناً، ليعمل فيه ما تريد منه أن يعمله . . . .

..أيها الرب، أن لديّ وقتاً، لدي كثير من الوقت، لديّ كل الوقت الذي أعطيته لي. سنوات حياتي، أيام سنواتي، وساعات أيامي، كلها ملكي. أعطيت لي لأملأها في هدوء وسكينة، بل لأملأها تماماً لآخرها. وأقدمها لك، حتى أنك من مائها الذي لا طعم له ولا نكهة، تصنع منه خمراً جيدة، كتلك التي صنعتها مرة في عرس قانا الجليل.[٢]

---

(١) St Augustine, *confessions*, Books XIII.

(٢) Michel Quoist, Prayers of Life (Gill and Son, 1963).

ب. السبت

إن "السبت" هو وقت من الأوقات التي لها أهمية خاصة.

ويبدو أن "السبت" كان فريضة تميِّز شعب الله خاصة. ولعله كان يضفي مسحة خاصة على حياة شعب الله، منذ أيام الخروج من مصر. والأصحاح الأول من سفر التكوين، مع نص الوصايا العشر الوارد في (خر ٢٠)، يربط وصية السبت بقصة الخلق نفسها (انظر خر ٢٠ ١١). فما كان في الإمكان أن يُقال، بأكثر وضوح، أن مقاصد الله لشعبه، التي تضمنها العهد (والتي رُمز إليها بحفظهم السبت) كانت متأصِّلة في مقاصد الله من خلقه هذا العالم. ومقاصد الله التي تضمنتها عملية الخلق، ومحبة الله التي أشار إليها العهد، صنوان لا يفترقان. وهذا بعض ما يخبرنا به "السبت".

ويفسِّر كاتب الرسالة إلى العبرانيين راحة الله في السبت، كشيء يبدأ بعد أن تكمل ستة أيام الخلق، والتي تتواصل حتى الحاضر. وطوال تاريخ شعب الله، كانت راحة الله تمثل دعوة للدخول في شركة معه. وكما يوضح صاحب المزمور، فإنه نتيجة عصيان الآباء خلال وجودهم في البرية، لم يتمتعوا بالأرض التي وعدهم بها الله(مز ٩٥: ١١، انظر أيضاً: تث ١٢: ٩ مع عب ٣: ١١). ومع ذلك، فالدعوة إلى التمتع براحة الله لا تزال قائمة - وهذا ما دعا كاتب الرسالة إلى العبرانيين إلى تشجيع قرائه، ألا يتخاذلوا عن الدخول إليها، نتيجة عصيانهم (عب ٤: ١١). وعوضاً عن ذلك يجب علينا أن نتقدم " بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه " (عب ٤: ١٦) . ومن خلال رحمة الله ونعمته اللتين ننالهما في المسيح يسوع، يمكننا التمتع بالشركة مع الله، " وندخل إلى راحته " .

وفي الوصايا العشر الواردة في سفر الخروج، يربط بين "السبت" و"الخليقة". " اذكر يوم السبت لتقدسه . . . . . لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض . . . . . واستراح في اليوم السابع " (خر٢٠ : ٨ - ١١) .

وربط "السبت" على هذا النحو، بعملية الخلق؛ يشير إلى نوع من الأهمية الشاملة. فليست هذه مجرد قاعدة خاصة لشعب الله ، تربط ما تعلموه في البرية بعملية الخلق (خر١٦: ٢٢ ٣٠) . فكل الناس في حاجة إلى إيقاع راحة السبت ، لأن هذا هو الأسلوب الذي به خلق الله العالم. وفي صيغة الوصايا العشر الواردة في سفر التثنية (٥: ١٥) ، نجد أن الأمر بحفظ السبت قائم على إنقاذ الله إسرائيل من العبودية في مصر، وحاجة الإنسان الكادح، وكذلك الحيوان إلى الراحة. ولعل "فون راد" Von Rad كان محقاً في أن يرى في سفر الخروج نصاً لاهوتياً يؤصِّل السبت في

طبيعة الله ، ويري النص في سفر التثنية بأنه "نفساني بصورة أكبر"، إذ يبرز توضيح راحة السبت بالنسبة لحياة الإنسان والحيوان.

وبمعنى ما ، يدور (تك١) كله حول "السبت". حيث إيقاع الستة الأيام، مضافاً إليها يوم واحد، هو الأسلوب الذي تسير الأمور في العالم. وقد وُجدَت حياتنا لتعكس هذه الحقيقة. وتناوب الإنسان بين العمل والراحة، قُصد به أن يردد صدى التناوب بين العمل والراحة في نشاط الله، أثناء قيامه بعملية الخلق . ولكن، ما هي راحة الله ؟ أليست هي المسرة بخليقته ؟ أليست هي النظر بمسرةٍ إلى عالمه قائلاً : " إنه حسن " .

وراحة السبت هي الفرصة التي أتاحها الله لنا، لنشاركه مسرته. فحياة الإنسان قُصد بها أن تتضمن أكثر من مجرد العمل ، وأكثر من النضال من أجل الوكالة الصحيحة للعالم، وأكثر من إصلاح المجتمع . وتناوب الستة أيام عمل مع يوم واحد للراحة، ليس هو إيقاع العمل مضافاً إليه الراحة، لكي يمكِّن العودة ثانية إلى العمل. إنه إيقاع الإنخراط في العالم من خلال العمل، ثم التمتع بالعالم، بشكر، من خلال العبادة. ونحن لا نقصد " بالعبادة " ببساطة أو حتى بصفة رئيسية _ نشاط الكنيسة. ذلك أن " العبادة " هي أن نرد لله تمتعنا بعالمه، كي يتمتع هو بدوره . وذروة الخليقة هي "الإنسان العابد : (Homo Adorans)". وهنا، نجد الذي من خلال شركته مع الخالق (يتمتع) بعمل الخالق.

ولكن، ما الهدف من خلقنا؟

إن الهدف هو أن نكون مخلوقات اليوم السابع. وهكذا، نشارك الله في عمله الذي يبغي تنظيم خليقته، حتى ننمو في شركة شخصية معه، وبهذا تظهر فينا صورته، ليتاح لنا مشاركة فرحة راحته، ولكي تكون لنا شركة مع الخالق، وحتى ننهمك في تسبيحه مع الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والأزهار والطيور، ومع كل المخلوقات، كبيرها وصغيرها، من الأسماك والحيوانات. فكل هذه تتطلع إلى الله، من أجل حياتها وحفظها، وهذه كلها في طريقتها الصامتة – تترنم بأنشودة خالقها.

في قصة " ابن أخي الساحر "، وفي كلمات رائعة الجمال، يخبرنا "سي. إس. لويس .C. S Lewis عن " تأسيس "تارنيا"، حيث يقول : " في الظلام، بدأ صوت في الغناء. ونبراته الخفيضة كانت من العمق، بحيث تكون صوت الأرض نفسها. لم تكن هناك كلمات. بل، ويكاد لا يكون هناك حتى لحن. ولكنه كان – بلا منافس– أجمل صوت سمعه (ديجوري) على الإطلاق . . . . . .

فالألوان الزاهية، والأصوات العظيمة، النجوم، والشمس، الوديان والتلال ، هذه كلها كانت تردد ترنيمة الأسد".

إن (تلك ١) هو هذه الأنشودة: " كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان " (يو١ : ٣) . فالمسيح (الكلمة) الذي بواسطته خُلقت الخليقة كلها، هو المسيح الذي جعل الخالق معروفاً باعتباره الآب (يو١ : ١٨). **فبواسطة المسيح؛ استطعنا أن نعرف الله، ولذلك لنا ثقة في أن نقول : " نؤمن بالله الأب القادر على كل شيء، خالق السماء والأرض" . والذى به أعطينا أن نحيا ونتحرك، وأعطينا كل شيء، فكل كائن حي يدين له بحياته .**

أما نحن البشر، فقد أُعطينا ما هو أكثر من الحياة. أعطينا أن ندرك شيئا عن عظمته وحريته التي لا يمكن أن يُسبر غورها. وبالنسبة لنا، نحن البشر، فقد كُشف عن قدر من علاقته الوثيقة بالعالم، ولو أنها علاقة آمرة. **فنحن، دون سوانا من المخلوقات، دُعينا؛ لتظهر فينا صورته** أن نشاركه تاريخاً ومصيراً وقد دُعينا كي نتمتع بشركة سبت الرب. وفي إيقاع عملنا وعبادتنا، نستطيع أن نعطي صوتاً لنظام الكون الصامت، حتى يستطيع هو أيضاً - وبالاشتراك معنا - أن يرنم تسبيحاً للخالق.

الباب الثاني

الطرد من الجنة

[أصحاح ٢: ٤ - أصحاح ٣ : ٢٤]

يا له من غموض!

كيف يمكن أن تكون حياة البشر على هذا القدر من الثراء والازدهار، ومع ذلك تكون معيبة على هذا النحو ؟! وكيف يتأتّى أن يتطلع الناس بهذا القدر الكبير إلى الله، ومع ذلك يصرّون بصفة مستمرة على الهروب منه؟! وكيف يكون بمقدور الناس أن يبدعوا ما هو على قدر كبير من الروعة والجمال، ثم نكتشف أن أحسن إنجازاتنا عرضة للفساد والاضمحلال؟! ولماذا تصطبغ أكثر نواحي العلاقات الإنسانية الحميمة التى تعطي للحياة روعتها، بصبغة الألم والحزن؟! ويجوز لماذا الموت في كل شيء وفي كل إنسان؟!

هذه الأسئلة العامة والتي بقدر ما هي محور اهتمامنا، قد كانت أيضاً موضع اهتمام كاتب الوحي بهذه الأصحاحات. بمقدورنا الإشارة إلى كثير من الإنجازات البشرية البالغة العظمة، ومع ذلك، يلزمنا مع كل إشارة أن نعترف بمدى وهن الإنسان وضعفه وتعرضه للدمار.

نستطيع أن نسخّر الطاقة النووية للخير أو للشر. ويمكننا التدخل في عمليات الإنتاج للخير أو للشر. ولدينا المعرفة والتكنولوجيا اللازمين للقضاء على الجوع في العالم، غير أنه لا تتوفر لنا الإرادة السياسية، أو الهياكل الاقتصادية، أو الحافز الشخصي لعمل ذلك. لقد طوّرنا مستوى من المعيشة يسمح لنا أن نركز على نوعية علاقاتنا الشخصية، وبطريقة لم تستطعها الأجيال السابقة، ومع ذلك، نجد أنفسنا عاجزين عن تكوين التزامات شخصية، بل إن حياتنا ذاتها، مهددة بالفيروس البالغ الصغر الذي ينشر الموت "الأيدز" (AIDS).

ويربط (الأصحاحان ٢ و٣) من سفر التكوين بين الفوضى التي تعم العالم، وبين حقيقة خطية الإنسان، ويبينان معاً كيف أن ما وُصف بأنه "حسن جدًّا" من خليقة الله، قد تشوه في مرحلة تلو الأخرى. ومع ذلك، فنحن في حاجة لأن نكون حريصين ألاّ نفسر أي شيء قد نكرهه، على هذا النحو. ويبدو أنه حتى "كالفن" Calvin، يبدو أنه قد جرفه هذا التيار، حين قال: "كثير من الأشياء التي نُرى في العالم الآن ما هي إلاّ التشويهات له . . . ويجب أن نصل إلى هذه النتيجة، بالنظر إلى وجود البرغوث والديدان والحشرات البغيضة الأخرى"[1].

ومع ذلك فإن العالم يكتنفه في الواقع- الكثير من الغموض: لماذا نجد جمالاً كثيراً هنا، ومع ذلك نجد قدراً كبيراً من القبح ؟!

---

[1] Calvin, *Genesis*, p. 104.

لقد كتب "باسكال" Pascal يقول : "إن عظمة الإنسان وبؤسه واضحان غاية الوضوح، حتى إن الديانة الحقيقية يتعيّن عليها أن تعلّمنا أنه يُوجد في الإنسان عنصر كبير للعظمة، وعنصر كبير للشقاء، ويجب أن تفسِّر أيضاً سبب هذا التناقض العجيب"[١].

والأصحاحان الثاني والثالث من سفر التكوين، لا يقدمان لنا تفسيراً منطقياً للأسباب والنتائج . بل، ولم يكتفيا بذكر ما حدث منذ زمن طويل مضى؛ الأمر الذي يمكن لنا أن نتناوله ، أو الذى قد يتركنا وحالنا، أو يبعدنا بشكل كاف عن الموضوع، حتى يصبح بمقدورنا أن نلقي تبعة كل شيء على ماضينا، ونجد عذراً لأنفسنا .

ومن المؤكد أن هذه القصة، هي قصة من التاريخ المُوغِل في القِدم، ومع هذا فهي أكثر من أن تكون مجرد قصة. وهي ليست تاريخاً بالمعنى المألوف لنا (لأن الكروبيم ولهيب السيف، ٣: ٤ ، ليست من المواد المألوفة في التاريخ)، وليست من نوع الخرافات المعروفة لنا (لأن الإشارات إلى الأنهار ومناجم المعادن في ٢: ١٠ ١١، من الأمور الحقيقية ولا تشكل خرافة) . و"الأسطورة" (Myth) كلمة تشير إلى أن القصة التي تحمل هذه الأسطورة أو تلك، ما هي إلا ستار لحقيقة غير تاريخية، لا زمن لها. ولكن التفسير للنص يتطلب أكثر من ذلك. ويستعمل " كارل بارث" Karl Barth كلمة "قصة بطولية" (Sage)، بمعنى " صورة بديهية شعرية لواقع ما قبل التاريخ، حدثت مرة واحدة، ولن تتكرر، وذلك في حدود المكان والزمان"[٢]

ولكن لبس من الواضح تماماً إلى أي بُعد آخر سيأخذنا هذا الاتجاه – ويبدو أن "بارت" يريد أن يأخذ كل منافع التاريخ دون صعوباته. [٣] وعلى ذلك، دعنا نبقَ مع " قصةٍ" متأصلةٍ في مكاننا وزماننا، ولكنها قصة تحملنا على الاستغراق فيها، وتواجهنا بحقيقة أنفسنا .

إننا نرى أنفسنا في جنة، ونسمع صوت الرب : "أين أنتم".. ونحن نعرف كيف يكون شعور من يختفي بسبب خزيه، كما أننا بارعون في إلقاء اللوم على الآخرين، ونشعر بفداحة الثمن لو طُردنا من جنة عدن!

وهذا لا يعني القول بأن ما صوّره هذان الأصحاحان، لم يحدث بالفعل. بل من المؤكد إنه في قصة علاقة البشرية مع الخالق، تحول الجمال إلى انفصال، والوحدة إلى شقاق ، والشركة إلى نفي ،

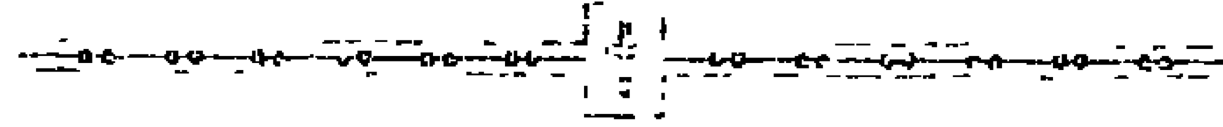
---

(١) Blaise Pascal, *Pencees* XI.

(٢) Wenham, p.53.

(٣) وُضعت هذه الملحوظة بالارتباط مع معالجة 'بارت' لقصص القيامة التي كتبها "أوستن فان هارفي" وذلك في كتابه المؤرخ والمؤمن *The Historial and the Beliver* (SGM, 1967, 1971) .

وأصبح الموت يلقي بظلاله على الحياة . بيد أننا لا يصح لنا أن نقول فقط أن هذا قد حدث فعلاً، بل يجب علينا أن نقول أيضاً إن ذلك مازال يحدث، فنحن البشر جزء من القصة، لأننا هناك في الجنة، "والكلمة" مُوجَّهة إلينا.



أولاً: الحياة في الجنة [٢: ٤ - ٢٥]

١. القصة المتواصلة

(٢: ٤ / أ*)

" هذه مبادئ السموات والأرض حين خُلقت" .

إن هذه الصيغة "هذه مبادئ.." تربط قصة (تك١) بما يليها. والأصحاح الثاني ينبثق مما جاء قبله ويكمله، وهذه هي قوة صيغة الربط. وهي ترد بعد ذلك، وعلى سبيل المثال في (تك٥ : ١)، حين تتواصل قصة آدم مع قصة "شيث". وترد في (تك ١٠: ١)، حين تتطور قصة أبناء نوح، لتصبح سلسلة أنساب لنسلهم. كما تتكرر ثانية طوال سفر التكوين، كعنوان يقدم الجزء الذي يليه، ومعنى هذه الصيغة : " هذا هو السر الكامل لقصة .....".

وهكذا نقرأ الآن عن "التطور الكامل لقصة السموات والأرض". وهنا، في (تك٢: ٤) تأتي نفس الصيغة كأداة ربط بين المشاهد ذات الرؤية الشاملة (البانورامية) التي تضمنها الأصحاح الأول، والأسلوب الشخصي الأكثر ألفة للإنسان في الجنة، في الأصحاح الثاني .

والتوازي بين ترتيب الأحداث في (الأصحاحين ١ ، ٢)، ملحوظ للغاية. ذلك أن (تك ١: ١ - ٢: ٣) يبدأ بالعالم الطبيعي، وبعد ذلك ينتقل إلى عالم الحيوان، وأخيراً إلى الناس. وفي (تك٢: ٤) وما بعد ذلك، تُروى القصة أولاً في إطار علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية (الأعداد ٤ - ١٧)، ثم تنتقل أيضاً إلى علاقات الإنسان بالحيوان، وأخيراً علاقته بغيره من الناس (الأعداد ١٨ - ٢٥) .وكلٌ من هذه الأقسام يُختتم بقانون يتعلق بحياة الإنسان في البيئة المحيطة (يتعلق العددان ١٦ ، ١٧ بالحياة في جنة عدن، والعدد ٢٤ يتعلق بالزواج) .

* في بعض الحالات يوضع الحرفان "أ" أو "ب" بعد رقم الآية، وذلك للإشارة فقط إلى الجزء الأول أو الثاني، من هذه الآية.

ومع ذلك، فإنه على الرغم من هذا التشابه، من ناحية الترتيب، فإن التغيير في اللهجة والأسلوب بين هذين الأصحاحين، سرعان ما يلمسه القارىء بكل وضوح. وحتى الله نفسه فقط سماً أكثر ألفة، ففي الأصحاح الأول، نقرأ أنه " الله ". وفي (٢: ٤) نراه " الرب الإله "، وكلمة "الرب" جاءت تمثل اسم الله بحسب العهد: "يهوه" (YAHWEH). **وبالتالي، فإن مركز اهتمامنا لم يعد المنظور الكوني عن (الواحد) الذي خلق النجوم. بل ألفة الشركة مع (الواحد) الذي يدعو الإنسان باسمه.**

والأصحاحان الثاني والثالث من سفر التكوين، يتناولان مكان الإنسان في عالم الله : بشرية الإنسان وحدوده، ومطالبه. الله له الطاعة، وحقيقة طاعة الإنسان، وضعف وتشوش علاقة الإنسان بالله، وبالآخرين، وبالعالم الطبيعي .



٢. الأرض والسماوات

(٢: ٤ /ب)

" يوم عمل الرب الإله الإرض والسموات" .

إن عبارة "السموات والأرض"، يُستهل بها (تك١)، كما يُختتم أيضاً بها (تك١: ١؛ ٢: ١؛ ٢: ٤). وفي حين أنها تعني " كل شيء " ، إلا أنها كما رأينا سابقاً- تشير أيضاً إلى "فرق وتمييز بين مستويين" . "فالسماء" هي موضع الله ، والأرض هي موضعنا. وعلى هذه الأرض، خَلَق الله الحياة النباتية، والحيوانات، والإنسان، وقد فُصلت الأرض عن السماء. ولكن الإنسان ليس هو الله، ويل في هذه الأصحاحات الأحد عشر، سنجد كيف تشبث الإنسان بمحاولة عبور الحدود بين الأرض والسماء، لقد حاول الناس أن يجعلوا من أنفسهم آلهة. وفي كل مرة، لا تكون نتيجة ذلك سوى الفوضى، **لأن السماء لا يمكن الاستيلاء عليها، أو امتلاكها ، أو السيطرة عليها. فالسماء تُؤخذ، عطية حب، يُنصت إليها ويُرحب بها،** ومن خلال الوسيط الوحيد، (المسيح) جاءت هذه السماء إلى الأرض، و"فيه" يمكن أن نُرفع إلى (السماويات). ولكن هذا يتأتى بالنعمة، وليس كحق لنا . ويذكرنا (تك١) بالفصل بين السموات والأرض. ولكي يحتفظ الإنسان بإنسانيته؛ عليه أن يحترم الحدود التي وضعها الله، ولا يحاول الاستيلاء على ما يخص الله .

غير أنه تجدر ملاحظة تغيير الترتيب في (تك٢)، وذلك من عبارة " السموات والأرض " في الأصحاح الأول (١: ١، ٢: ١، ٢: ٤). حيث نجد الاهتمام هنا منصباً على "الأرض والسموات " (٢: ٤) .

والأصحاح الثاني هو الجانب الآخر من الأصحاح الأول، فمن عظمة وجلال الجبال، دُعينا الآن لاستكشاف جنة عدن.

وكما يقول "بونهوفر" Bonhoeffer : "إذا كنا في (الأصحاح الأول) قد رأينا الإنسان بالنسبة لله، فإننا هنا نرى الله بالنسبة للإنسان. وبعبارة أخرى، هناك في الأصحاح الأول صورة حياة الإنسان، كجزء من مقاصد الله بالنسبة للكون برمته. أما هنا، في (الأصحاح الثاني)، فنرى

الله يعمل نيابة عن الإنسان، من أجل خيره. هناك، نراه الخالق والرب البعيد عنا، أما هنا، فنراه الله الآب القريب منا، إله العهد " يهوه ألوهيم"[١] (Yahweh Elohim) (الرب الإله).

وبالتالي، فالتركيز ينصب الآن على الإنسان في أرض الله، وعلى مسألة: إلى من ننتمي؟! وكيف ينبغي أن نعيش في عالم الله ؟ هذا هو ما سيعرضه لنا هذا الأصحاح الآن .



(١) Dietrich Bonhoffer in *Creation and fall.*

٣. أرض وحياة

(٢: ٤-٧/أ)

" يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات. ٥ كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد . لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض. ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ٦ ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. ٧ وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. "

إن الهدف من الجنة هو توفير بيئة لحياة الإنسان .

ولكن هناك مشكلة من ناحية قواعد اللغة بالنسبة (للأعداد ٤ - ٧). فمن المحتمل أن العبارة الأساسية، لا تظهر إلا في العدد السابع " يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات . . . . . . جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض" (تك ٢: ٤ - ٧) . وإذا كان الأمر كذلك؛ تكون كل العبارات الثانوية التمهيدية، مجرد السياق التمهيدي اللازم لظهور الحياة البشرية . ففي اليوم الذي عمل فيه الرب الأرض والسماوات، وفيما لم تكن هناك نباتات أو أعشاب أو مطر، مجرد ماء تحت الأرض، حينئذ، جبل الرب الإله الإنسان .

إن كان هذا الأصحاح يتحدث بصفة أساسية عن الله والإنسان، فما الذي أخبرنا به هنا عن حياة الإنسان؟

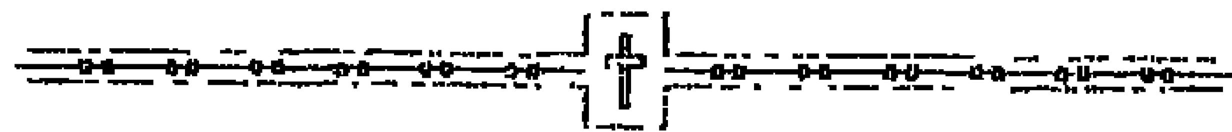
إن الإنسان "من الأرض"، فهناك عنصر أرضي في طبيعتنا البشرية، فالحياة البشرية جُبلت " تراباً من الأرض "، وحياة الإنسان تماثل حياة الحيوانات الأخرى. و"آدم" جزء من الأرض، أي (الأدمة) d̲àmâ. وكما يقول "أنتوني فيلبس" Anthony Phillip: " الإنسان يفلح الأرض ليعيش، ومع ذلك فإنه في النهاية يُدفن فيها " . فحياة الإنسان من التراب . ولا يمكنها في حدّ ذاتها أن تصل إلى الخلود .

ولنلاحظ أن الله قد " جَبَل آدم "، فلقد خلق الله الإنسان من التراب بيديه. والصورة هنا هي صورة الفخاري الذي يشكِّل الطين (انظر إر١٨: ٢)، أو هي صورة الفنان (إش ٤٤: ٩، ١٠).

حيث هناك اقتراب مادي. إن صح التعبير. من الخالق لخليقته. فالله - إذا جاز القول - لوّث يده؛ ليأتي بنا إلى الحياة، **وهذا ما يشير إلى سلطان الله: فهو يشكّلني، وأنا خليقته، وهذا أمر لا فرار منه. كما أن هذا يشير إلى أن جسدي، وما أفعله له، هو أمر بالغ الأهمية.**

ولقد كانت هناك أوقات في التاريخ المسيحي، لم يُعتبر الجسد فيها ذا أهمية. فأحياناً، وإتبّاعاً للفلسفة اليونانية، وليس المفهوم العبري، كان المسيحيون يعلمون أن الأمر المهم بالفعل هو "النفس"، وما الجسد سوى مجرد سجن لابدّ وأن تعيش فيه النفس لفترة ما. وهذا ما يمكن أن يؤدي بنا إلى فكرة سلبية للغاية عن الجسد - فإما اعتباره شراً، ومن ثم؛ يتطلب الأمر عقابه وقمعه بجميع أنواع التأديبات المتبعة في الزهد، أو اعتباره غير مهم، وبالتالي الاعتقاد بأنه لا أهمية لما نعمله به، لكن هذا الأمر قد فتح السبيل لجميع أنواع الممارسات الجنسية المتحررة، كرد فعل غاضب لهذا المفهوم عن الجسد. ويبدو أن كلا الأمرين، كانا من المشاكل الموجودة في كنيسة كورنثوس، وهو ما يمكننا أن نستشفه من رسائل بولس إلى تلك الكنيسة هناك. ويبدو أنه كانت هناك جماعة من النساك، قد كتبوا إليه قائلين: " حسن للرجل أن لا يمس امرأة " (١كو ٧ : ١). فرد عليهم الرسول بولس، بعبارات تدعّم النواحي الجنسية في الإنسان، مشدداً على تبادلية وتكامل العلاقة الجنسية الزوجية (١كو ٧: ٢-٥). كما كان هناك أيضاً في "كورنثوس" مجموعة من "المتحررين جنسياً". وقد استشهدوا بالمثل القائل: " الطعام للمعدة والمعدة للطعام" ،وهم يقصدون بذلك "الجنس للجسد والجسد للجنس". فكتب الرسول بولس لهؤلاء الناس، مؤكداً إن المسيحيين لا يمكنهم أن يتصرفوا كما لو أنه من الممكن فصل سلوكهم الجسدي عن التزامهم للمسيح. فمعاشرة إحدى العاهرات، في بيت للدعارة في "كورنثوس"، معناه اشتراك الشخص بكيانه كله في هذا العمل، وليس جسده فقط (انظر ١كو ٦: ١٢ - ١٧) ، فالجسد هيكل للروح القدس.

فحياة الإنسان هي حياة شاملة. ونحن في حاجة لتأكيد أن أجسادنا هي جانب أساسي من جوانب حياتنا. وعلينا أن نكون سعداء بها، ونعترف بأنها الشكل الذي أعطاه لنا الله، لنعيش به في هذا العالم المادي، بل وحتى عند الموت، لا "تفارق النفس الجسد"، بمعنى أن نصبح أقل مما كنا عليه سابقاً. كلا، لأننا نتغير بكليتنا، ونكتسي "بجسد روحاني"، يتناسب مع حياة السماء. ويعطي القديس بولس تعبيرات كلاسيكية لهذا في (١كو ١٥)، حيث يأخذ تشبيه البذرة في الأرض، التي تموت، ومن موتها هذا تنبت سنابل القمح الحية (انظر ١كو ١٥ : ٣٦ - ٣٧) ، وهو يقول بأن ما يُقام هو استمرار لما سبق أن مات، ولكنه يتغير أيضاً بالقيامة إلى شيء أمجد. فإن كنت "أؤمن بقيامة الجسد"؛ فإن ما أفعله بجسدي يهم الله.



٤. كائن حي

(٢: ٧/ب)

يقول سفر التكوين إننا من التراب، وإننا قريبون من الخالق ، ومأخوذون منه، فقد نفخ الله في نموذج الطين الذي عمله نسمة حياة.

فالحياة هي هبة من الله، والوحدة النفسية الطبيعية لناتج الطين كائنة في يد الله ، وفي النسمة التي نفخها فيه . هذه الوحدة نسميها " إنساناً " التي تعتمد على الله في حياتها، وتنفسها، بل وفي كل شيء . وحين يسترد الله نسمته؛ تموت مخلوقاته، وترجع إلى التراب (مز١٠٤ : ٢٩).

وأحياناً نرتبك للترجمة " نفساً حية "، ونعتقد أن ما جاء في (تك٢: ٧) يتكلم عن " نفس" بشرية مميزة، تجعلنا مختلفين عن الحيوانات الأخرى. غير أن كلمة "نَفس" (Soul) هنا تعني ببساطة (كائن حي). بل هي الكلمة التي أستُخدمت في موضع آخر لتعني كل "ذات نفس حية " (تك١: ٢٠ ، ٢١) . فهي تشير إلى مبدأ الحياة في أي كائن حي .

وفي كتابه " الحياة كيان لا يمكن إنقاصه "، يوبِّخ الفيلسوف "ميشيل بولانيي" Michael Polanyi أولئك الذين يؤمنون أن الحياة برُمتها، يمكن أن تُفهم في ضوء علم الحياة الجزيئية (Molecular biology). ومنذ اكتشاف العالِمين "كريك وواطسون" الجزيء اللولبي من مادة (DNA)، تم فهم الكثير من كيمياء الحياة وطبيعتها، إلى جانب الكثير من أسرار الكيمياء الحيوية، الخاصة بالتجارب الوراثية، التي تم الكشف عنها. فالإنسان (العالِم)، يستطيع الآن أن "ينتج" الحياة، وهذا ما حمل بعض العلماء على الاعتقاد أن كل ما يتعلق بالحياة يمكن فهمه عن طريق علمي الطبيعة والكيمياء. ولكن بولانيي يقول: "ليس الأمر كذلك ، لأن مادة (DNA) تُستخدم كشفرة لإنتاج المزيد من الـ " DNA ". أما بالنسبة لنا، فلكي نفهم أنها تُستخدم كشفرة، ترانا في حاجة إلى مستوى من التفسير أعلى من مجرد مستوى علوم الطبيعة والكيمياء...

وثمة مثال آخر: تخيل أنك في مدينة "سترا تفورد" تشاهد وتستمع إلى عرض لمسرحية ماكبث. فالكتابة الأدبية لهذه المسرحية أكثر من مجرد عبارات، وقواعد اللغة فيها أكثر من مجرد كلمات، والأقوال المنطوقة بداخلها أكثر من حركة موجات الصوت. والعمل الأدبي الذي يُنطق به، في حاجة إلى أن يُستقبل على مستويات عديدة ومختلفة. وعلى غرار ذلك، فإن ظواهر الحياة تحتاج

إلى أن تُستكشف، بناء.. على سلسلة من مستويات الفهم، وليس من خلال أسلوب يحاول أن ينقص كل شيء لأدنى مستوى من الطبيعة والكيمياء. فالكلمات التي يُنطق بها، تعتمد على طبيعة إنتاج الصوت، وإن كانت لا تنقص (تنخفض) إلى هذا المستوى، فهي تحت سيطرة مفردات اللغة، كما هو الحال بالنسبة لطبيعة موجات الصوت. وعلى غرار ذلك، فإن "المستويات الأعلى للحياة"، وعمل شفرة DNA، يمكن الاعتماد عليها، غير أنه لا يمكن شرحها بالكامل على المستويات الأدنى المتضمنة في علوم الكيمياء الحيوية والطبيعة"[١].

إن حياة الإنسان ليست مجرد تراب من أديم الأرض، بل هي تتضمن أيضاً المستوى الأعلى من الكائن الحي: "نسمة الحياة".

ويوجد فرق هام ومختلف، هذه المرة، بين الكائنات الحية والحياة الروحية، وهذا ما أوضحه القديس بولس في العهد الجديد بقوله: " صار آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير روحاً محيياً " (١كو ١٥: ٤٥). فأرواحنا قد أعطيت الحياة بالمسيح - أو بالأحرى جُعلنا أحياء لله في الروح. ومع ذلك، فإنه في هذه المرحلة من قصة آدم، نحن بكل بساطة نقابل "كائناً حياً".

ويمكننا هنا اقتراح نقطة مؤقتة أخرى، وبدون الرغبة في قراءة المزيد بأكثر مما يحتمله النص، فإنه يبدو صحيحاً أن نستنتج أن الإنسان حين خُلق لم يكن كاملاً. والصورة التي نعرفها عن آدم في الجنة، هي في بعض الأحيان، عبارة عن صورة لرجل كامل يتمتع بكمال الحياة. وهناك تقليد مسيحي قديم، يعود إلى أيام "القديس إيريناؤس" Irenaeus، يقول إن آدم بالأحرى خُلق طفلاً، وكان أمامه الكثير حتى يكبر. ولكن يبدو من غير المحتمل، أن هذه هي الصورة التي يقصدها الروح القدس - وبخاصة على ضوء الإشارة إلى رجل في سن الزواج (٢: ٢٤). ومن الأرجح أن آدم الذي جاء ذكره هنا كان رجلاً، غير أنه على الرغم من ذلك، كان آدم لا يزال في حاجة إلى أن يتعلم لينمو ويكبر. ومهما كانت السن التى نتصور أن آدم كان عليها، فإنه لم يكن قد نضج بعد. ولقد قُصد ببراءته - كما سنعرف فيما بعد - أن تتحول إلى نضج في القداسة، عن طريق الاختيارات التي يختارها، والتي ستؤثر في حياته كلها. والاتكال غير الناضج لحياته على عطية نسمة الله، قُصد له أن ينمو إلى الاتكال الناضج، لطاعته لكلمة الله معطي الحياة.



(١) Polanyi, *Knowing and Being*, pp.225ff.

٥. المياه

(٢: ١٠-١٤)

" ١٠ وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة . ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. ١١ اسم الواحد فيشون. وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. ١٢ وذهب تلك الأرض جيد . هناك المقل وحجر الجزع. ١٣ واسم النهر الثاني جيحون. هو المحيط بجميع أرض كوش. ١٤ واسم النهر الثالث حداقل. وهو الجاري شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات."

يريدنا الروح القدس هنا أن نعرف أيضاً أن هبة الله، المتمثلة في الحياة، في عدن، هي مصدر كل حياة بعد عدن، وبمقدورنا أن نعي هذا بالنظر إلى أهمية الماء بالنسبة للكاتب.

في بداية الأصحاح الأول، نجد أن "المياه" - المرحلة الأولى في عمل الله في الخلق، والتي تنتظر يده الهادفة - كان ينبغي أن تُحتوى. وبالنسبة للإنسان - ولو أن ذلك لم يكن بالنسبة للخالق - كانت الظلمة التي على وجه الغمر، تكاد تكون مصدر تهديد. وبعدئذٍ، وبكلمته الخالقة، فصل الله (المياه)، ثم فصل اليابسة عن (المياه) على الأرض.

و(المياه) التي كانت تحمل قوة الله المدمرة - وهذا ما سوف تبيّنه قصة الطوفان سريعاً، بصورة واضحة تماماً، يمكن التحكم فيها أيضاً لتكون مصدراً للحياة. وهنا في (٢: ١٠ - ١٤) نرى (المياه) مصدراً للحياة والنمو والانتعاش. (فالمياه) مطلوبة لنمو الحياة، وكانت هناك (مياه) وفيرة في عدن. كان هناك ما يكفي لري الجنة، ثم تتدفق بعد ذلك إلى أربعة أنهار كبيرة، أحدها يتدفق حول جميع أرض الحويلة، وكأنها كان يغذي الحضارة والثقافة - ذلك أن " ذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع".

ومياه الأنهار ما هي إلا تلك التي تفيض من عدن، وحيوية جنة الله هي مصدر تغذية كل شيء آخر.

والآن دعنا نلقِ نظرة على الجنة نفسها.



٦. الجنـة

(٢: ٨-٩، ١٥-١٧)

"٨ وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذي جبله. ٩ وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. . ١٥ وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها . ١٦ وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. ١٧ وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. ".

أ. البستاني يعمل

إن الجنة في الواقع هي حديقة عامرة بالأشجار، والرجل الذي في الحديقة هو الذي يحفظها. وهو مدير أملاك الله . ومهمته هي " ليعملها ويحفظها " (تك٢: ١٥)، أي يزرعها ويحميها . فالعمل يشكل جزءاً من المسئولية الملقاة على عاتق الإنسان، منذ البداية، وحتى قبل أن تسوء الأحوال. ومع ذلك، فهل هناك مجرد تلميح إلى المتاعب التي ستأتي مستقبلاً ، وذلك في كلمة "ليحفظها " (أي ليحميها : ٢: ١٥) ؟ لقد كان إتمام الإنسان لعمله، يتضمن إبداعه في عمله، والجنة كانت هي المكان الذي يحقق فيه الإنسان هذا الإبداع.

وكثيرون من المفكرين المسيحيين المعاصرين استندوا إلى عبارة "وتسلطوا" (١: ٢٨)، وكذلك عبارة "ليعملها ويحفظها" (أي ليحميها) (٢: ١٥)، كأساس لمناقشة مواقف المسيحي بالنسبة للعمل. ومن الطبيعي أن تكون مثل هذه المناقشة حيوية وهامة، ولا سيما في عصر تسود فيه البطالة الكئيبة التي تحط من قدر الإنسان. ولكن لا يجب أن نُحمِّل هذه الأعداد بأكثر مما تحتمل.

وإذا ما تناولنا موضوع العمل من منظور العهد الجديد، سنجد أن العمل المدفوع الأجر يأتي في المرتبة الثانية، بعد الاهتمامات الخاصة بملكوت الله. ونحن في حاجة إلى أن نبحث أولاً عن إجابة للسؤال الأكبر المتعلق بالعمل الإنساني في العالم: ما الذي يجب أن نفعله في هذا المجال ؟!

يصف لنا " كارل بارت" (Karl Barth)[1] وبشكل مفيد، كيف أن عملنا الإنساني مقصود به أن يعكس شيئاً من عمل الله . وعمل الله هو أولاً ، وفي مقدمة كل شيء ، يتمثل في إقامة ملكوته تحت حكم المسيح. وهذا هو مركز عمل الله. ولذلك يشدِّد على القول بأن مركز أعمالنا الإنسانية كمسيحيين، يجب أن يكون في إظهار هذا التركيز على ملكوت الله .

غير أنه يوجد محيط دائري حول هذا المركز. فحول عمل الله في الملكوت وتدعيمه، هناك عمله في دعم العالم وإعالته، وذلك حتى يُبنى الملكوت. وهذا ما يمكن أن نسميه "عنايته الإلهية ". **وبعد ذلك، يمكننا أن نتكلم عن العمل الإنساني، على اعتبار أنه عملنا الذي يتناغم مع عناية الله. فالله يحفظ عالمه في الوجود ، ونحن مديرو أملاكه.**

وعلى ضوء هذا، فإن العمل الإنساني له أهمية كبرى، ولو أنها ثانوية. والعمل، لا يُعرّف ببساطة على أنه العمل المدفوع الأجر. ومما له أهمية في مجتمعنا، مثل العمل المدفوع الأجر - سواء من ناحية توفير الظروف الضرورية لمستويات معيشة كافية، أو في إعطاء الشخص إحساساً بقيمته من ناحية إبداعه، سواء كان رجلاً أم امرأة - هذا الانخراط في العالم بشكل مبدع نيابة عن الله، هو الأمر المهم حقاً .

وفي عالمنا الآن، حيث أصبح، وقت الفراغ، يشكل فيه مشكلة حقيقية، وأصبحت البطالة الحادة تزداد كحقيقة واقعة من حقائق الحياة ، والتي أصبح فيها الجهاز الآلي التكنولوجي يتحمل مشكوراً ألم وتعب كثير من الروتين الممل، هنا أصبحنا في حاجة لأن نستعيد الإحساس بقدرتنا على الإبداع، على اعتبار أننا أناس خُلقنا على صورة الخالق.

ب. القدرة الإبداعية

لنكن واضحين بالنسبة لما تعنيه هذه "القدرة الإبداعية" Creativity. في عام ١٩٨٦ ، نشر "فيليب وست" Philip west مقالاً، يوضح فيه كيف أن مفكرين مسيحيين معاصرين عديدين استعملوا - كان عليه أن يقول أساءوا استعمال - مفهوم "الإبداع". فالبعض، حاولوا بكل بساطة، تفسير هذا المفهوم بأنه "التجديد في الإنتاج"، "فالإبداع" ما هو إلا جعل الشيء جديداً، وآخرون استخدموا نصوص سفر التكوين، لتبرير تفسير "الإبداع" في المجال الاقتصادي وحده ، فالإبداع عندهم، هو إنتاج رأس المال، وخلق الثروة . ومع ذلك، فهناك آخرون ينظرون إلى "الإبداع" على أنه

---

(١) Karl Barth, *Church Dogmatics*, III/4, pp.470ff.

التعبير عن الذات، "فالإبداع" البشري مقصور على إنتاج الأعمال الفنية. وأياً كان مقدار الحقيقة في هذه التناولات، فإنها تميل إلى التعتيم، أكثر مما تميل إلى التنوير. ويرى "فيليب وست" - عن حق - أننا في حاجة إلى فهم "الإبداع الإنساني" في ضوء "إبداع الله". فإن الله لا يكفي أن نقدمه فقط على أساس أنه "المبدع الأعظم"، أو "الاقتصادي الأعظم"، أو "الفنان الأعظم". وقد رجع "فيليب وست" نفسه إلى المزامير، وإلى أناشيد العبد في سفر إشعياء، وكذلك إلى القوة الخلاقة لصليب المسيح، لدعم مفهومه عن إبداع الله. غير أننا نستطيع أيضاً أن نجد مؤشرات كافية لهذا المفهوم في سفر التكوين. فقدرة الله على الإبداع، رأيناها في (تك١): في إعطائه شكلاً لما لا شكل له.. وخلقه نظاماً لما هو مشوش.. وتحكمه في العاصفة.. واحتوائه لقوة المياه؛ حتى تعطي الحياة.

وقدرة الله الخلَّاقة، يمكننا أن نلمسها في (تك٢)، وذلك في إعداده بيئة يمكن أن تزدهر فيها الحياة وتنمو الحضارة. وكما سنرى بعد ذلك في (تك٢)، تظهر قدرته الإبداعية أيضاً في تدبيره إطاراً إنسانياً اجتماعياً للحب الشخصي. وقصة الفيضان (تك ٦-٩) تبيّن لنا "قوة" عهد النعمة، الذي يعيد خلق عالم جديدٍ من عالمٍ محطم.

وبرج بابل أيضاً (تك ١١) سيبرز أهمية أن تتركز حياة الشركة على الله.

لقد وضع الله الإنسان في جنته؛ كي يعتني بها، على اعتبار أنه مدير أملاكه. وإذا كان لإبداعنا البشري أن يعكس شيئاً من إبداع الله، فلن يهتم فقط بما هو جديد، سواء كان مُنتجاً من الناحية الاقتصادية، أو معبّراً من الناحية الفنية. فلسوف يتخطى هذه الأمور، بغية أن يعكس اهتمام الله بعالم ومجتمع، يستطيع أن يقول عن كل منهما " أنه حسن ".

وإبداعنا كبشر، يجب أن يهدف لأن يعكس إبداع الله، وذلك في إطار حرية طاعة الإيمان، لمواجهة الأماكن التي لا شكل لها، والمشوشة في عالمنا وفي حياتنا، وتحويلها إلى أماكن للجمال والخير. واهتمامات مخططي المدينة؛ لخلق بيئة يمكن أن يحيا فيها الإنسان حياة طيبة.. وعمل الأطباء والمعالجين؛ من أجل تسهيل التمتع بالصحة، التي تعطي قوة لحياة طيبة، ونمواً في شخصية الإنسان، لتعكس بصورة متزايدة جمال المسيح وصلاحه؛ هذه وغيرها الكثير، كلها نواحٍ من الإبداع الحقيقي.

ج. الجمال والحرية

لقد ذُكر لنا، أن الجنة كانت مكاناً للجمال، بقدر ما كانت مكاناً له نفعه (تك٢: ٩).

"والله الفنان"، يشكّل جزءاً من القصة، حتى وإن كان إبداعه - كما ذكرنا منذ برهة - أكبر بكثير

من الفن. فكانت الجنة تضم أشجاراً " شهية للنظر ". كما كانت في ذات الوقت " جيدة للأكل ". فدائماً ما يجود النمو في البيئة الجيدة، ويقل في البيئة المعادية.

والجمال يشكّل جزءاً من خليقة الله الحسنة. فهناك بعض الأشياء الحسنة، لمجرد أنها جميلة، على الرغم من أنه – بلا ريب – كان في الإمكان بيعها وإعطاء ثمنها للفقراء (انظر مت ٢٦: ٦ - ١٠). وفي حين أن التزامنا نحو الفقراء لم يقل، إلا أننا نحسن صنعاً إذا تذكرنا أن المسيح امتدح العمل الحسن (مت ٢٦: ١٠).

وفي نموذج الله لعالمه، لم يكن الإنسان يحتاج إلى بيئة صالحة فحسب، بل " شهية للنظر " أيضاً . ومجابهة حرمان المدن الداخلية، لا يقتصر فقط على توفير الإسكان وأسباب الراحة الاجتماعية، لأولئك الذين عانوا، وهم المنبوذون في بيئة لا تصلح للسكنى، لأن المساكن وأسباب الراحة، يجب أن تصاحبها بيئة خصيبة جميلة تعزز الحياة. والشقق الغالية التي توفر ملجأ، ولكنها عارية من الجمال، تُوفي بحاجة واحدة، ولكنها تخلق حاجة أخرى. لقد وُجد الإنسان في الجنة وهي بيئة " شهية للنظر " (تك٢: ٩) .

وتتوافر الحرية في جنة الله "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً " (تك٢: ١٦). ولعل ذلك معناه: "بمقدورك أن تأكل حتى تشبع"، ومن "جميع شجر الجنة ". ولقد كانت للإنسان حرية الخروج منها إذا أمكننا القول فقد كانت الجنة له كي يستمتع بها، ويعملها دون أي قيد، باستثناء شرط واحد : وهو الأمر الناهي الذي ورد في العدد ١٧)، وهو الذي يشكّل الحدود الوحيدة التي يجد الحرية في إطارها .

وهنا، صورة لمكان يتسم بالحيوية والحرية والغذاء الوفير. وهنا أيضاً، مكان، يتكلم فيه الله مع الإنسان. وكما رأينا في الأصحاح السابق، أنه من بين الخلائق العديدة، نجد أن الله دعا خليقة واحدة بعينها: لتعكس صورته، **وهو يخاطب الإنسان بضمير المُخاطَب الشخصي، وهي السمة الإنسانية المميَّزة أن يؤمر الإنسان للقيام بعمل معين، ومصير معين، وحياة معينة، حرية معينة، وذلك بعهد من الرب "يهوه" نفسه، الذي خاطبه بنفس ضمير المُخاطَب. لقد أصبح الإنسان، الكائن الحي، أصبح الآن إنساناً، يخاطبه خالقه بصفةٍ شخصيةٍ.**

د. في الوسط.. شجرة الحياة

تُرى.. ما هو مركز الحياة في الجنة ؟

في المركز، في وسط الجنة، توجد " شجرة الحياة "، وكذلك " شجرة معرفة الخير والشر " (تك٢: ٩) . ولكي تكون الشجرة في الوسط؛ لا يمكن للإنسان نفسه أن يكون في الوسط. ولذا، فإن حرية حياة الإنسان قد حدَّها نهيٌ واحد (تك٢: ١٧)، **الأمر الذي يذكِّر الإنسان أن حرية حياته، ومن ثم ظروف حياته، يدبرها الله نفسه (والواقع، كما سنرى ، فيما يلي، فإن الحياة ضُمنت بهذا النهي الوحيد. فالحياة والحرية، لا يمكن أن يُوجدا، إلاّ في إطار شريعة الله الكريمة)** .

وعبارة "**الخير والشر**" ربما تعني "**كل شيء**". فالشجرة هي شجرة معرفة كل شيء، أي، معرفة من نوع المعرفة التي لله، وهي تقوم، كرمز للحياة التي أعطاها الله . ولكن الإنسان ليس هو الله ، ولا يمكن أن تكون له مثل هذه المعرفة. ولا ينبغي أن يحاول الإنسان أن يكون الله، ويجب أن يبتعد عن المركز.

"**والخير والشر**" يمثلان أيضاً تعبيراً يشير إلى الخيارات الأدبية. ومعرفة الخير والشر تجعل الإنسان حكيماً (انظر تك٣: ٦) . والحكمة، كما توضحها الكتابات التي تتكلم عنها، تتضمن ذلك الفهم الذي لا يتوافر إلا في الله فقط (أم٣٠: ١- ٤) . فالشخص الحكيم هو الذي يخاف الله ، وإيمانه يجعله، بكل طاعة، يتكل عليه.

وطبقاً لما جاء في (حز٢٨: ٦ و١٥- ١٧)، طُرد ملك صور من عدن " من أجل أنك جعلت قلبك كقلب الآلهة " . ولعله كان في ذلك إشارة إلى (تك٢) . "**وشجرة معرفة الخير والشر**"، **ربما تشير إلى تلك الحكمة الإلهية التي لا يستطيع الإنسان أن يتملكها، بل ولا يجب أن يسعى إليها، فالإنسان ليس له استقلال أدبي**. فلقد قُصد باختياراته أن تعكس الصلاح الذي يُوجد في الله نفسه؛ الصلاح الذي يجعل الله معروفاً لنا من خلال إعلان مشيئته . ومشيئة الله هي التي يقيم عليها العهد الجديد كثيراً من تعاليمه الأخلاقية (انظر على سبيل المثال ١تس ٤: ٢). وهي المشيئة التي لُخِصت هنا في الجنة، في الأمر الإلهي الوحيد الذي أعطي فيها " ... لا تأكل ... " .

وفي عالمنا عالم ما بعد حركة التنوير (Post-Enlightement) – والتي فيها، كثيراً ما تم الفصل بين ما يُسمى بالحقائق التجريبية، عن القيم الأدبية، وتُركت هذه الأخيرة للأختيار الشخصي، بل وإلى ذوقه الشخصي، فأصبحنا نميل إلى إقناع أنفسنا بأنه لا توجد مباديء أدبية مطلقة . وقد فهمت الأجيال السابقة، أن القيم الأدبية متأصلة، بشكل ما، في الكيفية التي عليها الأشياء في العالم . وكانوا يرون أن هناك جانباً موضوعياً في المباديء الأدبية، فقد "حُمِّلت الحقائق

بالقيم"، لأنها جاءت من يدي الخالق. فالقرارات الخاصة بالإجهاض، ونشر الأسلحة النووية، وغيرها، لو كانت في هذا العالم المبكر، لنسبت إلى مستوى من الصلاح، وفهم للشر الذي يتجاوز حدود الاختيار الشخصي، أو الإحصائيات الأدبية (ما تؤمن به الأغلبية).

أما الآن، وعلى الرغم من أن قلوبنا غالباً ما تقول لنا العكس، إلا أن عقولنا كثيراً ما تم تهيئتها لكي تعتقد - مع "هاملت" - أنه لا يوجد شيء يُعتبر حسناً أو رديئاً، ألاَّ أن تفكيرنا هو الذي يجعله هكذا. ومع ذلك، تعرف قلوبنا أن بعض الأشياء شريرة، وبعضها حسن. وعلى الرغم من وجود كثير من المناطق المشوشة من الناحية الأخلاقية، حيث الدعاوي المتعارضة حول ما هو" حسن"، تجعل القرارات الأخلاقية معقدة للغاية، إلا أن قلوبنا تعرف أن هناك ما يمكن أن نصفه بأنه "حسن"، وهو فوق إدراكنا، ويتجاوز اختياراتنا. حيث توجد في طبيعتنا "لمحة من السمو الأخلاقي"، كما هناك نظام أدبي موضوعي. فلسنا كائنات أخلاقية من تلقاء ذواتنا، وليس بمقدورنا بكل بساطة أن نخترع الصواب والخطأ.

وهناك.. شجرة في وسط الجنة، تذكِّرنا أن الحدود الأدبية أعطيت لنا من أجل صالحنا، وهي جزء من الحالة التي عليها العالم، وهي جزء من النموذج الإلهي للجنة، وحينما نتخطى الحدود التي رسمها الله، ونسعى لكي نقتحم مناطق خاصة بالله وحده، يأتي إلينا القول: " لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت " (٢ : ١٧). **ولعلنا في حاجة إلى أن نكتب هذه العبارة، بكل وضوح، على أبواب بعض المؤسسات التي تعمل على تصعيد احتمالات الدمار النووي، أو انتهاك سلامة الإنسان في بعض تجارب الهندسة الوراثية، أو إجراء الأبحاث على البشر. وحين يحاول الناس أن يكونوا آلهة، وأن يتخذوا بأنفسهم قرارات هي من اختصاص الله وحده، فإننا بذلك نستسلم للشيطان**، ولسوف تصدر كلمة **دينونة الله** ضدنا.

غير أنه ليس فقط بسبب مثل هذه الحالات الخاصة باستقلالية الإنسان البالغة الغطرسة فحسب، صدر الأمر الإلهي بالتقييد، بل قُصد بهذا الأمر أن يحكم كل نواحي الحياة في الجنة، التي ينتمي المركز فيها، لا للإنسان، بل إلى "كلمة الله". وبمقدورنا أن نقرأ بين ثنايا أهمية هذا القانون الوحيد، عن أهمية التزامنا الأمانة في أعمالنا، والإخلاص لشريكنا في الحياة الزوجية، واحترامنا لحياة الآخرين، وواجبنا من ناحية العناية بالبيئة الطبيعية، وأهمية محبتنا للقريب.

وكذلك في مناطق الحياة العادية هذه، لا يمكن أن نجد تحقيق مقاصد الله الصالحة بالنسبة للإنسان في التأكيد على استقلاليته، ولا في السعي وراء المعرفة والخبرة خارج الحدود التي

عيَّنها الله. فالإنسان لا يجد تحقيق ذاته، إلا من خلال نمو علاقته مع الله، والعناية بجنته على أساس طاعة كلمته، وليس له أن يلمس الشجرة التي في وسط الجنة .

هـ. تناقض الحرية !

نلاحظ أيضاً أن هذا الأمر السلبي الوحيد، قد جاء في سياق عناية الله ورعايته . وهو لا يشكل قيداً قاسياً، بل هو بالأحرى، رمز لحقيقة أن عبور الحدود التي عيَّنها الله، يقلِّل بالأحرى من خير الإنسان، ولا يعززها . وهو يعطي الحدود، التي تتوفر الحرية في إطارها.

وهنا، يعرض لنا الكتاب إحدى متناقضات حياة الإنسان . فالحرية دون حدود، يمكنها أن تتحول بسرعة إلى رخصة هدَّامة، تقيِّد بدلاً من أن تحرر. فالحرية الحقة، لا توجد، إلا في إطار من الحدود . فالسمكة الذهبية Goldfish إذا تحررت من مائها؛ فلن تعيش طويلاً في الحرية التي وجدتها حديثاً. وحريتها في أن تكون سمكة ذهبية، تتوقف على احترامها للبيئة المناسبة لحياتها.

وهكذا الحال بالنسبة للبشر، لذلك، فإن هذا الأمر الذي يبدو في الظاهر أمراً مقيِّداً: " عش فقط في إطار حدود كلمة الله "، لا يعدو في واقع الأمر سوى أن يكون الأساس الوحيد الذي يمكن أن تقوم عليه الحرية الشخصية . **"فخدمة الله هي الحرية الكاملة، وشريعته هي التي تضمن حريتنا.". إنه قانون الله، الذي يضمن حريتنا.**

ويمكن إيضاح القضية بطريقة أخرى، وذلك بملاحظة أن الله ليس في الجنة. بل يأتي لجولة مسائية (أو من الممكن أن يكون ذلك في الصباح الباكر[1])"عند هبوب ريح النهار"، أي في هواء النهار العليل (تك٣: ٨)، غير أنه بالنسبة لمعظم الوقت، فإن كل ما يجب أن يسير عليه الإنسان هو كلمة الله، وهذا هو ما يقوم عليه الإيمان : الحياة بكلمة الله، حين يكون الله غائباً عن الجنة ، وتعلُّمنا أن نثق في الله، حتى في حالة عدم رؤيتنا أو فهمنا بشكل كامل ، والابتعاد عن الشجرة، لا لشيء سوى أن الله يريد ذلك ، على الرغم من أننا قد نجد أسباباً كثيرة وجيهة لعدم تنفيذ ذلك . وقبولنا بأن تُوجد لنا حدود، مهما كان عدم وضوحها، يجعلنا نؤمن بأنها لم تأت اعتباطاً . والنمو يتأتَّى نتيجة تعلُّمنا أن نعيش حياة الالتزام والطاعة والثقة، على أساس كلمة الله

---

[1] أنظر نش ٢: ١٧ .

و. المعرفة بالمشاركة

ومما يجدر ذكره هنا، أن " الالتزام"، كلمة عادت للظهور ثانية في بعض الأعمال الحديثة، التي تتناول فلسفة العلم . وهناك كُتّاب.. مثل "مايكل بولاني". يؤكدون، بقوة، بأنه لا يُوجد شيء يُسمى معرفة علمية موضوعية مستقلة تماماً. فكل معرفة تتضمن التزاماً شخصياً، لا مفرّ منه، بل حتى في أقل العلوم "شخصانية" وهو علم الطبيعة Physics فإن عمليات الاكتشاف، وصياغة النظريات، والإجراءات الخاصة بفحص الافتراضات، كل هذه الخطوات تتضمن التزاماً شخصياً من جانب العالِم فعلى سبيل المثال، نجد في غالب الأحيان أن تقييم النتائج، هو موضوع يقوم على أساس العلاقات بين الإحصائيات، ووزن الاحتمالات . لكن وزن الاحتمالات ليس مفهوماً علمياً لأنه أمر يتضمن حُكماً شخصياً، يقوم على أساس الخبرة والمهارة . ونفس الشيء يُقال عن استخدام الأجهزة، والطريقة التي تُسجَّل بها النتائج ، بل حتى اختيار موضوع البحث في المقام الأول، فهذه كلها تتضمن تقييمات شخصية، تقوم على أساس التزام بالموضوع محل البحث . والاكتشاف يكمن في الاعتقاد أن هناك شيئاً يمكن العثور عليه، وأن نظريتي أنا، ستُتيح معرفة عن احتمالات خاصة بموضوع البحث، لم يكن يُحلم بها حتى الآن. إنه "إيمان ينشد الفهم" (faith seeking understanding) (إذا استعرنا التعبير التقليدي الذي استُخدم أساساً لوصف مهمة "علم اللاهوت") .

لذلك... يشرح هذه الفكرة، بتشبيه آخر، الفليسوف: "مايكل بولاني"، حيث يذكر أن المعرفة الحقة تنشأ عن "**المشاركة**"، أو عن طريق "السُكنى " (indwelling). ويسوق مثلاً واحداً : ليس بمقدوري أن أخبرك كيف تركب دراجة. فلن أعرف كيفية ذلك، إلا إذا قمت أنا بذلك فعلاً، أي من خلال المشاركة . فقدماي تسكنان بدالي الدراجة، وبهذا تصبح امتداداً لي بقصد الركوب. ومع ذلك، لا أعرف شيئاً عن "بدال" الدراجة، إلاَّ ضمناً فقط. والواقع إنني إذا ركزت انتباهي على البدَّال؛ فسوف أقع. ولكني استخدم هذه المعرفة الضمنية، كجزء من معرفتي الإجمالية عن ركوب الدراجة، وهي معرفة لم أكتسبها من خلال الانفصال أو الابتعاد، بل من خلال المشاركة.

والمعرفة التي يتم التوصل إليها نتيجة اكتشاف علمي هي أيضاً – وكما يقول بولاني – معرفة بالمشاركة . وتناوله كله، لفلسفة العلم، يناقض ما سبق أن عُرف عبر أجيال عديدة على أنه "نموذج" المعرفة العلمية، وبالتحديد" المعرفة بالانفصال ". وهذا الميراث الذي خلّفه "ديكارت" Descartes وحركة التنوير، كانا في الواقع طريقاً أعمى، مع الأسف؛ أدى إلى الإنشقاقات الثنائية

في ثقافتنا، بين "الحقائق والقيم"، "العقل والجسد"، "العقل والعاطفة"، "الروح والمادة"، وما إلى ذلك

لكن "الانفصال العلمي"، ما هو إلا مثاليات جوفاء. فالمعرفة بكل أنواعها هي معرفة شخصية، تتضمن المساهمة الشخصية من قِبل الشخص الذي يعرف، فهناك "شركة" قوية بين الشخص وعالمه . فنحن لسنا آلهة نقف فوق العالم بعقلايتنا الفائقة، بل، ونحن تحت رحمة شيء، لا يمكن سبر غوره، بأية حال. فنحن جزء من العالم، ونسكن فيه، وفي ذات الوقت نستطيع أن نسمو عليه، من خلال قوى الإدراك والتصور والعقل، التي منحها لنا الله. نحن البشر من تراب، ومع ذلك متفتحون على كلمة الله، وإننا نشكِّل جزءاً من النظام المخلوق، ومع هذا، أعطينا حرية الجنة؛ لنكتشفها، ونتمتع بها، ونستخدمها، ونعرفها.

لذلك، يجب على المفكرين المسيحيين أن يفهموا جيداً ما يعنيه بولاني : **"بالمعرفة بالمشاركة"**. فهذه هي الطريقة التي يتحدث بها العهد الجديد عن معرفتنا لله: " لأنني عالم بمن آمنت " (٢ تي ١: ١٢)، كما كتب القديس بولس. وكما يتحدث أيضاً عن سُكناناً أي كوننا "في المسيح"، وكونه "فينا". لأن معرفة الله الحقة، تأتي من خلال الالتزام والثقة والمشاركة .

والواقع أن معرفة الله، التي يشير إليها هذا الفصل الصغير الذي يتحدث عن الإنسان في الجنة، تصبح - في ضوء إنجيل العهد الجديد . هي الصيغة المميزة للطاعة المسيحية ، طاعة الإيمان في المسيح، "كلمة الله". وللمرة الثانية، يعبِّر" كارل بارت " عن ذلك جيداً، في مناقشته عن "الله، **الذي يجب أن نخافه أكثر من كل شيء؛ لأننا نحبه أكثر من كل شيء".**

"إن معرفة الله هي في طاعته، وهذه ليست طاعة العبد، بل طاعة الابن ، وهي ليست طاعة عمياء، بل طاعة مبصرة. وليست طاعة القسر ، بل الحرية. ولهذا السبب عينه هي طاعة حقيقية . . . فالله يقف أمام الإنسان باعتباره الذي يوقظ إيمانه ويخلقه ويعوله ويدعمه . . . والمعرفة التي تتولد عن هذه المحبة، ستظل حقيقية بصفة مستمرة؛ لأنها هي ذاتها من الله"(١).

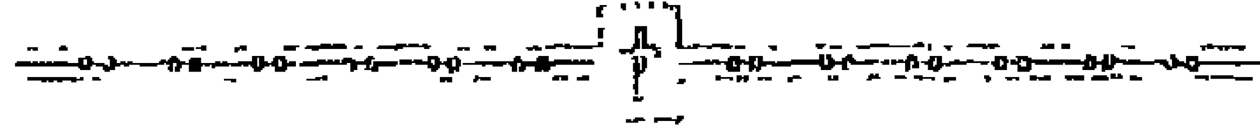
وهذا الإيمان، يُعطى ويُقبل في يسوع المسيح. لذلك، يكتب القديس بولس : "ومنه(الله) أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة" (١كو١: ٣٠) .

لقد كانت معرفة بالله من خلال المشاركة، بالسُكنى المتبادلة، معرفة تأتى عن طريق طاعة الإيمان، والتي كان على آدم أن يتمتع بها في الجنة. والواقع - وكما سنرى ونعرف تمام

---

(1) *Church Dogmatics*, II 11, pp.3f; 26ff.

المعرفة - أنه سعى بالأحرى نحو معرفة عن طريق الانفصال، معرفة مبنية على أساس استقلال مزعوم للإنسان؛ معرفة يتم الحصول عليها من خلال العصيان - وكانت النتيجة هي الفوضى والموت .



٧. الاقامة، والسلطان، والشركة

(٢: ١٨-٢٥)

وإذا ما صُورت علاقة الإنسان الحقيقية بالله، في إطار الثقة بكلمته وطاعتها؛ فإن علاقاته الحقيقية بالنظام الطبيعي قد تصوَّر على أساس الإقامة وتجاه الحيوانات، على أساس السلطان.. وتجاه الناس بعضهم لبعض، على أساس الشركة .

ولقد سبق أن لاحظنا، أن "الإقامة" تقوم على أساس أن الإنسان هو حافظ الحديقة، أما الآن، فنحن في حاجة إلى أن نعرض لسلطانه .

أ. ليس جيداً أن يكون وحيداً (٢:١٨-٢٠)

"١٨ وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له معيناً نظيره. ١٩ وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء. فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. ٢٠ فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره. "

" ليس جيداً أن يكون آدم وحده " (٢ : ١٨).

لقد سبق أن ذكرنا قصة الأرنب المخملي، وتلك القصة، ما هي إلا طريقة للتعبير عن الحق الجوهري، حول معنى أن تكون إنساناً : **فقد خُلقنا، لنكون في شركة**. ومن بين النتائج المدمرة لفلسفة التنوير - على الرغم من الضوء النافع الذي ألقته بالنسبة لكثير من الموضوعات - هو تركيزها على الفرد، كمركز للإدراك العقلاني للذات . ونهاية هذا الطريق، هي البؤس، الذي تجلبه على "هذا الجيل". وقد انفتحت شقوق عميقة في ثقافتنا - وكما سبق أن ذكرنا - بين الحقائق والقيم، بين العقل والجسد ، بين المنطق والعاطفة، الفاعل والمفعول وظن فشل كلمات مثل: "المعنى، الهدف ، الشركة، المجتمع"، بكل سهولة . ومع ذلك، فالشركة الشخصية هي ما تعنيه صورة

الله - وليست الشركة بين الإنسان والله فقط، بل بين الإنسان وسائر بيئته، ولا سيما بين الإنسان وأخيه الإنسان. والشعور بالعزلة والغربة، الذي يشعر بهما المجتمع المعاصر بشكل كبير، حيث نرى أنه حتى "العائلات"، كثيراً ما تُحَدَّد على أساس أنها هي "الجماعة التي تعيش تحت سقف واحد". وتقتني نفس جهاز التليفزيون، في الوقت الذي نرى فيه كل فرد قد انعزل عن الآخرين ، في حياة منفصلة، الأمر الذي يبرز نص سفر التكوين: "ليس جيداً أن يكون . . . وحده " .

ولذلك، رأى الله أن يصنع **"له معيناً نظيره "** (تك ٢: ١٨) . وكما نعرف أن هذا قد تحقق بخلق "المرأة"، الموصوف في (تك ٢: ٢١ - ٢٢) . ولكن يلزمنا أن نتمهل هنا، ونسأل عن معنى هذا، لأن هذه العبارة كثيراً ما أُسيء استخدامها، وأُخذت على أنها وثيقة لسيادة الرجل على المرأة .

إن هذا التعبير في اللغة العبرية، يتضمن كلمتين هما " ezer kneg ". وأولى هاتين الكلمتين تُرجمت " معيناً "، الأمر الذي يشير إلى شخص يقدم المعونة والتشجيع . "والمعونة " تقدم الدعم بالنسبة لما ينقص الشخص الذي يحتاج إلى معونة . وهي كلمة أُستُخدمت مرات عديدة في العهد القديم، بالنسبة للمعونة التي تأتي من الله (أنظر مز٣٣: ٢٠) . وقد وُصف المعين بأنه " kneg " ، ويبدو أن هذه الكلمة مُشتقة من فعل معناه "أن يكون واضحاً أو ظاهراً". والاسم المشتق من هذه الكلمة يشير إلى شخص "بارز". ولذلك، فعبارة " معيناً نظيره " معناها؛ "معيناً يماثله عظمة - أو ربما تميُّزه". ومن المؤكد أنها تشير إلى شخص يليق بأن يقف أمام الرجل، مقابله، نظيراً له، ورفيقاً ومكمِّلاً. ولا نجد هنا أي معنى لمنزلة أقل أو تابعية أو عبودية- بل بالأحرى لشخص مثله، أو "كمقابل له" (المعنى الحرفي للكلمة) . والمدافعون عن تميّز الذكور وسلطانهم، عليهم أن يبحثوا على ما يؤيد دعواهم في موضع آخر غير (تك٢) .

ومع ذلك ، وقبل أن يُوجد المعين الذي يماثله في منزلته الكبيرة، كان هناك ثمة تأخير. فعِوض أن يكون واحداً مثل الرجل، ذُكِّر لك الوحي المقدس أن الرب جبل مواشي وطيور وحيوانات، وأُحضرت أمام الرجل في استعراض حيواني عظيم .

ب. السلطان والتسمية

وإذ أعطى آدم الحيوانات أسماء، فإنه بذلك عمل شيئين. أولاً تعرف على الأنواع التي تأتي عليها الأشياء، حيث جمع كل نوع معاً، وميَّز بين الأشياء المختلفة . وهو بهذا قد شرع ينظِّم عالمه. فالإنسان، كعالِم من العلماء، لم يكن بعيداً جداً عن هذه الصورة. ثم إنه بدأ يدرك أيضاً أن هذه البيئة الحيوانية، أُعطيت له من قِبل الله ، وهذه أيضاً مخلوقات الله، ويعمل بعض النظام بدلاً

من الفوضى، بإعطاء أسماء لكل حيوان، فإن آدم هنا كان يعكس شيئاً من صورة الله، التي وُصفت في الأصحاح الأول بأنه "يتسلط" على سائر الخليقة . إلا أننا من ناحية أخرى، نقول، إن عملية إعطاء الأسماء في العالم القديم كانت من بين أمور ممارسة السيادة، فآدم يأخذ سلطاناً على بقية المخلوقات. ومسئولية الوكالة في النظام الطبيعي، تمتد الآن، لتشمل عالم الحيوان، والإنسان، هو صاحب هذه المسئولية .

ولذلك، فإن هذا الحدث الصغير يحمل القارئ على أن يتوقف قليلاً، ويسأل: ما الذي يحدث ؟ ألم نُخبر أنه ليس جيداً أن يكون آدم وحده ؟ ألم نكن نتوقع أنه سيُدبر له معيناً ؟

إننا نعرف ما يدور في ذهن الرب بالنسبة للإنسان . والآن، على الإنسان أن ينتظر، ويتعامل، أولاً، مع رفقائه من الحيوانات. ولعل هذه هي الطريقة، التي يدرك بنفسه من خلالها،أنه ليس جيداً أن يكون وحده. ولعله، كان هو نفسه هنا، قد بدأ يتعلم أن يفكر عن نفسه، بنفس الطريقة التي يفكر الله بها عنه. وشيئاً فشيئاً، بدأت الحيوانات تنصرف أزواجاً أزواجاً ، وتركت آدم وحده. والآن، بدأ آدم يعرف ما كان الله يعرفه طوال الوقت، فقد كان الله يعرف أنه مع حسن خليقته ، إلا أنه لا يزال هناك شيء " غير جيد " يتطلب العلاج. لقد أدرك آدم الآن أنه من المؤكد أن المزيد آت في الطريق . فلابد أن الله لديه في فكره شيء أفضل من الحيوانات!!

وهكذا، أصبحنا مهيئين للعمل الثاني، الذي يعتزمه الله، والمشار إليه في العدد (٢١) : " فأوقع الرب..."

ج. امرأة (Ishshah) (تك٢: ٢١ - ٢٥)

"٢١ فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. ٢٢ وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم.٢٣ فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تُدعى امرأة لأنها من امرءٍ أُخذت.٢٤ لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً.٢٥وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان. "

لقد حُمل الله آدم على أن ينام. وكما يقول " فون راد" Von Rad ": إن المعجزة التي تحدث عند قيام الله بعملية الخلق، ليس متاحاً لنا أن نشاهدها، لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى الله، وهو يقوم بهذا العمل ، لا يستطيع أن يرى معجزات الله إبان تكوينها، ولكنه يستطيع أن يُبجِّل قدرة الله الخلاقة، كحقيقة قد تمت بالفعل.".

وهكذا نصل إلى ذروة هذا الأصحاح . فقول الله:" ليس جيداً أن يكون آدم وحده،" قُوبل بإيجاد امرأة . وقد قدَّم الله لآدم واحدة مثله، ومع ذلك، لم تكن مثله، وذلك لتكون "نظيراً" له . **لقد تم إزالة عدم اكتمال الرجل بدون المرأة، الآن، بعطية، هي (امرأة) من جنبه، لتكون إلى جانبه.**

ومن الطبيعي أن يُعد هذا عدداً هاماً جداً، من ناحية فهم الكيفية التي ينظر بها الكتاب المقدس إلى الزواج، وقد اقتُبست عدة مرات في العهد الجديد . ولسوف نستكشف بعد قليل فكراً لاهوتياً خاصاً بالزواج، ولكن قبل أن نفعل هذا، علينا ملاحظة أن كل ما تعنيه الحياة في الجنة الآن، هو العِشرة الشخصية المتبادلة بين الجنسين . فالرجال والنساء، كائنات شخصية، تسعد بوجود أشخاص آخرين .

.. ولنفسر هذا بشيء قليل من التفصيل .

أولاً : نلاحظ كيف حيَّا آدم المرأة التي أحضرها الله له، كما يُحضر الأب العروس : " هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي " (تك٢: ٢٣) . وعبارة " عظم من عظامي " هي التعبير العبري، الذي يماثل قولنا : " صلة الدم ". وهنا، نجد أشد أنواع القرابة وثوقاً بالنسبة للإنسان، والتي تضع الرجل والمرأة على قدم المساواة بالنسبة لإنسانيتهما ، وفي الوقت نفسه، تميِّزهما عن الحيوانات . كما نجد هنا أيضاً شعوراً بالرضا والارتياح، لإنتهاء فترة الانتظار. وتدبيرات الله، جاءت لتتناسب تماماً مع حاجته، "فكل منهما قد خُلق للآخر". والاستجابة التي اتسمت بالبهجة الغامرة، جاء التعبير عنها بأسلوب شعري، فهناك إحساس بالبهجة والعناق السعيد بالنسبة لهذا الترحيب . وليس من عجب، أن دفع هذا "بارث " إلى أن يرى اتحاد الجنسين جزءاً رئيسياً من معنى " صورة الله " .

ثانياً : وكما وضَّح "متى هنري" Mathew Henry الأمر بفرح قائلاً : لم تُخلق من رأسه، كي لا تترأسه.. ولا من قدمه، حتى لا يدوسها بقدميه.. بل؛ من جنبه، كي تكون مساوية له.. وتحت ذراعه كي يحميها.. وبالقرب من قلبه؛ كي يحبها."[1].

ومهما كان ما تتضمنه قصة السقوط (في الأصحاح الثالث)، بالنسبة العلاقة بين الجنسين، فإن الأصحاحين الأولين من سفر التكوين، يجعلان من المساواة بين الرجل والمرأة ، وبين المرأة والرجل من جهة كونهما صورة الله، أمراً واضحاً كل الوضوح. وأخذ قطعة من جسم الرجل لخلق المرأة؛ يشير إلى أنه بدءاً من تلك اللحظة لن يكون أحدهما كاملاً بدون الآخر. **فالرجل يحتاج**

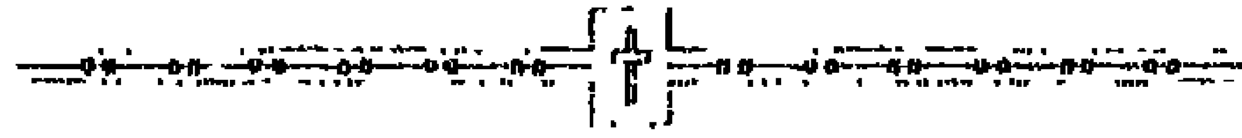
---

(1) Mathew Henry, *Commentary on the whole Bible* (Marshal, Morgan and Scott, 1961).

إلى المرأة لتكمله، والمرأة تحتاج إلى الرجل للسبب نفسه، وكل منهما على قدم المساواة من ناحية حاجته إلى الآخر، ولا شيء آخر يمكنه أن يوضّح بأكثر جلاء، التكامل والمساواة بين الجنسين .

وما أشد الحاجة لتأكيد هذا المفهوم في أيامنا هذه، في مواجهة ما تؤكده بعض الجهات من سيادة الرجل من جهة، وإصرار الحركات المتطرفة المؤيدة للمرأة، على القول بأنه لا حاجة للرجال إطلاقاً، من جهة أخرى، ورفض البعض، ولا سيما في حركات التحرير التي يقودها الشواذ جنسياً، في أن يأخذوا على محمل الجد تكامل وتبادل الجنسين كجزء من النظام الذي أعطاه الله .

ثالثاً : ليس هناك أي أساس، للتأكيد على أن النساء أقل درجة من الرجال، كما يحاول البعض إثباته، من حقيقة قول آدم: "**هذه تُدعى امرأة** " (تك٢: ٢٣) . ذلك لأن آدم لم يدع اسم امرأته "حواء" إلا في (تك ٣: ٢٠). أما هنا، فلم يستعمل صيغة التسمية المألوفة التي استخدمها بالنسبة للحيوانات. والصيغة تتضمن الفعل " يدعو بأسماء"، كما في (٢: ١٩). كما أستُخدمت في (تك ٤: ٢٥): "فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً " . ولذلك؛ لم يُصوَّر آدم هنا على أنه يمارس سلطاناً على زوجته، بل قوله هذا يُعد بالأحرى صيحة فرح وترحيب : " هذه تُدعى امرأة (إيشة) Ishshah كما في العبرية لأنها من امرء (إيش) Ish أخذت ". وهذه الكلمات في الأصل العبري، هي الذكر والأنثى المتممان كل منهما للآخر: وهذا قول آخر، إذا كان الأمر يتطلب ذلك عن التكامل والمساواة بين الذكر والأنثى .



٨. الخليقة.. والجنس

بمقدورنا الآن أن نحاول تلخيص ما ذكره لنا سفر التكوين حتى الآن، بالنسبة للجنس وللعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. وبينما نستعرض بعض المعلومات من هذا النص القديم، سوف نأخذ في الأعتبار أيضاً كيفية الرد على الأسئلة التي تواجهنا اليوم، كمسيحيين، من النماذج الجنسية المنحرفة في ثقافتنا، من جهة رفض الزواج كنمط طبيعي، ومن ناحية أخرى الرد على التيارات الجنسية المنحرفة الخاصة بالشذوذ الجنسي، والتي تحاول فرض فكرها على المجتمع، بل حتى على الكنيسة نفسها.

أولاً : جميع البشر لهم قيمة ومكانة كأشخاص. والافتراض الأساسي لجميع معاملات كل منا للآخر، يجب أن يقوم على حقيقة: أن الله خلقنا جميعاً؛ لنعكس صورته. وهذا ما يجب أن يدحض كل تفرقة من ناحية الإدانة والحكم على الآخرين، سواء كان ذلك بسبب العرق، أو العقيدة، أو اللون، أو النوع الجنسي . وأول شيء يجب تأكيده بالنسبة لكل منا، هو قيمتنا، كأشخاص، في نظر الله. فكثيراً جداً ما نجد الشخص الأعزب في الكنيسة، أو الشخص الشاذ جنسياً، أو المطلقة أو الأرملة، وقد شعروا أنهم يدفعون إلى هامش الشركة المسيحية، بل وفي بعض الأحيان يُستبعدون بكل بساطة. وعلى ضوء تعليم سفر التكوين بالنسبة لصورة الله، فإن الخوف من الجنس (homophobia)، والرفض والسخرية، ووضع الناس في أنماط (قوالب) جاهزة، لا يجب أن يكون لها مكان في العلاقات المسيحية. بل، حتى حينما نقيِّم أسلوب حياة الآخرين، بأنه لا يتفق مع الإنجيل المسيحي، مثلما يفعل بعض المسيحيين، فيما يتعلق بالزواج ثانية بعد الطلاق، في بعض الحالات، فعلينا أولاً أن نتذكر كلمات ربنا عن " القذى " و "الخشبة " (في مت ٧: ١- ٥) ، وأن لا تظهر الصورة الإلهية، في أحد منا، مشوهة.

ثانياً : يؤكد ما جاء في (تك٢) على حياة الجسد . فنحن أشخاص لهم أجساد، ونشاطنا الجنسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتركيبنا الإنساني، الذي يشكِّل جزءاً لا يتجزأ من شخصيتنا . ولذلك؛ نحن في حاجة إلى أن نذكِّر أنفسنا أن الإنسان يندرج تحت نوعين: فنحن إما أشخاص ذكور، أو أشخاص إناث. والفرق الذي استخلصه عالم النفس "يونج" Jung بين (animus) و (anima) (المذكر

في الأنثى والمؤنث في الذكر)، لا يقلل من التمييّز الأساسي في البشر، بين الذكر والأنثى . فالصفات البشرية - إذا جاز القول - هي ثنائية القطب . وإلا، سوف نقلل شيئاً من التنوع الغني لخليقة الله، ونفشل في الاعتراف بأهمية حياة الجسد؛ إذا سعينا للتقليل من أهمية التكامل الجنسي. فهناك من يدافعون عما يسمونه "أخلاق شخصية ذاتية" (personalist ethies)، والتي تحاول التركيز على الشخص ذاته، دون الإشارة إلى نوع الجنس، من حيث الذكورة والأنوثة . وهذا أقرب إلى الفصل الغنوسي بين " النفس " والجسد، على خلاف المفهوم العبري عن طبيعتنا، كنفوس أعطيت جسداً، وأجساد نُفخت فيها الروح .

ثالثاً: تؤكد هذه الأصحاحات أهمية العلاقات الشخصية، فليس جيداً أن نكون وحدنا. فنحن نحقق كياننا من خلال العلاقات المتبادلة. **وكما أن كيان الله ذاته، هو في الشركة الأقنومية، في إطار الثالوث المقدس، هكذا الحال أيضاً بالنسبة لصورة الله فينا، فلابد أن تكون من خلال الشركة الشخصية مع أشخاص آخرين.** والوحدة أو العزلة (Aloneness) ليست جزءاً من قصد الله في الخليقة. والزواج - كما سنرى بعد ذلك - هو إحدى الطرق، التي من خلالها، يمكن التمتع بالشركة الشخصية مع شخص آخر. ولكن، وكما توضحه لنا حياة الرب نفسه، ليس هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق كيان الإنسان. فحياة البتولية أو الترهُب لا تعني عدم وجود الحاجة إلى الشركة الشخصية أو امكانيتها، بل هي تتطلب بُعداً آخر للشركة والامتلاء. ومع ذلك، فنحن في الكنيسة المسيحية، لم نجعل الأمر سهلاً بالنسبة لغير المتزوجين، أو الذين لم يعودوا متزوجين بعد، أو بالنسبة لأولئك الذين تحولت زيجاتهم إلى صراع وليس إلى فرح فلم يجدوا هؤلاء ثراء الشركة التي خُلقنا لها جميعاً، والتي نحن جميعاً في حاجة إليها.

ومن بين مشاكل الذين يجدون أنفسهم عُزَّاباً على غير رغبتهم - فشل الكنيسة في أن تكون مجتمعاً للشركة الطاهرة الحميمة. ومن بين الأمور التي نحن في حاجة إلى استعادتها لمجتمعنا المسيحي، جمال الصداقة وقيمتها بروح الشركة المباركة، سواء بين الجنسين، أو بين أعضاء الجنس الواحد . وينبغي أن تكون كنائسنا مجتمعات للصداقة ؛ لتقف ضد كل السبل، التي من خلالها، تدفعنا الاتجاهات الحديثة لحياتنا وتفكيرنا إلى المزاج الفردي والنزوع إلى الوحدة. فقد خلقنا للمشاركة، وسواء كان ذلك في زواج وعائلة، أو في حياة العزوبة أو البتولية، أو الشركة، فنحن في حاجة لإيجاد طرق للتعامل مع حقيقة: أنه ليس جيداً أن نكون وحدنا.

رابعاً : إن التكامل الجنسي أبعد ما يكون عن سيطرة الرجل وخضوع المرأة. وصورة جنة عدن، كما أوضحنا مراراً، هي صورة المساواة ، ومع ذلك، كان ثمة اختلاف، وزمن طويل ، فقد أفسح المسيحيون المجال لمفهوم السيطرة الذكورية في العلاقات الجنسية، وهي أبعد ما تكون عن القصد الإلهي. وكما سنرى، يعطينا (تك٣) صورة للذكر المتحكم والأنثى المناضلة - ولكن هذه هي صورة التشوهات التي جاءت نتيجة الخطية. إذ يتكلم (تك١، ٢) عن المساواة الجنسية، والتبادلية، والفرح في الاختلاف.

خامساً: يصف (تك٢) الإنسان في مستويات كثيرة من الحياة: حياة بدنية ، وعاطفية، وفي إطار علاقة ما. وفي جميع هذه المستويات، تصطبغ الحياة بخواصها الجنسية المتفردة. وإذا كان حقاً ما نسميه "الصفة التناسلية" يتعلق بالزواج، فصحيح أيضاً أن غير المتزوجين ليسوا، لهذا السبب، أشخاصاً غير جنسيين Non - sexual) . فهناك "بُعد" جنسي (وليس فعلاً جنسياً) في علاقتنا الودية مع الرجال والنساء، سواء من نفس الجنس أو من الجنس الآخر، يحتاج إلى التعبير عنه بشكل صحيح ومبدع.[1]

سادساً: يرسم لنا (تك ٢) صورة للاحتفاء الجنسي، والسرور والمتعة في الحب الجنسي . فالتعبير "هذه الآن .. (٢: ٢٣) يعطي لمحة قوية عن متعة الجنس، وهذا ما نجده بعد ذلك في العهد القديم، في الكلمات الإيجابية عن المتعة الجنسية في (أمثال ٥: ١٨ ، ١٩) . وعلى الرغم من أن الكنيسة المسيحية، تبدو غالباً في مشاكل مع الجنس، إلا أن العهد القديم يخبرنا أن العلاقات الجنسية (في إطارها الصحيح) أمر طيب، يجب أن تكون مصدراً للبهجة ويلزم تأكيدها .

وأخيراً : يجد "الجنس" مغزاه في إطار الالتزام بالحب . وبالمقابلة مع ذلك، نجد . من ناحية- نظرة إلى الجنس تسلبه من كل "سر" Mystery، ولا تراه إلا كوسيلة للامتاع والإشباع الفردي. ومن الناحية الأخرى، هناك نظرة مفرطة في الرومانسية بالنسبة للجنس، لا تربطه سوى بمشاعر الإثارة

---

[1] هنا تتضح ضرورة التمييز بين مجرد فعل "التناسل" (وهو اللقاء الجسدي بين الرجل والمرأة)، وبين "الجنس" بشكل عام. "فالجنس" طاقة داخلية عاطفية تتدفق بالعطاء والإبداع والحب، وليست بالضرورة مجرد الممارسة الجسدية بين الرجل والمرأة في فعل الحب بينهما (التحرير).

الجنسية، ولا تعترف بأهمية الإرادة في الحب الجنسي، بينما يضع الكتاب المقدس العلاقات الجنسية في نطاق الالتزام. فالفرحة في (تك٢ :٢٣) أعقبها مباشرة تعليق الوحي في (٢: ٢٤) . ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أوضح من القول بأن الزواج هو الإطار الخاص للمحبة الملتزمة، التي يلزم أن ينتمي إليها التعبير البدني الكامل للعلاقات الجنسية .



٩. الزواج

(تك٢: ٢٤)

" لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. "

إن المفهوم الكتابي المميِّز للزواج هو أنه "عهد". وتبادل التشبيهات التي تم التعبير بواسطتها عن عهد الله مع شعبه، كأنها علاقة زواج (انظر "هوشع") ، والتي يجب أن تُصاغ على غرارها العلاقة بين الزوج وزوجته (انظر ملا ٢: ١٤)، يمكن أن نتتبعها في أرجاء العهد القديم كله - وهي الأساس لكثير من تعاليم الزواج في العهد الجديد (انظر أف ٥: ٢١ - ٣٣).

و"العهد" يبدأ بوعد من الشريك لشريكه، وهو يتضمن قبول الآخر لهذا "الوعد"، وقطع العهود وقبولها يكون علانية، كما يكون الاعتراف بها علنياً أيضاً، كعلامة على هذا العهد

(أو الأقرار بها). وبعد ذلك، يصبح هذا العهد الخارجي القانوني، هو الإطار الذي تنمو فيه العلاقة القائمة على هذه الوعود. وهكذا، فإن "للعهد" إطاراً خارجياً اجتماعياً وقانونياً، كما أن له قلباً داخلياً يقوم على أساس العلاقة الشخصية .

و"عهد" الزواج أيضاً له بُعد اجتماعي خارجي قانوني : فالزواج ليس مجرد ترتيب خاص بين شخصين - وإنما يبدأ ترتيباً اجتماعياً، يقبل فيه الزوجان بعض المسئولية تجاه مجتمعهما الأوسع .

إلا أن أساس "عهد" الزواج هو العلاقة الشخصية المبنية على الحب الملتزم "وكل منهما هو للآخر" . (شكسبير) . إنها علاقة تنمو، وتتغير، وتنضج، بشكل نموذجي بمرور الوقت، وهكذا، يمكن أن يصبح الزواج هو الإطار الذي من خلاله يمكن أن تتحقق الكلمات التي قيلت عن علاقة الله مع شعب عهده في العهد بين الرجل وزوجته (الثبات، الحب ، الأمانة ، الغفران ، التضحية ، الصبر ، البركة ، الشفاء).

وكما يقول "جاك دومنيان" بكل جلاء في كتابه "الزواج والإيمان والحب" : إن الزواج الجيد، يجب أن يكون الإطار الذي يصبح فيه كل طرف بمثابة الوسيلة التي يجد فيها الآخر العون والشفاء والنمو في النضج."(١).

ويوضح لنا سفر التكوين الذي نحن بصدده ثلاثاً من الأرجل التي يقوم عليها عهد الزواج – وهو مثل المقعد ذي الثلاثة أرجل، كل رجل لها أهميتها : الترك، الالتصاق، "الجسد الواحد" .

و" **الترك** " يشير إلى إقامة عائلة جديدة مستقلة . ولا يتعين فقط أن يتطلب الأمن النفسي والعاطفي في إطار الزواج انفصالاً عاطفياً ومادياً عن الأب والأم فحسب، بل إن الزواج الجديد يُقام بطريقة علنية معروفة . وينبغي ألا يكون هناك أي شك في أن هذا الرجل بالذات، الذي ترك أباه وأمه، قد أصبح الآن زوجاً لهذه المرأة بالذات، وليس بأخرى . وعلاقة عهد الزواج تقوم على أساس عرف اجتماعي، وهذا هو السبب في أن الاحتفال به أمر له أهميته – فلماذا نهتم بقطعة من الورق ؟ مثل هذه القيود الاجتماعية تستطيع أن تكون دعامة للعلاقات الشخصية، التي في أوقات الشدة قد تكون هناك صعوبة في الحفاظ عليها، دون هذه المسئولية الاجتماعية .

" **الالتصاق** " : هذه الكلمة تبرز أمانة العهد، وهذا هو المفهوم الأساسي للإخلاص للعهد. وهي تشير إلى أمانة ملتزمة، والتي يَعِد بها كل طرف الآخر، بأنه مهما كان ما يخبئه المستقبل، فإن الزوجين يتعهدان بمواجهته معاً . وهذا هو معنى الكلمة في اللغة القديمة " الوفاء " (Troth). فعهد الوفاء (Troth) كما يقول "ألثيوس" (olthuis) "هو التعبير الأدبي عن الحب". ويبدو أن للإخلاص في هذه الأيام سمة سلبية، وهو كثيراً ما يصل إلى مجرد كبح الشهوة، إلا أن مفهوم الإخلاص هو مفهوم إيجابي وخلّاق، وفعّال للغاية. وهو يغطي، على الأقل المستويات التالية.(٢)

١- <u>الأمانة للعهد</u>: الأمانة بالعهد بالحياة الزوجية، يدعمها الاختيار الحر. وهو قصد يتم التمسك به في السراء والضراء، حيث لن يسمح الزوجان للظروف أو الأحداث أن تحدد مستقبل علاقتهما . فالزواج يُقام على أكثر من مجرد المشاعر الرومانسية، **والأمانة للعهد تعني أنه حتى في أوقات الشدة، حين يبدو أن الحب قد احترق، فإنه ، بالإرادة القوية، يمكن إحياؤه .**

---

(١) J. Dominian, *Marrige, Faith and Love* (Darton, Longman and Todd, 1981

(٢) تبعاً لشرح هذا الموضوع في كتابه الرائع:
L. Smedes, *Sex in the Real World* (Lion Publicaing, 1982).

٢- **الأمانة لدعوة.** وعلى النقيض من الرأي الرومانسي، الذي لا يرى في الزواج إلاّ علاقة ود حميمة، يلجأ إليها الإنسان للإشباع الشخصي، وضد الرأي العرفي الذي ينظر إلى الزواج كمجرد وضع اجتماعي، **فإننا نحتاج إلى إحياء مفهوم الزواج باعتباره "دعوة" لأن يُعاش أمام الله، ومفتوحاً أمام ينابيع نعمته، ووسيلة، يمكن من خلالها، إظهار محبته القائمة على العهد.**

٣- **الأمانة لشخص واحد:** والأمانة، لا يجب أن تقوم على أساس وظيفي بحت: كالإقامة معاً، من أجل المظهر فقط، فالالتصاق هو أساساً التصاق بشخص آخر، والأمانة تتضمن التزاماً إيجابياً، بالنسبة إلى حرية هذا الشخص الآخر، ونضجه ونموه .

٤- **الأمانة لعلاقة واحدة.** وكما يقول لويس سميدس في المرجع السابق، "في قلب كل زواج حي تكمن العلاقة البهيجة الرقيقة المرهفة، وإن تخللها كثيراً بعض الألم، ولكنها أساساً مفرحة، لشخصين يتقابلان وجهاً لوجه في مقابلة شخصية. إنها التزام للسماح لنعمة الله - أثناء كل التغيرات والفرص، وخلال كل الأفراح والأتراح -أن تخلق في علاقة هذين الشخصين صورة لعهد محبته. وكما سبق لنا القول، فإن الله نفسه هو كائن في حالة من الشركة. وبالتالي، فإن علاقة الزواج يُقصد بها أن تعكس شيئاً عنه .

"جسد واحد".. هذه هي الرجل الثالثة التي يقوم عليها عهد الزواج، وهي تشير إلى الوحدة الشخصية للرجل مع المرأة (الاتحاد معاً)، على جميع مستويات حياتهما، الأمر الذي يتم التعبير عنه، وتعميقه من خلال العلاقة الجنسية . وعبارة "جسد واحد"، لا يقصد بها العملية الجنسية وحسب، مع أنه يتضمنها ، لكنها تشير إلى تلك الوحدة ، التي كانت في البداية قصداً، ثم تطورت تدريجياً، لتصير حقيقة مع الوقت، لعلاقة زوجية حسنة . وبذلك، يُضفي على العملية الجنسية معنى: **فقد قُصد بها أن تُعبرِّ عن إتحاد "الجسد الواحد" للرجل والمرأة، وتدعمهما ، بينما ينموان معاً أكثر فأكثر، في علاقة تعبرِّ عن شيء ما من الله .**

بل وأكثر من هذا، فقد تشير عبارة " جسد واحد " إلى الصلة بين الناحية الجنسية والخلق، والتي تجمع بين الزواج والحياة العائلية. ذلك أن علاقة " الجسد الواحد"، بين الزوج وزوجته، يمكنها أن تبرز في الجسد الواحد الخاص بطفلهما. فيُربط عهد الزواج العائلة على هذا النحو، حيث نستطيع أن نرى القصد الإلهي في أن تكون العائلة هي البيئة التي يُربي فيها الوالدان الأطفال ، وليس مجرد ولادتهم. وبعبارة أخرى، نقول إن العلاقة المتبادلة بين الزواج والعائلة (تك٢: ٢٤)

هي النموذج الذي قصده الله، والذي في إطاره يتحقق الأمر الذي صدر للخليقة: " أثمروا واكثروا" (تك ١: ٢٧ - ٢٨).

وعلى ذلك، فبينما نجد أن الهدف الأساسي للعلاقة الجنسية للإنسان، هو (قصدٌ) لخلق وحدة، للتعبير عن الشركة الشخصية بين شريكي الزواج، ولتعمقها، نجد أن هناك قصداً آخر، وهو قصد الإنجاب، لبناء عائلة.

فالزوج وامرأته يجب أن ينجبا - أي يأتيا بخليقة، نيابة عن الله الذي فيه تجتمع المحبة والقدرة على الخلق معاً. وهكذا، أيضاً، تجتمع معاً ناحيتا (الوحدة) و(الخلق) المتعلقتان بالعلاقة الجنسية الخاصة بالإنسان.

ولكن: هناك مضامين عديدة، بمقدورنا أن نستخلصها من كل هذا :

أولاً : إذا كان الجانبان (التوحيدي) و(الإنجابي) يرتبطان ببعضهما البعض، فعلينا إذاً أن نتوخى الحرص بالنسبة للممارسات التي تفصل بينهما. فبعض المسيحيين، يعتقدون أن هذا القصد الإلهي من الزواج (الإنجاب) يستبعد فكرة منع الحمل بُرمتها، الشيْ الذي لا يتفق مع إتحاد الناحيتين (التوحيدية) و(الإنجابية) معاً. ويبدو أنه من الممكن تماماً أن يُقصد بالزواج أن يكون إطاراً يرتبط فيه الحب والخلق معاً . فالزواج الحقيقي، يتقبل احتمال الأبوة، دون أن يستلزم إن يكون القصد من كل عمل جنسي هو نقل الحياة. والواقع أن تركيز (تك ٢) الأكثر أهمية، إنما هو على الناحية (التوحيدية) في علاقة الزواج . وحين يكون هذا سليماً، هنا فقط، يمكن للزوجين أن يقررا الطريقة التي يمارسان بها مسئوليتهما الخاصة من أجل حفظ النوع (الأمر الذي أشير إليه في ١: ٢٨) .

والآباء المسئولون، يستطيعون يقيناً أن يكونوا شاكرين لفوائد منع الحمل ، دون فصل الانجاب عن الحب . ومع ذلك ، هناك ممارسات أخرى، مثل التلقيح الصناعي بواسطة شخص متطوع ، أو نقل الجنين، ناهيك عن الأمهات بالنيابة ، والتي تفصل تماماً بين نشاط الانجاب و علاقة الحب بين الزوج والزوجة ، ولا تبدو هذه الأمور، قابلة للتبرير، على أساس الفكر اللاهوتي المتعلق بالنواحي الجنسية الذي سبق أن عرضناه له.

ثانياً : في ضوء ما سبق، نستطيع الآن أن نرى، بمزيد من الوضوح، السبب الذي حمل التقليد المسيحي على **أن يحفظ عملية الاتصال الجنسي في إطار واحد، وهو الزواج بين رجل واحد وامرأة واحدة، ولكي يرمز الجنس إلى التزام قائم على عهد ، ولكي يعمق علاقة الحب المخلص، فإن الأمر**

يتطلب إطاراً من الثبات والمصداقية - وهذا معناه الاستمرارية. فالجنس بدون علاقة، كما هو الحال في الأدب والفن الإباحي (Pormography)، أو الجنس في العلاقات الجنسية العابرة؛ كل هذا يفتقر إلى (المعنى) و(المقصود) من الإتحاد الجنسي. والواقع أن القديس بولس قد ذهب إلى أبعد من ذلك، فقال إنه حتى معاشرة زانية، يُعد دخولاً في عمل كان المقصود به أن يعبِّر عن علاقة اتحاد: "جسد واحد" دائمة (١كو٦: ١٢ - ٢٠).

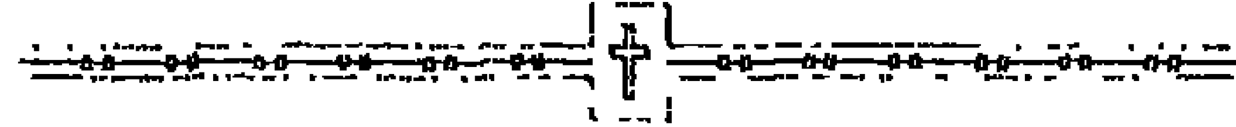
ثالثاً: وفي ضوء الرأي السابق؛ نستطيع الآن أن ندرك السبب في أن التقليد المسيحي لم يشعر إطلاقاً أنه قادر على قبول العلاقات الجنسية الشاذة (المعاشرة الجنسية لنفس الجنس). والعبارة التي قالها الخالق "ليس جيداً" أن يكون الرجل وحده، حققها بأن خلق له امرأة لتكمله وتؤنسه.

إن فكر الله بالنسبة للعلاقات الجنسية الخاصة بالإنسان، يُرى بكل وضوح، فيما عمله. فقد أمدّ آدم، الذي كان يعاني من الوحدة، بمعِين نظيره، وعلى عكسه، وذلك ليس في شخص رجل آخر، أو طفل، أو حيوان، بل في شخص امرأة. فمعاشرة الجنس الآخر المغاير، هو جزء من عطاء خليقة الله، لأنه احتفاء "بآخرية" (بغيّرية) الجنس المغاير. والتكامل بين الذكر والأنثى - مهما كانت الصعوبة التي تواجه سبل التعبير عنه - هو من واقع الحال. وهذا - على الأقل - هو مفهوم ما جاء في (تك٢). أضف إلى ذلك، الرابطة التي صِيغت بين معاشرة الجنس المغاير والإنسان، حيث يصعب علينا معرفة كيف يمكن تدبير العلاقات الجنسية الشاذة (إشتهاء الجنس المماثل) بأي شكل، سوى أنها تبعد تماماً عن النموذج الإلهي.

وشهادة الكتاب المقدس المستمرة، هي أن كل العلاقات الجنسية، خارج نطاق الزواج، بين رجل وامرأة، تفتقر إلى القصد الذي رسمه الله للزواج. ولذلك، لا نستطيع إقرار الرأي القائل بأن اشتهاء الشخص المثيل (كاللواط مثلاً) هو بكل بساطة أمر طبيعي. والواقع أن طبيعة نموذج الخليقة، هي التي كانت موضوع مناشدة القديس بولس في (رو١)، حيث ذكر العلاقات الجنسية الشاذة، ضمن أمور أخرى تسود المجتمع الذي تخلّى عن طُرق الله.

والكتاب المقدس يقدم لنا أسلوبين للحياة، فيهما، بالنسبة لنا - كمخلوقات جنسية - نستطيع أن نجمع شيئاً من محبة الله وإبداعه، وهما: البتولية، والزواج بين ذكر وأنثى. والعزوبة أو البتولية - كما توضحها حياة المسيح - تتيح للشخص الحرية في أن ينمّي صداقات خلاّقة من

المحبة في المجتمع ، يمكن أن تجد فيها الأبعاد الوجدانية (الحب.. العطاء.. البذل.. الإيثار.. إلخ) للجنس تعبيراً كاملاً ومناسباً. أما الزواج بين الرجل والمرأة، فيوفِّر إطاراً من المحبة الحميمة ، يمكن فيه للأبعاد التناسلية للجنس، أن تجد أيضاً تعبيراً مناسباً، في التزام، نحو إنسان من الجنس الآخر ، تعززها عاطفة الأبوة في كثير من الحالات .



١٠. عريانان . . . ولا يخجلان

تُختتم القصة الواردة في (تك٢)، بالقول بأن الرجل والمرأة كانا في الجنة "عريانين وهما لا يخجلان". لقد كانت هناك بينهما صراحة ووحدة، لا تتخفي وراء إثم ، ولا تشوّهها الشهوة، ولا يفسدها خزي . ولنا أن نفترض أن كاتب الوحي أراد أن يبرز هذه الحقيقة هنا؛ لكي يبيِّن حقيقة الخزي في علاقات الإنسان، والتي سرعان ما سنقرأ عنها في الأصحاح الثالث .

والحقيقة المحزنة بالطبع، هي أن ممارسة الجنس، بين رجل وامرأة، أحياناً، تتسم بالخوف، أكثر مما تتسم بالشركة أو المتعة، فتخرج تخيلاتنا الجنسية عن طوعنا، وتصبح مجالاً للذنب. وكثيراً ما يكون النشاط الجنسي وسيلة . لا للحب، بل لدمار الإنسانية والحط من قدرها . والآن، وربما للمرة الأولى منذ ظهور مرض الإيدز، أصبح علينا مواجهة التناقض الظاهري المخيف في مسألة الجنس، حيث الأسئلة الجديدة التي برزت نتيجة لهذا الوباء، ذلك أن قوة إعطاء الحياة الممثلة في الجنس، صارت من الممكن أن تجلب الموت أيضاً!!

وليس نشاطنا الجنسي فقط: بل كل أمر يمكن أن يجعل الإنسان شخصاً على صورة الله، قد تحطمت وانهارت. فالمجد، والجمال، والحرية التي كانت تتوفر في الجنة، لم تصبح من حقائق العالم الذي نعرفه. لقد أكلنا من الشجرة؛ وانحرفت كل حواسنا، وصار سلطان الإنسان على سائر الخليقة مشوهاً بالأنانية المستغلة. وأصبحت علاقته بسائر المملكة الحيوانية تتسم بالقسوة، بقدر ما تتسم بالعِشرة. وشاب علاقاته الإنسانية كلها الانحراف، وصار وجوده "وحيداً"، كما أن الحال لا يزال " ليس جيداً " . وصورة الحرية الجنسية والمرح، لا يمكن أن يُنظر إليها الآن، إلا باعتبارها نموذجاً نصبو إليه ونحن في رعب. لأن مأساوية القصة، تتمثل في أن مجازفة الله في خلق الإنسان، في حالة من الحرية، هي أن نفس هذه الحرية سيُعَّبر عنها الإنسان في عصيانه لله. والانفصال بين الشعب وإلهه، وبين بيئتهم، وبين بعضهم البعض، إنما أصبح يمثل حقيقة العالم، كما نعرفها ونختبرها، أو إن استخدمنا تعبير اللاهوتي "بول تيلش" Poul Tillich: (مأساة الانفصال الشامل) بين الله وخليقته، هذا الانفصال يشكل جزءاً من المخاطرة التي أقدم الله عليها، حين خلق العالم، مع إمكانية سقوط الإنسان. أما: لماذا أقدم الله على ذلك، مع أنه كان يعلم ما سيحدث؟! فهذا ما نضطر أن نتركه أخيراً، كأحد أسرار الله . ومع ذلك ، فما هو واضح بشكل لا يمكن التهرب منه ، هو أنه لا يمكن إطلاقاً قراءة (تك٢) الآن، إلا على أساس ما جاء في (تك٣) .



ثانياً: آدم . . . أين أنت؟!

(٣: ١- ٢٤)

إذا كانت صورة الجنة، بحسب ما وردت في (تك٢) تأتي إلينا، كما لو كانت منعكسة على سطح مرآة واضحة سليمة، إلا أن هذه المرآة نجدها في (تك٣) قد تحطمت إلى ألف قطعة . ولا تزال كل قطعة صغيرة تعكس شيئاً من الجمال السابق، أما الآن، فقد تهشمت الصورة، وتشوهت المناظر، وأصبح من الصعوبة أن نرى الأشياء كاملة. فالعالم الذي نراه عبر المرآة المهشمة في (تك٣)، لم يعد عالماً عادياً . فكل شيء غامض، ولا يمكن أن يُقال عن شيء بعد أنه " حسن جداً" .

وإذ نرى أن الأصحاحين الثانى والثالث لا يمكن الفصل بينهما، فإنهما يعرضان لهذا الغموض ويكشفانه بالتحديد، حيث روعة حياة الإنسان، ومع ذلك مأساتها.. ثراء الحياة، ومع ذلك موتها.. فرح الشركة الإنسانية، ولكنها دائماً مكسوَّة بالعار.. وكلمة الله الخالق تُسمع الآن على أنها لعنة، بدلاً من أن تكون بركة. لذلك، يأتي هذا الأصحاح، ليسبر غور هذه الأسئلة، حتى جذورها، في سر الله ذاته .

١. الحيـة

(٣: ١- ٥)

"١ وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنّة. ٢ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. ٣ وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. ٤ فقالت الحية للمرأة لن تموتا. ٥ بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. "

يبدأ (تك٣) بالتجربة التي اختبرها كل من المرأة والرجل، من جهة عدم الثقة في الله وبتدبير غامض، جاء صوت التجربة للإنسان، من خارج نفسه، ومع ذلك، فقد جاء من الخليقة. فالشر كان مزمعاً أن يُوجد في جنة الله، فنحن نقرأ الآن عن شيء "شرير" في داخل بناء العالم المخلوق، وفي نسيج كون وصفه بعض العلماء، بحسب عبارات علوم الطبيعة، على أنه نسيج من الفرصة والحاجة، في إطار "جنة"، بداخلها ، كان الله نفسه مستعداً أن يتقبل مخاطر حرية الإنسان.

وقد وُوجه الجنس البشري بموضوع اختيارهم، الذي هم مسئولون عنه. فكان جزء من حرية الجنة، هو حرية عدم الثقة في الله!! وما أن انتُهِج هذا النهج - الأمر الذي توضحه قصة الأصحاح الثالث - إلاّ وتبين أنه كان خياراً ضد كل حرية أخرى كانت لنا في شركتنا مع الله، فأصبحت حرية عدم الثقة في الله مدخلاً لفقدان الحرية نفسها. وقد وُوجه الإنسان بذلك الاختيار، من خلال صوت الحية المغري.

وكثيراً ما اعتُبرت الحية رمزاً للشيطان- ويتحدث سفر الرؤيا عن الشيطان بأنه "الحية القديمة" (رؤ٢٠: ٢). ولعله كان هناك "شر" خارق للطبيعة، يقف وراء صوت الحية المغري. ولن نجد صعوبة في تصديق ما عُبر عنه بوضوح بالغ، في مواضع أخرى بالكتاب المقدس ، بأن هناك قوة من الشر في العالم، في حالة حرب مع الله . ولا يقتصر ذلك فقط على الثقافات التي تؤمن بمذهب

الأرواحية (Animism)[١]، حيث تسيطر عبادة الشيطان على حياة الناس بقوة خانقة، فهناك جماعات الساحرات في لندن وبرمنجهام، ومن يعبدون الشيطان من سكان الضواحي وكروت التاروت Tarot، وكذلك ألواح اليوجا في محلات لعب الأطفال، وما إلى ذلك. وبالنسبة لأي شخص، تبدو له هذه الأمور، وكأنها متعة لا ضرر منها، فهناك آخرون ممن أُضيروا في صحتهم العقلية، وتمزقت علاقاتهم، كما أن طريقهم إلى سلام المسيح وفرحه، قد تكدست فيه النفايات الشيطانية.

وهناك الكثير من الكنائس، تجد رعاتها يُستدعون، بين حين وآخر، لخدمة أولئك الذين تملكتهم قوى خفية، وخدمة الخلاص المسيحية تعلن قوة المسيح وانتصاره على " الرياسات والسلاطين " في السماويات (كو٢: ١٥).

والأمور الشيطانية، لا تُوجد فقط لدى العرافين والسحرة وعبدة القوى الخفية - بل تُوجد أيضاً في القوى الهدامة في المجتمع، الممثَّلة في النُّظم التي تصيبه بالشلل، وكذلك في الافتراء والكذب والخداع، ومحاولة القضاء على الآخرين، الأمر الذي نجده سائداً في ثقافتنا الحاضرة، حيث إلقاء اللوم على الآخرين، في النزعة العدوانية، وقانون مواجهة العدوان بمثله، والثأر الذي يشوّه الكثير من حياتنا. وهذا ما يُرى أيضاً - طبقاً لما ذكره القديس بولس - في الخلافات والزيف، وهو الأمر الذي تعاني منه الكنيسة (انظر ٢كو١١: ١٢ - ١٣). فالشيطان كما يقول كتاب "هال لندساي " Hal Lindsay حي، ونشيط على كوكب الأرض.

ولكن الحية لا تظهر للمرأة في صورة شيطان، فصوت التجربة لم يأت كصوت للشر، وإن كان الشيطان موجوداً في القصة (تك٣)، إلا أنه كان يضع قناعاً سميكاً، فهو يختفي في صورة كائن عادي، رؤيته مألوفة يومياً في الجنة.

ولا تظهر الحية في هذه القصة، على اعتبار أنها سبب سقوط الإنسان، بل هي الوسيلة التي من خلالها كمن واجه الإنسان حقيقة ثقته في الله.

ومن أجزاء أخرى من الشهادة الكتابية، قد نرغب في أن نميّز صوت المجرِّب، بأنه صوت الشيطان عدو الله، والواقع أنه في التشبيه المجازي للجنة في (تك٣)، فإن الصورة هي لصوت من خارج الزوجين البشريين: حيث هناك عالم شرير بالفعل. ومع ذلك، فإن هذا الأصحاح، سرعان ما

---

[١] مذهب حيوية المادة : الاعتقاد بأن، لكل ما في الكون، بل وحتى الكون ذاته، روحاً أو نفساً. أو الاعتقاد بأن الروح أو النفس هي المبدأ الأساسي المكوِّن والمنظِّم للكون (التحرير).

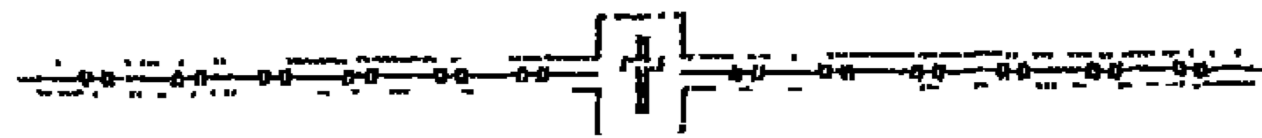
يحذِّرنا من التملص من مسئولية سقوط الإنسان، ونفضها بعيداً عنا . فالواقع، هو أن ميلنا الدائم لإيجاد أسباب لخطيتنا في مكان آخر غير قلوبنا، هو ميل قد ظهر أولاً في رد المرأة على الحية.

ولذلك، نحن في حاجة لأن نعرف بوضوح ما تقوله هذه القصة، ولا نسأل أسئلة لا تعرض لها، فالقصة ترفض أن تُسأل : كيف دخل الشر إلى العالم ؟!

وحين نُواجَه بالألم والإحباط ، وعندما نسمع بحروب وأخبار حروب، وحين يموت المئات غرقاً في البحر ، والآلاف من الجوع، والملايين في الحروب ، وحين يُواجه الناس الطيبون بأمور رديئة ، وفي الوقت الذي يبدو فيه الأشرار مزدهرين، وحين يسمح الله لنا بأن نطوِّر عجائب التكنولوجيا، كي يصل الإنسان إلى الفضاء الخارجي، دون أن يمنع حلقة مطاطية متجمدة في جهاز إطلاق الصاروخ من أن تفجِّر المشروع كله فيصبح حطاماً ، وعندما نرسب في امتحان ما ، أو نفقد وظيفتنا، أو يحيق بنا ظلم؛ هنا تصرخ قلوبنا إلى الله : لماذا؟! لماذا ؟! لماذا تتخلى عنا ؟! لماذا تسمح بحدوث ذلك ؟! لماذا يوجد هذا الشر في العالم ؟ ومن أين يأتي ؟!!

لكن المسيحيين يعرفون دائماً أن مثل هذه الأسئلة، تشكل أعظم التهديدات على إيماننا بصلاح الله. فنبحث عن أسباب لنفسر بها: لماذا تجرى الأمور على هذا النحو؟ ونلقي بالتبعة على إرادة الإنسان الحرة، والاختيارات الخاطئة التي يفضلها، أو ربما نحاول إلقاء التبعة على خلفيتنا الاجتماعية أو على أسلافنا ، أو جيناتنا الوراثية (genes)، أو نلقي باللوم على الشيطان وأجناد الشر الروحية . أو نلقي باللوم على الله نفسه : فإذا كان الله كلي الصلاح، فلماذا يسمح بهذه الفوضى؟!! ولو كان كلي القوة، فمن المؤكد أنه كان بوسعه أن يمنع ذلك!

ولكن (تك٣) لن يساعدنا في بحثنا عن أسباب ذلك، وهو لا يقول لنا من أين يجيء الشر، ولن يسمح لنا بإلقاء التبعة على أي سبب خارجي . فالحية، بكل بساطة، تواجهنا بموضوع مسئوليتنا نحن، وكيفية استجابتنا لكلمة الله . وأما أصل الشر فقد تُرك كامناً في سر الله .



٢. تحليل التجربة

لقد بدأت تجربة السقوط، تتأصل في قلب المرأة، وقد استهلت الحية الحديث فيما بدا أنه مناقشة عن الله لا ضرر منها. ولم تنكر الحية صلاح الله، وكل ما فعلته هو أنها غرست بعض بذور عدم الثقة الصغيرة . وهكذا دائماً لا تظهر الحية بمظهر الشر المجسم على الإطلاق، حتى لا نكتشف ذلك، فنتجنبها.

فالحية بكل بساطة، تنتقل من معرفة المرأة بصلاح الله؛ كي تزرع في قلبها الشك من ناحية النهي الوحيد الذي أصدره الله، والذي يمس حرية الإنسان . وقد فعلت هذا، بأن شوَّهت، بدرجة ضئيلة، الكلمة التي كانت تتضمن بين ثناياها هبة الحرية (تك٢: ١٦)؛ كي تضفي عليها ما يُوحي ببخل الله : " أحقاً قال الله لا تأكلا (من كل) شجر الجنة ؟"، إذا كان الله سخياً حقاً، وبالدرجة التي نعتقدها، وإذا كان يهتم فعلاً بخيرنا؛ فمن المؤكد أنه لن يحرمنا من هذا الأمر البسيط المتمثل في شجرة واحدة " جيدة للأكل " و " بَهجَة للعيون ". فالله يعرف أننا في حاجة إلى الطعام، وهو يريدنا أن نسعد في عالمه . ومن المؤكد أنه ما كان يقصد أن يحرمنا من هذا الشيء الواحد!!

وإذا شرعنا نضع أقدامنا على هذا الطريق؛ سنجد أنفسنا، وقد قطعنا فيه بالفعل شوطاً كبيرا. لقد منع الله الإنسان من أن يأكل من ثمر هذه الشجرة، وذلك أنه. إذا جاز القول وضع سياجاً حول هذه المنطقة، فقط، من الحياة، كحد لطاعة الإنسان؛ ومن ثم، من أجل خير الإنسان وحريته . وما أن نشرع في مناقشةٍ مع المجرِّب حول ما قصده الله حقاً، إلاّ ونكون قد وضعنا أنفسنا في وضعٍ يصبح الهروب منه في غاية الصعوبة، وكما كتب " هيلموت تيليك" Helmut Thielicke:

"تضع الصلاة الربانية كل الأهمية على أن تعلمنا أن نتضرع إلى الله، قائلين : "لا تدخلنا في تجربة"، لا تسمح، حتى، بأن نقع في موقف صعب، هذه طلبتنا بالدرجة الأولى. ومما له دلالته، أن الالتماس لا يقول : " أخرجنا من التجربة " (حالما نقع فيها) ، بل بالأحرى :" لا تدخلنا في تجربة " . وما أن نقترب من الشجرة، إلاّ وتبدأ قلوبنا في الخفقان السريع، وتلتهب غريزة حب الاستطلاع فينا، ويثور شغفنا . وفي موقف كهذا، تُشل قدرتنا على اتخاذ القرار السليم."(١).

(١) H. Thielicke, *How the World Began* (Eng. tr., James Clarke, 1964) p.130.

إن التجارب تبدأ بالأمور التافهة. وإلا، كيف يمكن أن يبدأ مثل هذا السقوط العظيم بحادث بسيط كهذا ؟! وبواسطة قطعة صغيرة من الثمرة المُنهي عنها؟!

من المؤكد أن العالم كله لن ينهار بسبب شيء تافه كهذا . ومع ذلك، فكثيراً جداً ما تعتمد حياتنا الروحية، ومصيرنا، على شيء وحيد في حياتنا يسد طريقنا إلى الله . وبالنسبة لكل واحد منا، فإن الله، الذي يعطي كل شيء بسخاء، كي نتمتع به ، يطلب منا أيضاً أن نثق فيه. لقد لمست الحية المرأة في الشيء البسيط التافه الوحيد في حياتها، الذي لم تكن مستعدة أن تضعه في يد الله . وهكذا الحية، تلمسنا في الشيء الوحيد في حياتنا، الذي نفضل لو أن الله لم يزعجنا بشأنه، فنحن على استعداد لأن نعطيه أي شيء آخر، ولكننا سنحتفظ لأنفسنا بهذا الشيء الوحيد من حياتنا .

وقد عبَّر "ثيليك" Thielicke عن هذا أبلغ تعبير عندما قال :

"لكن ، هذا هو ما يحدث، ما يحدث حقاً - في حياتك وفي حياتي . والواقع أننا جميعاً لدينا مساحات في رقعة حياتنا، نحن قانعون تماماً بأن نتركها لله . غير أنه لدى كل منا أيضاً نقطة لا نسمح لله، بأية حال، أن يقترب منها . وهذه النقطة قد تكون طموحي، حيث أطمح في أن أشق طريقي إلى النجاح، مهما كان الثمن . وقد يكون الأمر متعلقاً بحياتي الجنسية، والتي صممت على أن أطلق لها العنان، أياً كان ما يحدث، ومهما كلفني الأمر. أو قد تكون كراهية أغذيها تجاه أحد زملائي من الرجال، مما يعطيني متعة نفسية؛ الأمر الذي يقف بيني وبين الله، ويسلب مني سلامي . إن الله - كما أعتقد أو أريد - يستطيع أن يأخذ مني كل شيء، ولكن ليس هذا الشيء بالذات."[1]

إن عادة ما، أو بعض الممتلكات، أو خطية سرية، أو عداءً مريراً، في كل مجرى حياتنا- قد يبدو أمراً ضئيلاً، ومع ذلك، فإنه عند هذا الشيء الضئيل بالذات تُمتحن ثقتنا في الله . وإذا لم ندع الله، أن يكون هو الله، في هذه النقطة الوحيدة الصغيرة التافهة، والتي مع ذلك، تُعد نقطة حاسمة، فإننا في الواقع لا نثق به إطلاقاً، حين يتطلب الأمر هذه الثقة .

لذلك، كتب "جورج ماكدونالد" George MacDonald يقول: "كلا، ليس ثمة مفرّ. ليست هناك سماء بها قطعة صغيرة من الجحيم - وليس هناك مجال للاحتفاظ بهذا الشر أو ذاك في قلوبنا أو جيوبنا . فلابد وأن نطرح الشيطان خارجاً ، ونبعده عنا تماماً .".

---

[1] مرجع سابق: Thielick, p.134.

لقد كانت تجربة الحية للمرأة تهدف إلى أن تحملها على الشك في كلمة الله، ويبدو من سياق الكلام، أنه كان من غير المعقول أن يصدر الله هذا النهي الصغير الوحيد. لقد هزّت الحية إيمان المرأة وثقتها في الله، بأن دفعتها إلى الاعتماد على منطِقها، وبذلك أوجدت ثغرة بينهما، سرعان ما ستستغلها، وتدخل منها بكل قوة. وفي الجنة (بحسب ما جاء في الأصحاح الثاني) ، لم يكن هناك فجوة بالطبع بين الإيمان والعقل – لأن التفكير على أساس الإيمان، يحملنا على التمسك بالله في طاعة لكلمته، حتى حين تكون تلك الكلمة غامضة. ذلك أن منطق الإيمان، يعترف أنه توجد بين السماء والأرض أشياء سرية، تخص الرب وحده. ومنطق الإيمان أيضاً، ينظر إلى أعلى، شاكراً الخالق، عالماً بأنه " كما علت السموات عن الأرض، هكذا علت طرق الرب عن طرقنا وأفكاره عن أفكارنا". ومنطق الإيمان كذلك، يعرف الله بالالتزام بالثقة فيه، وبالمشاركة في حياته، والدخول في شركته، واختبار محبته. غير أن الحية، قد وضعت كل هذا موضع الشك، فهي بإغرائها حواء، بالأمل في أن تحصل على معرفة تماثل معرفة الله – معرفة الخير والشر؛ فإن الحية بذلك. تكون قد خلقت الشك بالنسبة لحدود معرفتها كمخلوق.

أما المرأة، فإذ أغفلت الاسم الإلهي الحميم " يهوه": (Yahweh)، وأشارت ببساطة إلى الاسم الذي ربما يكون أكثر بُعداً " الله " (God)؛ فإنها بذلك قد تقبلت قدراً من اقتراح الحية. ثم أضافت هي بنفسها لما قاله الله. (كثيراً ما يكون هذا خطيراً مثل الحذف)، (انظر رؤ ٢٢: ١٨ ١٩ ؛ في تك ٢: ١٦). كلمات قد تُظهر الله قاسياً بعض الشيء : " وأما ثمر الشجرة ..... لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا " (٣: ٣).

وهكذا، بدأت الحية في دفع المرأة لمسافة أخرى قليلة في طريق الخطأ، حيث شككت حتى بالنسبة ليقينية الموت : " لن تموتا " "بالتأكيد لن تموتا"، وإذا تحفزت عواطف المرأة بمنظر الشجرة " البهجة للعيون"، واستجاب عقلها (تنفتح عيونكما فتصيران .... عارفين ....) (تك ٣: ٦)، وهنا تساءلت : على كل حال، ربما لا توجد وسيلة لإشباع المعرفة، يمكن الحصول عليها، عن طريق الانفصال عن الله وكلمته، معرفة أستطيع بها أن أقيِّم الادعّاء بحقه في السيادة على حياتي، معرفة تتميز بأنها تتضمن أساساً محايداً، يمكن الوقوف عليه، حيث أستطيع أن أقيِّم الله ومدى نفعه لي!!

ولكن، ما أن أصل إلى هذا الفكر؛ إلا وأكون قد تخليت بالفعل عن ثقتي به. لقد شرعت أفصل نفسي عن إمكانية المعرفة الحقة عن الطريق المشتركة. لقد أبعدت نفسي عن ينبوع الحق والحياة.

في نموذج "إيرك إيريكسون" Erik Erikson عن نمو الهوية الشخصية للطفل، نجد أن المرحلة البالغة الأهمية والحساسية لنمو الطفولة هي المرحلة التي ينجح فيها الطفل أو يفشل في اختبار "الثقة الأساسية " (basic trust). فهل بيئة الطفل، من حيث الرعاية الأبوية، جيدة بما فيه الكفاية، ليكون الطفل قادراً على أن ينمّي قدرته على الثقة؟!

إن عدم "الثقة الأساسية"، هي جوهر الاضطرابات التي تحدث أثناء كل المراحل الحساسة الأخرى من النمو العاطفي، ونمو العلاقات بالآخرين . ومن المؤكد أن هذه هي الصورة التي نحن بصددها هنا، فقد انتقل المجرِّب من زرع بذور الشك في مصداقية الله " أحقاً قال الله . .؟، " إلى إلقاء الشك في صدق كلمته (لن تموتا) . وهذا الاستخفاف بشخص الله، هو جوهر كل الاضطرابات التي ستأتي بعد ذلك في القصة، فابتداء من تلك اللحظة، أفسحت التجربة الطريق للعصيان، وعندئذٍ، اختبر آدم وحواء قوة الخطأ في حياتهما. لقد انفتحت أعينهما، ثم عرفا شيئاً عن الخير والشر. ومعرفة الخير،كما قال الشاعر "ميلتون" Milton : "كلفتها غالية، إذ عرفا الشر"[١]

ولسوف يضطران إلى مواجهة الله، ولكن في ظروف مغايرة عما كان في السابق. وهنا، علما أنهما عريانان .



[١] من ديوانه الشهير : "الفردوس المفقود" Paradise Lost, II

٣. تحليل السقوط

(٣: ٦ -١٣)

"٦ فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل .٧ فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان . فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر .
٨ وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. ٩ فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت. ١٠ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. ١١ فقال من أعلمك أنك عريان . هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها . ١٢ فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. ١٣ فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت . فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت."

أ. الطاعة.. تصير عصياناً!

وبينما كان قصد الله هو أن ينمو شركاؤه من البشر في معرفته، على أساس الطاعة المبنية على الثقة، إلا أنهم قرروا أن تزداد معرفتهم به على أساس التمرد والاحتجاج .

هناك فنان رسم لنا صورة المرأة، وهي واقفة مستغرقة في التفكير أمام الشجرة، تفكّر فيما عساها أن تقرره . ويأتي (العدد ٦) كنقطة أساسية لهذه القصة كلها (٢: ٤- ٣: ٢٤) - وهي تمثل النقطة الحاسمة فيها .

وبعدئذٍ- كما يقول " فون راد" Von Rad، تندفع المرأة . ومعها نحن كذلك . إلى كم كبير من الانفعالات الجيّاشة، فالشهوة الحسية الفظة "جيدة للأكل "، ومتعة حب الجمال " بهجة للعيون "، والإغراء العقلي " شهية للنظر " (أي تجعل الإنسان بصيراً، أي حكيماً)، كل هذه نجد لها نظيراً في

العهد الجديد : " شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة " (١يو٢: ١٦). ولذلك "**رأت**"، و " **أخذت** " و " **أكلت** " و " **أعطت** ". ولعله - كما يشير وينهام Wenham - كانت ثمة اقتراحات بخصوص اختيار الأفعال، بأن المرأة كانت تغتصب امتيازاً خاصاً بالله ، فلآخر مرة نقرأ "ورأى الله ذلك أنه حسن"، والفاعل في هذه الجملة هو "الله". أما هنا، فالفاعل هو المرأة التي رأت " أن الشجرة جيدة " . وكان الله هو الذي " أخذ " الرجل والضلع (تك٢: ١٥ و٢١- ٢٣)، أما هنا فالمرأة هي التي " أخذت"[١] .

إن هذه المرأة التي ضلت، أصبحت الآن مصدر التجربة لشريكها. لقد أصبح شريكاً لها في الخطأ، والواقع أن عمله كان " آخر عمل حاسم للعصيان"[٢].

ومن أسهل الطرق المؤدية من التجربة إلى الخطية، هو طريق إرضاء الذات، بشكل فوري . لقد " رأت .... أخذت .... " . ويعرفنا طريق الطاعة، أن نفسح مكاناً داخلنا، في ضوء حق الله؛ كي نفكر فيما "نراه" مغرياً على هذا النحو، وأن نجعل رغباتنا متمشية مع ما نعرفه عن محبة الله وجماله، ونؤجل إرضاء أنفسنا، حتى نتبين بجلاء ما يطلبه الله منا.

إن طريق العصيان يضع سعادة فورية أمام النتائج المرتقبة، ويضع مفاهيمنا الخاصة، عما هو جيد لنا، في مقابل ما قاله الله لنا عن أنفسنا وعن عالمه. فالخطية هو الاسم الذي أطلق على ذلك الانفصال عن الله، والذي يبدأ بنبذ الثقة في صلاح الله ومحبته الله.

ب. الانفتاحية.. تصير خجلاً!

نقرأ في (تك٢: ٢٥) أن آدم وزوجته "كانا عريانين وهما لا يخجلان". أما في (تك٣: ٧) فقد كان هناك "خجل"، وهو شعور بالقلق تحس به في أعماق كيانك . فكونك غير قادر على أن تكون مستريحاً مع نفسك، على ما أنت عليه، ومن ثم، فهذا معناه أنك لا تكون مستريحاً في وجود طرف آخر : هذا هو الخجل .

ونحن نقرأ في (العدد ٨) أن الله كان يتمشّى في بداية المساء في أرجاء الجنة، وكما يقول وينهام: "لعلها كانت عادة، تتضمن حديثاً يومياً بين الله القدير ومخلوقاته . وهنا أيضاً نجد علاقة

---

[١] مرجع سابق، Wenham, p.75

[٢] المصدر السابق، ص ٧٦.

حميمة بين الله وعالمه- وهذه هي شركة الخليقة . ومع ذلك ، فبدلاً من أن يكونا آدم وامرأته هناك للتمتع بشركة الله في انفتاحية وراحة، نراهما يختبئان في خجل!!

ويعلق على ذلك "بونهوفر" Bonhoeffer قائلا:

" حينما يقبل أحدنا الشخص الآخر، على اعتبار أنه الرفيق الذي أعطاه له الله ، وحين يقنع بمعرفة نفسه . كمن يبدأ من الآخر وينتهي به ، وينتمي إليه؛ لا يتملك الإنسان الخجل. وفي حالة الطاعة التي لم تنتهك، يكون الإنسان عريانا في حضور الإنسان، دون غطاء، كاشفا جسمه ونفسه، ومع ذلك لا يشعر بالخجل . فليس للخجل وجود إلا في عالم منقسم."[١].

ومع ذلك، أصبح عالمنا عالم انقسام. فنحن لم ننفصل عن بعضنا البعض فحسب، بل انفصلنا عن أنفسنا. ومن بين الأسباب الكامنة وراء صور كثيرة من حالات القلق والكآبة، والتي تجعل عالم الطب النفسي والمشورة مشغولا للغاية، هو فقدان الشعور باحترام الذات . فالناس يشعرون بانعدام قيمتهم؛ ومن ثم يصبحون بائسين، فهم لم يسمعوا كلمة المحبة الأكيدة القوية : " على صورة الله خلقه! ". بل تراهم يكتبون بكل ثبات، على أجهزة الفيديو والراديو، كعلامة للجودة " صنع في ". ولكنهم لا يحملون علامة التأكيد الأعظم من ذلك بكثير، وهي : " على صورة الله خلقه " (Made as the Image of God). (فهم يكرهون أنفسهم، ويرون أن الآخرين أيضا يكرهونهم، وهم يريدون أن يصنعوا مآزر، ليغطوا أنفسهم، ويختبئون وراء أشجار الجنة، ليهربوا. فهم غير مستريحين بالحالة التي هم عليها، لقد تملكهم الخجل) .

وعلينا الآن، أن نحرص على ألا نربط كل خجل شخصي بخطية شخصية معينة . كما يحدثنا سفر أيوب عن كآبة تملكت شخصا كان بارا . ولقد تم تحذيرنا، عدة مرات، في العهد الجديد، بألا نربط بين آلام شخص وخطيته (يو٩: ١- ٣ ، لو١٣: ٢- ٥) . ومن الطبيعي، أنه في بعض الأحيان، تكون خطية الإنسان سببا لعاره، غير أنه غالبا ما يكون الافتقار إلى تقدير الذات، مرجعه بالأحرى خطايا الآخرين . وبينما يتكشف لنا تحليل الخطية، عبر صفحات الكتاب المقدس، نرى كيف أن خطايا الآباء تفتقد في الأبناء - وكيف أن العلاقات المقطوعة في العائلات والمجتمعات، بمقدورها أن تسهم في حدوث أمراض الشخصية، وشعور الشخص بأنه قليل القيمة . ولكن الخجل أمر عادي، ويشكل جزءا من الحياة الشخصية كلها : فهو علامة على حقيقة أن الأمر لم يعد بعد " حسن جدا " في الجنة.

---

[١] مرجع سابق، Bonhoeffer,p.63.

ج. المسئولية.. تصير سقوطاً!

هنا، يُصوِّر الرب الإله كالقاضي الذي ينادي - كما في محكمة - يطلب توضيحاً : "فنادى الرب الإله آدم" (٣: ٩) .

ونحن البشر، علينا أن نتحمل مسئولية اختياراتنا، ومن الطبيعي أن الشخص الذي يختار، يكون مقيداً بجميع نوعيات المحدِّدات، شخصية كانت أم اجتماعية، فهناك أشياء ليس بمقدورنا أن نختار عملها إطلاقاً. فعلى سبيل المثال، لا نستطيع أن نختار أن نطير، لأننا محكومون بتكوين جسمنا. كذلك تُحد اختياراتنا بتركيبنا الوراثي، وبالخبرات التي تعلمناها في وقت مبكر من عمرنا، وكذلك بالبيئة الاجتماعية المحيطة بنا، وما إلى ذلك . فأنا ما أنا، إلى حدٍ ما، بسبب ما كان عليه والدايَّ، وما تعلمته عن الحياة منهما . ولذلك، فإن خياراتي قد تكون محدودة، غير أنه لا تزال لي حرية اختيار المدى الذي أتقبل فيه تعليمهم، سواء أتقبله أو أرفضه أو أعدِّله لنفسي، فأنا مسئول مسئولية محدودة بالنسبة للاختيارات التي اتخذها، ولا أستطيع أن ألقي باللوم على تكويني الوراثي، أو على والدايَّ؛ وليس بوسعي أن أتجنب مسئولياتي على نحو ما فعل آدم، إذ ألقى باللوم على حواء، أو كما عملت حواء، بأن ألقت اللوم على الحية. فإلقاء اللوم على الآخرين، هو من أكثر الأساليب الشائعة لتجنب المسئولية، أما رفيقها المستمر على الدرب فهو الإثم .

ونحن نستخدم كلمة "إثم" في عدة حالات مختلفة. ويُعرِّف الفيلسوف "مارتن بوبر" Martin Buber ثلاثة منها، يسميّها : "الإثم المدني" civicguilt، و"الإثم الشخصي" subjective guilt، و"الإثم الوجودي" Existential guilt .

و"الإثم المدني" يقصد به حالتنا، كمخطئين أمام القانون المدني . فإذا سرت بسرعة غير مسموح بها، على طريق سريع، أعتبر مذنباً في نظر القانون، وأكون مذنباً، سواء شعرت بذلك أم لا . ويقصد "بوبر" "بالإثم الشخصي"، الشعور بالإثم الذي نعرفه جميعاً تمام المعرفة. فحين أعتقد أنني في علاقة خاطئة مع شخص أو شيء أدين له ببعض الالتزام؛ هنا قد أدرك مشاعر القلق أو الألم التي ترهقني، وتعتِّم على حكمي على الأمور، وتشوّه فكري .

ومن الطبيعي أننا قد نكون مذنبين، دون أن نشعر بالذنب، حيث نستطيع أن نجعل ضمائرنا تتبلد؛ ومن ثم نسكِّن آلام الإحساس بذنب حقيقي الذي اقترفناه (وليس الإحساس المرضي بالذنب).

ومن الممكن أيضاً "الشعور بالذنب"، في الوقت الذي قد لا نكون فيه مذنبين . فمعظم المرضى باضطرابات الشخصية (Neuroties)، الذين يشعرون بالذنب، ويلتمسون علاجاً طبياً،

يتابهم في الواقع شعور خاطئ بالذنب، جاء وليد فكرة خاطئة عن أنفسهم أو عن سوء فهم لذواتهم. بل، إنه يبدو أن بعض الكنائس المسيحية، تبدي مهارة فائقة، في بعض الأحيان، في إثارتها لمشاعر غير ملائمة من الإحساس بالذنب لدى الناس. ففي بعض الأحيان يحث الوعَّاظ الشعب، بالإشارة إلى قدرتهم على "الشعور بالذنب". ومن المحزن، أنه في الغالب الأعم، تكون هذه الممارسات مع أناس ميَّالين بطبيعتهم العاطفية للشعور الخاطئ بالذنب، في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء الناس في حاجة إلى سماع كلمات القبول والنعمة والمحبة! ولا يشجِّع العهد الجديد الحث على "الشعور بالذنب"، الذي يركِّز على الذات، ويستقر في الوجدان، ويكون له في النهاية الأثر المدمر. أما الإقرار بأن "أغطية ساكنة" فيَّ (رو٧: ١٧ - ٢٠) ، فإنه يدل بالأكثر على الحزن على الخطية، الناجم عن التقوى، والذي يركز على الله وعلى القريب، ويُوجَّه لأجل تغيير بنَّاء ونمو إيجابي . فعلينا إذن أن نحذِّر من استغلال الإحساس بالذنب لدى الآخرين .

ثم يتحدث " بوبر " عن الذنب الوجودي (existential guilt)، وهو يقصد به الذنب الأخلاقي الحقيقي - سواء اعترفنا به أم لم نعترف - المتمثل في علاقتنا المتباعدة عن الله، فلم نعد بعد في شركة مع خالقنا، في جمال الجنة الذي لم يُشَوه . لقد تركنا البنوة المسئولة، بإخفاقنا في اختيار طريق الطاعة . أما صوت الرب الإله، وهو يتمشَّى في الجنة، في نسيم النهار العليل، لم يعد يُستقبَل بفرح لأن الرب يسعى للشركة معنا، بل أصبح يُستقبل كصوت تهديد! ونحن نحاول تجنب مسئوليتنا، بإلقاء اللوم على غيرنا، ونختبيء وراء الأشجار، خوفاً من محضر الرب الإله، ونرتجف خوفاً حين نسمع نداءه : " أين أنت "؟

إن اعترافنا بذنبنا الأخلاقي الحقيقي أمام الله، وتقبلنا لمسئولياتنا الشخصية، يُعد جزءاً من رحلتنا إلى الحزن النابع عن التقوى، والذي يؤدي إلى المغفرة ورد النفس والنمو.

ومنذ عصر رائد التحليل النفسي "سيجمون فرويد" فصاعداً، بدأ الكثيرون من المشتغلين بالعلاج النفسي في العالم، يرفضون أخذ الذنب الأخلاقي على محمل الجد. وكان العمل يقوم على أساس النظر إلى الطبيعة البشرية القائمة، إمَّا على أساس تحكم الغرائز البيولوجية، وإما على أساس السيطرة الاجتماعية على المحفزَّات السلوكية. ومنذ عهد قريب، تم الاعتراض على نموذج العلل البشرية هذا، سواء من ناحية التحكم أو من الناحية الطبية، وذلك في إطار عالم الطب النفسي. وثمة كتَّاب كثيرون، من أبرزهم " كارل مينَنجر " Karl Menninger في كتابه " مهما

كانت نتائج الخطية.[١] و" هوبرت مورر" H..Mowrer في كتابه " الأزمة في الطب النفسي والدين[٢]. قد فتحوا الطريق لتحدي النموذج الطبي، وقبول النموذج الشخصي المحض (وهذا يتضمن الناحية الأخلاقية) بدلاً منه. **لأننا لسنا آلات، بل نحن أشخاص بكل ما يتضمنه ذلك من غموض. فقد خُلقنا لنكون صورة الله، وأمامنا مهمة ومصير، ولدينا القدرة على الاختيار والمسئولية. كما أننا عرايا أيضاً، يتملكنا الخجل أمام الله، وأمام أقاربنا، حيث هناك خلل أخلاقي في طبيعتنا، يمكن أن نُحاسب عليه.**

د. الحرية.. تصير أسراً!

لم يكن أمام آدم وحواء أي مكان يلوذان الآن به، ولم يأت الله إلى الجنة؛ إلا ليستمتع بخليقته. كان يريد صحبتهما، ويرغب في أن يتمتع بحريتهما، غير أنهما مختبئان، ليس أمامهما سبيل للهرب. والأشجار التي كان القصد منها أن تكون مجالاً لحريتهما ("من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً "، تك ٢: ١٦)؛ أصبحت الآن مخبأ يستتران وراءه، وتحولت الحديقة إلى سجن، فقد وقعا في شراك خزيهما وإثمهما.

والخطية توقعنا أحياناً في فخها، بحيث لا يُتاح لنا أي منفذ صالح. وأحياناً، تُفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، الذين يصبحون في هذا الحالة مأسورين بنماذج سلوكية، أو استجابة عاطفية، أو حتى في حالات جسمية تلازمهم طوال حياتهم. وتصبح شجرة العائلة، شجرة من المرض الذي ينتقل من جيل إلى آخر. وما يسميه "بينكس" L. Pincus و"دير" C. Dare : " أسرار في العائلة "، من الممكن أن تكون أسراراً هدّامة مقيِّدة، وعادات وسلوكيات تسيطر على حياتنا بقوة.

كم تبدو الجنة مختلفة الآن، عن تلك الصورة التي عرفناها عنها في الأصحاح الثاني!! أين آدم، مدير أملاك الله، وحافظ حديقته؟!

أين آدم الذي أُعطي السلطان أن يمنح الحيوانات أسماء ؟!

أين فرحه في عناقه المرأة، حين قُدِّمت إليه؟!

أين الإنسان الذي خُلق على صورة الله؟!

---

(١) K. Menninger, *Whatever Become of Sin ?* (Bantam, New York, 1978).

(٢) H.Mowrer, *The Crisis in Psychiatry and Religion* (Van Nostrand, New York, 1961).

أين الإنسان الذي خُلق، لبشارك في فرح وراحة اليوم السابع، في عبادة خالقه والسجود له؟!

ويتردد السؤال: " آدم .... أين أنت "؟! هوذا آدم عريان، متمرد، في خزي، يشعر بالذنب، ويحاول إلقاء التبعة على غيره، خائف، ومختبئ خلف الأشجار!!

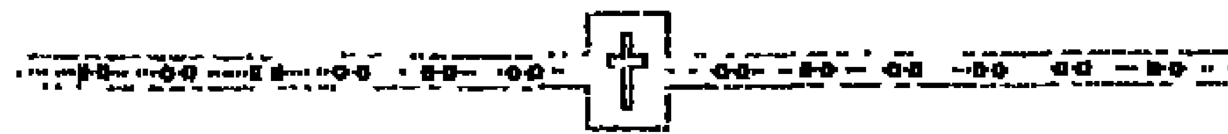
ويتساءل المفكّر "باسكال" Pascal متعجباً "أي نوع غريب من الخلائق إذاً هذا الإنسان؟! كم هو غريب! وكم هو بشع! ومشوش! ومتناقض! وكم هو عجيب في نفس الوقت! فهو المسيطر على كل شيء، وهو دودة ضعيفة! مستودع الحق، وبالوعة الشك والخطأ! مجد الكون وحثالته! وهو في حاجة إلى اللبس، والسلام، والطمأنينة، والغفران، والحب، والترحيب به ثانية!!"[١].

كم هو حسن (بكل ما في الكلمة من معنى) أننا نستطيع أن نقرأ (تك٣)، من خلال نظرة العهد الجديد . لأن فيه - كما أوضح ذلك القديس بولس، بكل جلاء - نتعلم أنه على الرغم من أننا "في آدم،" النائب الأكبر للبشرية، تحت سلطان الخطية، مما يجعلنا تحت عبودية الموت، فكم بالحري كوننا في المسيح النائب الأكبر للخليقة الجديدة، التي وُلدت من عطية النعمة، يعطينا الحرية ثانية للحياة (انظر رو ٥ : ١٢ - ٢١ ، ١كو ١٥ : ٢١- ٢٢ و٤٥- ٤٩) .

كم هو أمر طيب، أن نُخبَر عن شخص يقف في الثغرة، كوسيط، ومعه كلمة الخبر السار والغفران والمحبة والسلام وقوة قيامته ، تعيد الميت إلى الحياة ثانية، تلك الحياة التي يعلنها إنجيله وبواسطة المسيح. فمن خلال "آدم الأخير" يمكن أن تبدأ الحياة ثانية، وبواسطته، ينفتح الطريق مرة أخرى إلى الحياة . ومن خلاله ، بمقدورنا أن نعود لمعرفة خالقنا باعتباره أبانا ، وفي شركة جسده، يمكننا أن نبدأ ثانية في أن نصبح كاملين .

وعبارة " أين أنت " ؟ لم تكن حكم دينونة، بل كانت بصفة أساسية نداء حب، الأب يتطلع إلى ابنه، ويرحّب به ثانية إلى الوليمة.

ولكن هذا يأخذنا إلى جزء تال من القصة، بينما الأصحاح الثالث لديه، مع ذلك، أمور أشد قسوة، يريد أن يقولها لنا أولاً .



(١) Blaise Pascal, *Pensees* 111: contradictions .

٤. تحليل الانفصال

(٣: ١٤- ٢٤)

"١٤ فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. ١٥ وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. ١٦ وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. ١٧ وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. ١٨ وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. ١٩بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنك تراب وإلى تراب تعود.

٢٠ ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي. ٢١ وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما.

٢٢ وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. ٢٣ فأخرجه الرب الإله من جنّة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها. ٢٤ فطَرَدَ الإنسان وأقام شرقيّ جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف مُتقلب لحراسة طريق شجرة الحياة."

يصوِّر لنا (تك٣) التمزق الذي نجم عن الاختيار المُهلِك الذي اختاره الزوجان (آدم وحواء). لقد قيل لهما في (تك٢: ١٧) إنه يوم يأكلان من ثمر الشجرة يموتان. ويمكننا أن نرى نتائج هذا التهديد، في التمزق الذي أصبح جزءاً من الحياة. فقوة الشر التي استخدمت جزءاً من

خليقة الله، كصوت للتجربة، نلمسها في الحقيقة المذهلة، ألا وهي أن الإنسان يستطيع بإرادته أن يقف ضد سلطان الله! ونتيجة لهذا العصيان؛ وُصفت في قائمة المتاعب التي تشير إليها بقية هذا الأصحاح .

ويجب علينا ألا ننظر إلى هذه الأعداد، على أنها تشير فقط إلى المتاعب التي سيعانيها الإنسان، والتي تؤثر أيضاً على علاقاته، على الرغم من أن الأمر كذلك بالفعل . إن أقل الأمور وأكثرها خطورة وغموضاً على الإطلاق، هو أن هذه الأعداد نشير أيضاً إلى أمر تأثر به الله .

لأنه، كما أن كلمة الله هي التي حددت الإطار الأخلاقي للحياة في جنة عدن (تك٢: ١٦)، فإن الله هو الذي يعلن الآن الدينونة على الحية، وعلى الأرض، وعلى الرجل والمرأة . والانفصال الذي وقع، الآن، بين الإنسان وخالقه، هو الذي يشكّل أساس الانفصالات الأخرى التي نقرأ عنها . والذين يختبئون وراء الأشجار للاختفاء من صوت الله الفاحص الذي يستجوبهم، إنما يعانون تمزقاً في أعماق نفوسهم، كما أنهم سيعانون تمزقاً أيضاً في علاقاتهم بسائر النظام الطبيعي. فلم يوجد الآن مكان لم تلطخة الخطية، فأصبحوا الآن في غربة بالنسبة لله، ولم يعد هناك من ليس في حاجة إلى سماع كلمة تعده بالإنقاذ والتجديد وإتاحة فرصة البدء من جديد . غير أنه، قبل هذا وبعده، فإن معاناتنا في الابتعاد عن الله، تمثل الحقيقة الأعمق، وهي انفصال الله عما خلقه. وهذا ما ظهر في اللعنات، والتعب، والنفي، والموت؛ الأمور التي تلفت انتباهنا إليها هذه الأعداد التي تبعث على الكآبة .

أ. البركة.. تصبح لعنة!

قال الله للحية وللأرض: " ملعونة . . . . " (تك٣: ١٤ و١٧)، واللعنة هي عكس البركة. وقد أُخبرنا أن الله بارك الخليقة والإنسان بحياة مثمرة (تك١: ٢٢ و٢٨)، الأمر الذي يشير إلى أن البركة هي عطية الحيوية والإبداع . والحياة الحاضرة للخليقة برُمتها، إنما جاءت نتيجة بركة الله. كذلك بارك الله اليوم السابع وقدّسه (تك٢: ٣)، مبيِّناً أن الخليقة كلها مستغرقة الآن في إيقاع الإبداع والحمد . وثمة سخاء في البركة الإلهية، ووفرة في الحياة، في كامل ملئها، وفرح ومسرة . ولكن الكلمة هنا في الأصحاح الثالث هي " لعنة"، وهي تعبير عن دينونة الله، ودلالة على مأساة آتية. لقد عُكست البركة إلى نقيضها، وتحولت رقصة فرح الخليقة إلى لحن حزين، وأصبحت كظل يخيِّم على كافة الأشياء .

وبعد ذلك، وفي العهد القديم، نجد أن لعنة الله ترتبط بأعمال عصيان لشريعة عهده. فأن تكون تحت لعنة الله؛ فهذا معناه أنه عليك أن تحتمل دينونته، ومع ذلك، فإنها لا تبعدنا عن متناول يده . وكما أننا نستطيع أن نقرأ هذا الأصحاح في ضوء الامتيازات العظيمة التي يوفرها لنا صليب المسيح، بمقدورنا أيضاً أن نرى بعضاً من بدايات إعادة الخليقة إلى سابق عهدها، عندما " افتدانا المسيح من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا " (غل٣: ١٣) .

ب. الانسجام.. يصبح صراعاً!

ومن المظاهر الأخرى لتهشم العالم: تغير الأوضاع بين الجنسين. فبينما نقرأ في الأصحاح الثاني، أن الرجل والمرأة كانا على قدر المساواة، حيث يتبادلان الحاجة والعطاء، وكل منهما مكمّل للآخر، فإننا نقرأ في الأصحاح الثالث عن سيطرة الرجل، وخضوع المرأة . فقد قِيل للمرأة، إن رغبتها الجنسية ستصبح نزعة قوية مُلحِة، ربما رفعتها للسيطرة على زوجها لإشباع رغبتها. غير أننا نقرأ عن آدم قول الرب " وهو يسود عليك " . وهذه ليست "وصفة" إلهية بما يجب أن يكون، ولكنها وصف لما ستكون عليه الحال في العالم الساقط .

والآن فقط، أي بعد السقوط، أطلق آدم على زوجته اسماً، كما مُنح في الماضي سلطاناً على الحيوانات من خلال تسميتها (تك٢: ٢٠) . والتكامل أو الانسجام الذي تمثّل في القول "امرأة .... من امرء" (تك٢: ٢٣ ، انظر التعليق فيما سبق)، أصبح الآن علاقة سلطة الرجل وسيادته. وبعد ذلك، وسُلبت المرأة من شخصيتها، وذلك واضح من حقيقة أنه لم يُشر إليها، إلا بعبارات تتضمن قيامها بعمل ما، مثل حمل الأطفال - لم تعد النظير المقابل للرجل ، بل ربما أصبحت بالكاد آلة لإنجاب الأطفال .

وإنه لمن الصعوبة معرفة كيف يمكن تأييد القول "برئاسة الرجل"، كجزء من "نظام الخليقة"، بالاستناد إلى هذا الأصحاح. ذلك أن هذا الأصحاح يصف ما لا يجب أن تكون عليه الأحوال : فهذا هو العالم المُنهار.

وإنجيل المسيح، لا تتجلى آراؤه الثورية في أي موضوع، بقدر ما تتجلى في موضوع معاملة يسوع للنساء. ففي علاقاته بأمه ، ومريم المجدلية، والأختين في بيت عنيا، ومع آخريات، تظهر محبته وقبولهن؛ الأمر الذي يحفظ كرامتهن، ومساواتهن، واحترامهن، تلك الأشياء التي كثيراً ما تهدرها الخطية .

وعلى ضوء نظرة الإنجيل هذه، علينا الآن أن نقرأ ما جاء في (أف ٥)، من تعليم خاص بالخضوع المتبادل في الزواج بين الرجل وزوجته، الأمر الذي يعكس خضوعهما للمسيح(أف ٥: ٢١)، باعتبار ذلك تفسيراً لما جاء في (تك٣: ١٦) . لقد وُصف الزوج بأنه "رأس"، ولكن بالمعنى الذي وُصف به المسيح قبل ذلك بأنه " الرأس "، أي أنه المسئول عن حياة الجسد. والمسيح لم يَسُد علينا، بطريقة مسيطرة، بل من خلال رئاسة الخدمة (انظر مر ١٠: ٤٢- ٤٥)، فنراه يحب جسده، ويعتني به، ويرعاه، ويعمل على خيره، وجسده هذا هو الكنيسة (أف ٥: ٢٩) . وهكذا على الأزواج أيضاً أن يحبوا زوجاتهم - فهم لا يملكونهن كالعقارات (كالفكر الذي ساد العالم القديم) . والنموذج الثوري الذي قدمه لنا الإنجيل - حيث عكس الحُكم الذي صدر في جنة عدن - هو أنه يتعين عليهم أن يحبوا زوجاتهم، بنفس عنايتهم بأجسادهم، وهذا هو إخضاع الزوج لنفسه في إطار الزواج . أما خضوع الزوجة من نفسها، فهو أنه يجب ألا تتملكها الرغبة في استغلال زوجها والسيطرة عليه، ولعل هذا هو معنى الكلمة التي قِيلت في جنة عدن، بل عن طيب خاطر، تُخضِع نفسها أيضاً، كنموذج للزواج الذي يعكس نعمة إعادة الترتيب التي جاء بها الإنجيل : ليس برغبةٍ تسودها الأنانية، بل في جو من الاحترام (أف ٥: ٣٣). وهكذا، نجد مرة أخرى في الزواج تكاملاً ومساواة؛ الأمر الذي يعكس النموذج الذي قدَّمه المسيح. حيث أن العلاقات بين الجنسين، في إطار إنجيل المسيح، يمكن إعادتها ثانية، إلى ما كانت عليه من تناغم .

ج. العمل.. يصبح شقاءً!

وعوضاً عن حرية الإنسان (آدم)، في سلطانه على النظام الطبيعي والحيوانات، وجد آدم باعتباره مدير الأملاك- أن بركة العمل أصبحت شقاءً. وحركة النظام الطبيعي وحيويته، أصبح الشوك والحسك الآن من معالمها (تك٣: ١٧ - ١٩)، وعلاقة الإنسان الآن بالعالم الطبيعي أخذت شكل الصراع.

وثمة إشارة لها مغزاها إلى "الأكل". فالخطية في (العدد ٦) هي أنهما " أكلا " (انظر٣: ١٧أ) . والآن، وفي كل شيء يأكلانه، سوف يتذكران نتيجة خطيتهما (٣: ١٧)، ذلك أن الأرض التي ستعطيهما طعامهما، لن تنتج ثمرها، إلا بالكد والتعب (٣ : ١٧)، والعرق (٣: ١٩).

أي وصف يمكن أن يُعطى عن الصراع من أجل الحياة، ويكون أكثر تأثيراً، من ذلك الألم المرتبط بمجيء حياة إلى العالم؟! وبالنسبة للمرأة، فالألم هو ألم الولادة . فولادة حياة جديدة،

أصبحت الآن مهمة مصحوبة بالألم والمشقة . أما بالنسبة للرجل، فالألم هو في كده وعرقه في زراعة الأرض الخصبة. والأمران الإلهيان في أن يكثرا ويفلحا الأرض، تحولا الآن إلى موضوعين للشقاء .

فعملية إعطاء الحياة، ومسارها، قد شوههما الآن الصراع والألم. فالإنسان الذي أخذ من تراب الأرض، وكان في تناغم مع الخليقة، يجد نفسه الآن في نزاع معها . ويبدو الأمر كما لو أن الخليقة نفسها، إذ أحست أنه قد حُطَّ من شأنها، وتدنست بخطية الإنسان، دخلت في حرب معه، حيث ثار غضبها نتيجة إحساسها أن جمالها قد تشوه، فهي مازالت خليقة الله، ومازالت تقف في صفه. وهناك - إذا جاز القول "حيوية أخلاقية"، بالنسبة للنظام الطبيعي، وهو مازال عامراً بحياة الله القدوس، ومع ذلك يحارب هذا النظام ضد السكان الذين يدنسونه[١]. وهنا، نجد أساس فكرنا اللاهوتي الخاص بالبيئة، بل، والواقع أننا نجد أيضاً أساساً للفكر اللاهوتي للنظام الاقتصادي. فالأرض وملؤها للرب، ومهمتنا أن نستعيد شعوراً بالاحترام تجاه خليقة الله، ودورنا، نحن الخدام، أن نسهِّل عملية زراعة الأرض وحمايتها له .

وأنين الخليقة، وهي تشكو - إذا جاز القول - خطية الإنسان، هو أيضاً أنين آلام ولادة عصر جديد . **فالله لن يترك عالمه المُهشم، دون أن يفديه، لأن الخليقة كلها تئن، وهي واقفة على أطراف أصابعها، تنتظر بلهفة فداء خليقة الله الجديدة. أما بالنسبة لنا، فإن الخليقة كلها سيُؤتى بها إلى ملكوت مجد الله، وسيأتي يوم يرنم فيه الجميع مرة ثانية سبحاً للخالق (انظر رو٨: ١٨ - ٢٣).**

د. الشركة.. تصبح عقاباً!

" أين أنت " ؟ كان هذا النداء يشكّل ضمناً دعوة إلى الشركة. فقد كان الله يفتقد رفقة آدم، ولكن هذه اللحظة قد انتهت الآن . (في تك٣: ٢٣) أخرجه الرب : فلم يعد يجد ترحيباً في الجنة، إذ أنه أخذ ما لم يكن له إطلاقاً . والكلمة المستخدمة هنا، تشير إلى الغضب الإلهي (" فطرد الإنسان ")، وأقام الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة الطريق إلى الجنة.

وهكذا، لم "يتغرب" الناس بعضهم عن بعض فحسب، بل صاروا " وبلا إله في العالم " (انظر أف ٢: ١٢) .

(١) J.A. Motyer, *Low and Life* (Lawyers' Christian Fellowship, 1978), p.7.

ويجب هنا أن نعود ثانية إلى الإنجيل - قصة الإنجيل، التي بدأت، بكل تأكيد، هنا، في سفر التكوين، ولكنها لم تكتمل إلا في المسيح، إذ نقرأ عن المسيح الذي حقق السلام، مرة ثانية، بين الإنسان والخالق (أف ٢: ١١- ١٨)، وصالحنا مع الله (٢كو ٥: ١٨) وصالح الله معنا . فالإنجيل، هو الذي نقرأ فيه عن الأب الذي ينتظر متلهفاً عودة الابن الضال .

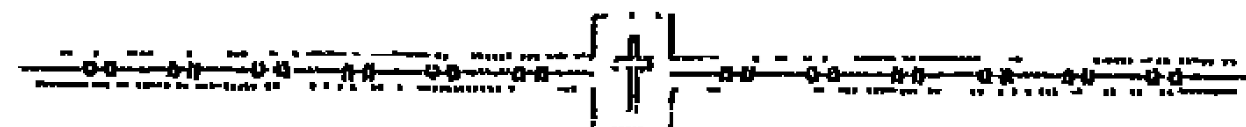
هـ. الحياة.. تصبح موتاً !

إن اللعنة، والتمزق، والتعب، والنفي، كل هذه جاءت تنفيذاً لكلمة الله في (٢ : ١٧) : " لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت "، وسنكتشف نتائجها عندما نأتي إلى (تكوين ٥) . غير أننا في حاجة إلى أن نتوقف هنا، كي نرى بأي معنى "مات" آدم نتيجة أكله من الثمرة المحرمة؟

من الناحية البدنية، ومن الواضح، أنه استمر على قيد الحياة، طبقاً لما جاء في قصتنا، لمدة طويلة . فقد وُلد "شيث " حين بلغ عمر آدم " مئة وثلاثين سنة "، وعاش آدم بعد ذلك " ثماني مئة سنة " (تك ٥: ٣- ٥) . ومع ذلك، فالقراءة المباشرة لما جاء في (تك٢: ١٧ و٣: ٣)، هي أن نتيجة الأكل من شجرة معرفة الخير والشر؛ هي الموت. وهكذا، فمعنى "الموت"، هنا، يتجاوز توقف الجسد عن الحياة . ولعل القصد هو أن عمليات انحلال الجسد، قد بدأت في (تك٣)، وتواصلت، بالتدريج، طوال السنوات الباقية من حياة آدم. غير أنه من المؤكد أنه كان يقصد ما هو أكثر، فهو يرى أن الموت لا يعني "النهاية"، فما الموت إلاّ تغيير. فموت آدم، كان تغييراً للمكان (من داخل الجنة إلى خارجها)، وتغييراً لموقعه بالنسبة لله (من شركة مع الله، إلى اقصاء عنه). وكل موت يمكن أن يُفهم على هذا النحو : فالشخص يستمر، ولكن في مكان مختلف، وفي وضع مختلف بالنسبة لله.

ولذلك، فإنه على الرغم من أن "الموت"، من منظورنا، يواجهنا بنهاية وجودنا، إلا أنه من المنظور اللاهوتي للنص الذي نحن بصدده، فإن الموت يُقصد به التغيير : من البركة والحرية، والحيوية والشركة في الجنة، إلى اللعنة والعبودية والتعب والاقصاء خارج الباب،شرقي جنة عدن ، حيث يحرس طريق العودة "الكروبيم" ولهيب سيف متقلب . وفي تقاليد كتابية لاحقةٍ، يرتدي الموت ثياب حاكم قوي، يمسك بنا في عبوديته .

وللمرة الثانية، نستطيع أن ننظر إلى المسيح، باعتباره الذي أخذ طبيعتنا البشرية " لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس . ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية " (عب٢: ١٤- ١٥). ففي موته " ابتلع الموت إلى غلبة " (١كو ١٥: ٥٤) .



٥. الوعد: الحياة ثانية

في المسيح، لم نعد بعد منفيّين، بل مقبولين. ففيه الحرية من: عبودية الخطية، ومن لعنة الناموس ومذنوبيته، ومن عار توبيخ الذات، ومن سطوة حكم الموت. وفيه، تبدأ الحياة ثانية بالفعل. لذلك، يخبرنا الإنجيل، إنه في السموات الجديدة والأرض الجديدة لن يكون هناك انفصال أو دينونة أو ألم، أو دموع أو موت (انظر على سبيل المثال رؤ٢١: ٣- ٤ ، ٢٢: ١- ٢١). **وفي المسيح، لن يستطيع أي شيء أن يفصلنا عن محبة الله، تلك المحبة التي تطرح الخوف، وتتغلب على الشر، وتعيد بناء حياة وعلاقات جديدة.**

وعلى الرغم من أن قصة التكوين، (كان عليها أن تنتظر حتى (الأصحاح ١٢)، مع تاريخ إبراهيم، قبل أن يمكن البدء في قصة هذه النعمة المخلِّصة، باعتبارها تاريخ الشعب الذي دخل في عهد مع الله ـ وهكذا تستمر، حتى تؤدبنا إلى المسيح (غل٣: ٢٤)؛ إلا أنه توجد تلميحات ومؤشرات عنها، حتى هنا، في الأصحاح الثالث .

لقد لعن الله الحية، وهناك، وعد بأنه على الرغم من أن حواء ستموت، إلا أن نسلها سوف يعيش، ليسحق راس الحية(تك٣: ١٥) . والصورة هي أن الحية التي كانت سبباً في سقوط الإنسان، سوف تُسحق هي نفسها بواسطة إنسان . وليس ثمة شك في أنه لم يكن قد جاء الوقت، للإعلان عن اليوم الذي يتحدث عنه العهد الجديد، أو عن الرجل المناسب (كما يقول لوثر)، الذي تُولد فيه إنسانية جديدة . إلا أنه بمقدورنا الآن أن نقف في إطار (تك ٣) ونتطلع إلى الأمام، من خلال معرفة أن قوة الشيطان، التي يخفيها وراء القناع الماكر للحية، سوف تنكشف في يوم من الأيام، ويتم التغلب عليها، وذلك على الصليب خارج سور المدينة، **وفي ذلك اليوم، سيقوم المسيح المنتصر (Christus Victor)، ويجرِّد " الرياسات والسلاطين " ويشهرهم " جهاراً " (كو٢: ١٥) . في ذلك اليوم، سوف تبطل شوكة الموت ويُقهر آخر عدو (١كو١٥) .**

لكن سفر التكوين، لا يشير فقط إلى يوم في المستقبل، سوف تُسحق فيه الحية، بل يخبرنا أن الله، الآن، يوفِّر احتياجات شعبه، حتى وهو في إثمه وخزيه، ويدبِّر له كساءً لعُريه . وكما وضَّح "كالفن" Calvin هذه النقطة[1]، بروعة في قوله: "حقاً لقد كان أمراً محزناً بشعاً، أن ذاك الذي

---

[1] مرجع سابق، ص Calvin, p183

كان مجد الصورة الإلهية يشرق فيه منذ قريب، نراه الآن يرقد مختبئاً وراء جلود عفنة؛ ليغطي خزيه، وأن يكون هناك جمال في حيوان ميت، أكثر مما يوجد في إنسان على قيد الحياة!".

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن "كالفن" يتركنا عند هذه النقطة، نتأمل في جلود الحيوان هذه، كعلامة على عار الإنسان، نتساءل نحن: **أليس بمقدورنا أن نرى فيها غطاءً، وتدبيراً عجيباً ؟! لقد مات كائن؛ حتى يمكن تغطية عري آدم. ألا نجد لمحة في هذه الذبيحة، إلى طريقة تعامل الله مع عالمه: وأن حياة جديدة تُعطَى، من خلال حياة تُبذل ؟**

إن طرد الله الإنسان من الجنة، إنما يُقصد به، في أحد معانيه، حفظ الإنسان. فالعبارة المحيّرة، غير المنتهية، في (تك٣: ٢٢) تعطي معنى أن الله لم يطرد آدم من الجنة، كعقوبة فقط، بل أيضاً من أجل خيره! فهل هي طريقة للقول بأن الله لا يريد لآدم أن يأكل من شجرة الأبدية، في حالة الانهيار التي هو عليها ؟! فالواقع أنه سيكون لذلك عواقب أبدية وخيمة، معروفة لله، رغم أنها ليست معروفة لنا، وذلك، إذا ما كان آدم قد أكل منها بالفعل؟ فالله، بهذا، يتيح فرصة لعمل النعمة . فعلى الرغم من أن آدم من ناحية ما، كان في ظل الموت، إلا أن حياته قد حُفظت، على الرغم من ذلك، بضع سنوات أخرى .

فالله، يقدم رعايته وحمايته إلى الشخص الخاطيء والمحطم، الذي هو في مثل هذه الحاجة. ولكن في المقابل لهذا، ألا نرى بصيصاً من الإيمان في الرجل نفسه الذي دعا زوجته حواء أي "حياة"؟! لأنها كما نقرأ "أم كل حي" . ألا تُوجد هنا نظرة إلى أن الله لن يتخلى عن خليقته التي أحبها، وأن الله سيخرج الحياة ثانية، حتى من الموت نفسه؟! من المؤكد أن هذا هو ما يلُمِّح إليه في (تك٣: ١٥)، حيث أن الذين كانوا تحت حكم الموت، قد وُعدوا "بنسل" - والحياة ستطول في الأجيال القادمة . بل إن البعض أخذوها أيضاً على أنها نبوة، تشير إلى "نسل معين، بل ربطوا بينه وبين "النسل" المشار إليه في (غل٣: ١٦- ١٨) - أي المسيح ربنا .

ولسوف نجد هذه اللمحات، وقد ازدادت قوة، في الأصحاحات التالية من التكوين (١- ١١) . غير أنه إلى جانب وعود النعمة، سنكتشف أن قوة الخطية نفسها ازدادت انتشاراً وقتامة . ويرسم لنا (تك ٢ و ٣) معاً صورة لعالم غامض عجيب، ولكنه منهار. وهذا هو العالم الذي نعرفه، والذي نشارك فيه.

GENESIS

الباب الثالث

حسد وإمتنان

[أصحاح ٤ : ١-٢٦]

١. الحياة تستمر

"١ وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قاين. وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب.
٢ ثم عادت فولدت أخاه هابيل. "

يُستهل (تك٤) بحياة جديدة. فمع أن باب العودة إلى جنة عدن قد أغلق، وأقيم الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة، إلا أن كاتب الوحي كان يتطلع إلى المستقبل .

لقد سمح الله بأن تستمر الحياة، حتى في العالم الساقط خارج الجنة . وفضلاً عن ذلك، تواصل الإيمان أيضاً خارج الجنة: فالحياة هي حياة الإيمان. **وهنا، في العالم الذي تشوه نتيجة دخول الخطية، لا يزال ممكناً - بل وضرورياً - أن يعيش الإنسان بالإيمان.** بل إن حواء استهلت الأصحاح بعبارة إيمانية : " اقتنيت رجلاً من عند الرب" (أو بمعونة من الرب) (تك٤: ١) . ومع ذلك ، ربما كان إيمانها قد شُوّه بقدر من الكبرياء، لأن هذا النص الصعب، من الممكن أن يعني: (أنا أيضاً خالقة، مثل الرب) .

ويُختتم الأصحاح بإشارة إلى الإيمان : " حينئذ ابتدئ أن يُدعى باسم الرب " (تك٤: ٢٦)، مما يشير إلى بدايات أنماط العبادة المنتظمة . "وهابيل"، وهو ممن يقومون بدور أساسي في هذه القصة (في تك٤)، يتصدر قائمة أبطال الإيمان المسجَّلة في (عب١١) : " بالإيمان قدَّم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين " .

فهذا الأصحاح إذاً، يحدثنا عن الحياة وعن الإيمان، كما يخبرنا أيضاً أن المجتمع بدأ في الظهور، وبدأت العبادة، وأصبحت التكنولوجيا ممكنة . لكنه يحدِّثنا أيضاً عن الصراع والقتل، وعن العقاب والانتقام، وعن الاغتراب والقلق، وعن فساد الزواج بتعدد الزوجات، وأما المأزق الذي وضع الإنسان نفسه فيه بطرده من جنة عدن (في نهاية الأصحاح ٣)، فقد ازداد وضوحاً في (الأصحاح ٤).

وهنا، يكشف سفر التكوين مرة أخرى عن " غموض" مأزق الإنسان . ففي هذا العالم يوجد "هابيل"، كما أن به "قايين". وفي داخل نفوسنا، قد يُوجد "هابيل"، كما يُوجد "قايين" .

ويعود هذا التاريخ البدائي ليستغرقنا في قصته، وكما يشير تعليق "وينهام" Wenham، تُوجد نظائر لهذه القصة في نواح كثيرة من قصة الطوفان السومرية في بابل : مثل محنة الإنسان الهائم على وجهه، وبناء أول مدينة، وإقامة العبادة . ومع ذلك، فبينما تقوم "قصة بلاد بين النهرين" على تفاؤل كامل في الطبيعة البشرية، يؤمن بتقدم الإنسان، نجد أن قصة (تك٤) تأتي على النقيض من ذلك تماماً . فهذا الأصحاح يبيّن لنا كيف أن كلاً من الخطايا والعلل التي ذُكرت في (تك٣) تضرب في التاريخ لتصل إلى أجيال متعاقبة، كما يبيّن لنا أيضاً أن الخطية التي عُبِّر عنها في إطار "شخصي"، في تاريخ آدم وحواء، لها أيضاً بُعدها "الاجتماعي".

لقد أصبحت "الخطية" الآن حقيقة واقعة في طبيعة الإنسان، لذا، نجد الإثم الآن ينبع من أعماق قلب الإنسان – ولا نجد هنا إشارة إلى مجرِّب شيطاني خارجي . فالخطية انتقلت عدواها إلى حالة الإنسان، إلى الجيل الثاني . فالقتل والانتقام، وإفساد صورة الزواج، كل هذه من الموضوعات السلبية التي تضمَّنها(تك٤)، ولكل منها بُعده الشخصي والاجتماعي. وقد تورطنا، نحن الأجيال اللاحقة، في كلا البعدين، الشخصي والاجتماعي .

ونحن هنا، لا نجد أمامنا أخوين شقيقين والحسد الشخصي الذي فرَّق بينهما فحسب – الأمر الذي يُصدُق بالنسبة لكثير من خبرتنا . بل نواجه أيضاً إنقساماً بدائياً في البشرية، ولكنه انقسام اجتماعي كبير. لقد كان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض. وعلى مدى تاريخ الإنسان كله، كانت هناك تقسيمات اجتماعية تميَّزت بوجود أعمال متباينة – وفي هذا الأصحاح نجد مؤشراً بالنسبة للنواحي الإيجابية والسلبية للحياة الاجتماعية. وأما تقسيم العمل – البعض لرعي الغنم والبعض الآخر للزراعة – فيُعرض هنا، دون تعليق، وبوسعنا افتراض أن هذا التقسيم كانت له فائدته. غير أنه يوجد أيضاً تقسيم اجتماعي، أشير إليه هنا، يمكنه – كما نعرف تماماً – أن يؤدي إلى صراعات قائمة على الحسد .

ثم نقرأ بعد ذلك عن جماعة قد تنتقم لقايين (تك٤ : ١٧)، ثم عن جماعة يتخذ قايين لنفسه امرأة منها (تك ٤ : ١٧)، وفيها قد يجد ملاذاً له. ولذلك، فبينما يمكننا أن نعرف شيئاً عن الأُخوّة من قايين وهابيل، فبمقدورنا أيضاً أن نلمس هنا تقييماً لاهوتياً للخطية الاجتماعية، والانقسام الاجتماعي، والتنافس الهدَّام الذي ساد المجتمع الإنساني خارج الجنة، حيث توجد جذور هذه التقسيمات الاجتماعية، في تجزئة المجتمع، الذي فقد صلته بالله.

وحياة الإيمان خارج الجنة، يجب أن تكون في أطار صلة بقريبنا أو الإنسان الآخر، وهي ليست في حصانة ضد قوى الهدم الكامنة في النطاق الاجتماعي لوضعنا كبشر. وإذ كان الشيطان

نشطاً في صوت الحية في (تك٣)، فنحن هنا نعيش في العالم (مجتمع بشري مُنَظَّم ضد الله)، ونحن نصارع ضد "الجسد" (الطبيعة البشرية التي ضلت) .



٢. الحياة تبدو ظالمة

(٤: ٢ - ٥)

" وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض. ٣ وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب. ٤ وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ٥ ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه. "

إن الفقرة التي تضم (الأعداد ١ - ٥)، تبدو للوهلة الأولى محيِّرة، ونحن نميل بالطبع إلى قراءتها في ضوء العهد الجديد. ويخبرنا كاتب الرسالة إلى العبرانيين عن إيمان هابيل الذي به قدَّم " لله ذبيحة أفضل من قايين " (عب١١: ٤)، ويشير إلى دم هابيل، جنباً إلى جنب مع دم يسوع (عب ١٢: ٢٤). كما يذكر إنجيل متى " دم هابيل الصِّدِّيق " (مت٢٣: ٣٥)، وفي رسالة يوحنا الأولى، نُصحنا الرسول بأن يحب بعضنا بعضاً، ويحذِّرنا من أن نكون مثل قايين الذي " كان من الشرير وذبح أخاه "، " لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارّة " (١يو٣: ١٢)، فكل هذه تُوحي، إذاً، بأن هابيل كان رجلاً باراً، أما قايين فكان شريراً.

ولكن إذا لم نقرأ (تك٤)، من منظور العهد الجديد، كيف سيكون تفسيرنا له ؟ ومن أين جاء كتبة العهد الجديد، بفكرة أن هابيل كان مؤمناً، أما قايين فمن الشرير ؟ فما ذُكر في (تك٤) هو أن كلاً منهما قدَّم ذبيحة، وقد قَبِل الرب ذبيحة هابيل، ورفض ذبيحة قايين!!

للوهلة الأولى، ودون أن نتعمق إلى أبعد من ذلك، يبدو الأمر كله ظالماً. بل، ولعل كاتب الوحي أراد أن يبرز هذا الظلم. فالحياة ظالمة ! والبعضُ يحققون فيها نجاحاً كبيراً، وآخرون لا ينجحون. البعض يصبحون شعباً لله ، والآخرون ليسوا كذلك. فلماذا اُختير العبرانيون ورُفض الآخرون؟

ومن نظرتنا البشرية المتحيزة، يبدو أن الأمر كله جاء اعتباطاً، أو نتيجة فكر متقلِّب . ولكن ولعل هذا هو السؤال الذي يريد سفر التكوين أن يطرحه أليس الله حرّاً في أن يفعل ما يشاء، دون أن يطلب الإذن منا ؟!

لم يكن لقايين حقوق على الله، فليس الله مديناً لأحد . فالله وحده، هو الذي في وضع يسمح له أن يعرف ما هو عدل أو بالأحرى، أن يقرر لماذا جاءت الأمور بالوضع الذي هي عليه، سواء كانت من مفهومنا عادلة، أم ظالمة. وفي حكمته الإلهية، اختار الله ذبيحة هابيل، تماماً مثلما رأى في حكمته السامية أن يختار شعبه القديم؛ ليكونوا له شعباً، وليس ذلك لأي شيء عملوه، بل بدافع من محبته .

وما جاء في (تث٧: ٧) يضفي على هذه الفكرة تعبيراً نموذجياً: " ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب . . . ".

فهل هذا هو ما يريد كاتب الوحي إبرازه هنا - أي نعمة الله ؟

إن شعب الله قد أصبحوا هكذا، ليس بسبب أعمال أتوها، بل بسبب نعمة الله دون سواها . **والإيمان أيضاً، يجب أن يتعايش مع ما يبدو في نظرنا أنه جور وظلم، ويترك بعض التساؤلات دون حل، وذلك في إطار سر تدبير الله الكريم.**

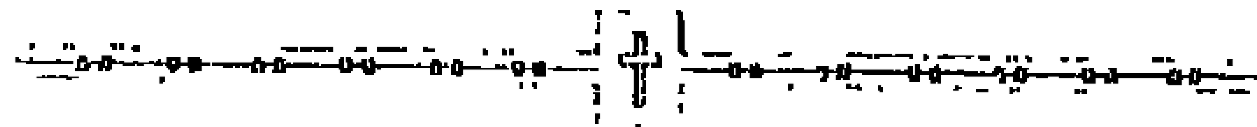
ومرنم المزامير أيضاً، احتار بالنسبة لهذا السؤال: لماذا ينتصر الأشرار، في الوقت الذي فيه يعاني شعب الله ؟! لماذا تتسم الحياة بالظلم ؟! هذه هي الأسئلة التي يثيرها (المزمور٧٣). أما نقطة القول الفصل، فقد جاء إلى ذهن المرنم، حين استطاع أن يرى الأمور من منظور مختلف . لقد توقف عن رؤية كل بادرة ظالمة في حياة الآخرين، بل بالحري، ينظر إلى قصة حياتهم في مُجملها - من منظور الأبدية : " فلما قصدت معرفة هذا إذا هو تعب في عيني . حتى دخلت مقادس الله وانتبهت إلى آخرتهم." (مز٧٣: ١٦- ١٧).

إن نفس الأسئلة تخطر على أذهاننا، حين نقرأ المثل الذي قاله يسوع عن العُمال في الكرم . فالبعض ممن وافقوا أن يعملوا بأجر يومي قدره دينار في اليوم، عملوا اليوم كله. وآخرون دُفع لهم دينار أيضاً، نظير عمل ساعة واحدة - وحين حدث تذمر على صاحب الكرم، أجاب : " يا صاحب ما ظلمتك . أما اتّفقت معي على دينار. فخذ الذي لك واذهب . فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك"، واستطرد بهذه الكلمات المعبّرة : " أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بما لي . أم عينك شريرة لأني أنا صالح. " (مت٢٠ : ١٣- ١٥) .

لقد ذُكر لنا أن ملكوت السموات، مثل رب البيت هذا (مت ٢٠ : ١- ١١) . وقد قِيل المثل رداً على سؤال طرحه بطرس، حيث قال : "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك . فماذا يكون لنا " (مت١٩: ٢٧).ورد يسوع عليه بهذه القصة؛ أظهر لبطرس أن ملكوت السموات ليس إطلاقاً هو" فماذا يكون لنا ". فعالمنا يعمل على أساس : " أنت مدين؛ فمن ثم يجب أن تدفع" ، وهو القانون

الذي تبدو فيه العدالة، ولكنه سرعان ما يتحول إلى قانون الثأر والجزاء بالمثل. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن ملكوت السموات يعمل على أساس النعمة : كرم صاحب البيت. وهذا ليس معناه اتهام الله بأنه يتصرف اعتباطاً، بل نعترف ببساطة أننا هنا - وللمرة الثانية - نصادف حداً لفهمنا "فالسرائر لإلهنا" (تث٢٩: ٢٩). وجزء من سره، يتمثل في سر النعمة - وهو سر قد يبدو لنا كأنه ظلم، غير أنه، من منظور الملكوت، وطبيعة المَلِك، بمقدورنا أن نثق في أنه جزء من كرَمه.

ومن المؤكد أن الأمور لا تكون دائماً على هذا النحو، فالفَعَلة الذين تحملوا حر النهار، شعروا بالظلم. إلا أنه من منظور مختلف، عن منطق عرق النهار في الكرم، فإن الحقيقة واضحة. فما يحكم حياة الكرم بشكل جوهري، هو نعمة صاحب الكَرْم وكَرمُه. وكل ما يبدو أنه ظلم، بالنسبة للطرق التي نعتقد أن الله كان ينبغي أن يتعامل معنا فيها بشكل مختلف، يجب أن نعيد النظر فيه في ضوء هذه الحقيقة.



٣. هل هي محبة أخوية ؟!

إن ما يبدو كأنه ظلم، ربما شكّل جزءاً من قصة (تك٤)، غير أنه توجد تلميحتان، بهما يمكن أن نسبر، ولو إلى مغزى، غور هذه القصة، ولربما تساعدنا على أن نفهم بأكثر وضوح، السبب في أن تقدمة هابيل قد قُبلت، في الوقت الذي رُفضت فيه تقدمة قايين .

١- لعل اسميهما يتضمنان تلميحاً: فاسم "قايين" مأخوذاً من كلمة " قَنَىَ ". وهذا ما نجده في (تك٤: ١) " اقتنيت رجلاً من عند الرب " . ولعل الاسم يشير إلى الاكتفاء الذاتي، والقوة، وللبِكر الذي له حق البكورية في كل شيء، وإلى الرغبة في السلطة، وتأكيد الذات. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن اسم "هابيل" يعني شيئاً مثل "العدم والضعف" . وكما يقول "هيلموت ثيليك" Helmut Thielicke في عظته (قايين الذي بداخلنا) : (إنه "أي هابيل" هو ممثّل الذين يرضون بالقليل) .

ولذلك، ربما كان يُقصد أن نلمس في اسميهما لمحة من صورة أخوين في ظل عدم المساواة الجوهري للأدوار والمواقف – مثل صورة الفريسي والعشار الواردة في قصة أخرى، والتي قيلت بعد ذلك بزمان طويل (انظر لو١٨: ٩- ١٤) .

وإذا اتبعنا نهج ثيليك ، بمقدورنا القول أنه ربما كان "قايين" ممن يسخرون بجيرانهم، وهي نزعة قوية؛ لكي نجعل من أنفسنا مركزاً ، ولا نتعامل مع الآخرين إلا بقدر منفعتهم لنا، بينما يظهر "هابيل" في صورة الشخص الغض، الذي يبدو كمن ليس له أي نفع على الإطلاق، ولا يصفه هذا العالم بحسب تقديراته- إلا بالحماقة.

فهل قُصد لنا أن نصل إلى هذا التمييز في اسميهما ؟

إن ذلك يساعد على تفسير بعض أسباب غضب قايين، حين لم تُقبل تقدمته في حين أن تقدمة أخيه، وهو شخص تافه لا قيمة له- يبدو أن الله تقبّلها بتقدير كبير. وإذا كان هذا هو شر قلب قايين، وهو عدم اعتباره إطلاقاً للقريب الأمر الذي انتهى به إلى أن يكون قاتلاً ، هنا نرى كيف أنه كان من المناسب أن تشير رسالة يوحنا الأولى إلى هذه القصة، في معرض حديثها عن المحبة الأخوية .

٢- ولعل القصة تتضمن أيضاً تلميحاً آخر: فعلى الرغم من أن "فون راد" Von Rad، يقول "إن الفكرة الوحيدة التي نستطيع أن نجدها في القصة، هي أن ذبيحة الدم كانت أكثر قبولاً لدى

الرب"[١]. إلا أنه قد توجد فكرة أخرى: فقد قدم "هابيل" من أبكار غنمه ومن سِمانها " (تك٤ : ٤) . فالدلالات الإيجابية " للأبكار" "السمان" كما يقول وينهام Wenham- هي ذاتها في العهد القديم، تُدعِّم رأي عدد كبير من معلمي اليهود ومفسري العهد القديم، بأن "هابيل" قدم صفوة غنمه للرب . ولهذا، فقد يكون ذلك مؤشراً إلى أن "هابيل" قدم أفضل ما عنده - بل صفوة أفضل ما عنده . فكانت تقدمته تقدمة تكريس، ذبيحة كلفته الكثير، أما "قايين"، فقد قدم أقرب شيء كان في متناول يده .

والأهم من ذلك كله، أنه، حتى وإن كان "هابيل" و"قايين" قد تقدما إلى مذبح الله بقلب نقي، إلا أن هناك شيئاً لم يكن أحد منهما قد عرفه بعد، وهو : ما نوع الذبيحة التي يريدها الله؟ وكيف يمكنهما معرفة ذلك ؟

ربما لم يكن أمامهما سوى تقديم ما لديهما بالإيمان، ثم معرفة ما إذا كان ذلك مقبولاً، أم لا. ومن يدري، فلعلهما تعلما من تغطية آدم وحواء بالجلود، شيئاً عن الاقتراب من الله عن طريق الذبيحة. وبالتالي، ربما كان هذا جزءاً من معرفتهما عن الله جزءاً من الإعلان الإلهي، الذي كانا يعيشان به . ولكن، لعلهما كانا غير متأكدين. فرجل الإيمان يقدّم أحياناً- مما لديه، في الخفاء، ويود أن يسمع إجابة من الله، وأحياناً يكون الرد بكلمة قبول. غير أن الله في بعض الأحيان، يقول : " لا، إن هذا ليس ما أريدكم أن تعملوه". ورجل الإيمان يتقبل هذا الرفض، باعتبار أنه وقت للتعليم، وهذه هي الكيفية التي تصبح بها حواسه "مدَّربة على التمييز بين الخير والشر " (عب٥: ١٤) . وهذا جزء من الكيفية التي يتعلم بها الشخص إرادة الله من نحوه - بأن يجازف باختبار الله .

ولو كان لدى "قايين" إيمان من هذا النوع الذي يحمله على الثقة في الله؛ لتقَّبل حقيقة أن طريق الله ليس هو الطريق الذي افترضه. لكنه لم يكن له هذا الإيمان، بل على النقيض من ذلك، تملَّكه الغيظ والغضب . ومن الجدير بالملاحظة أنه لا يُلام بسبب تقدمته، بل، ولا يُلام لتقديمها بطريقة خاطئة . وكثيراً ما نتوخى جانب الحذر، من ناحية المخاطرة في الإيمان، خشية أن نخطئ . والحقيقة هي أننا (دائماً) على الأقل وإلى حد ما نخطئ في ذلك، ولكن هذا ليس هو الموضوع . فلو كان الله سيتقبلنا فقط في حالة تصرفنا بشكل صحيح دون خطأ، فما المصير الذي سيؤول إليه كل واحد منا ؟

[١] مرجع سابق; Von Rad, p99.

فالموضوع، إذاً، هو الرغبة في أن نتقدم في إيمان، وامتنان بما لدينا، مهما كان قليلاً مثل الغلام الذي كان معه أرغفة الشعير الخمسة والسمكتان إذ يمكن أن يُؤخذ هذا القليل، ويُحوَّل إلى شيء أكثر. وبالتالي، فإن هذا الإيمان والامتنان، يتضمنان الرغبة في أن نتعلم عندما نخطيء، حتى يمكن أن نتغير. ولكن هذا مع الأسف هو ما فشل فيه "قايين". فلم يُوجَّه له لوم، بسبب غلطته، أما ما استحق عليه اللوم، فهو رد فعله الغاضب من موقف الرب. وشريعة الحياة خارج جنة عدن، هي نفسها الشريعة التي تُطبَّق داخلها، وهي الطاعة الواثقة في الله. ولكن "قايين" لم يكن مستعداً لذلك؛ ومن ثم اغتاظ جداً، وتحول غضبه تجاه الله، بعدئذٍ، إلى حسد "لهابيل". وما أسهل أن يؤدي بنا فشلنا في الثقة بالله، إلى إخفاق في احترام أخينا.

والمحبة الأخوية، تتضمن معرفة أن ما يضطر إلى تقديمه أخونا الضعيف، الذي لا شخصية له، يكون أحياناً (في نظر الله) أكثر أهمية مما نختار نحن أن نقدمه.

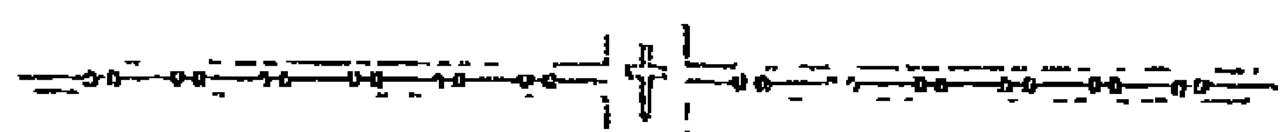
والمحبة أحياناً، تبدو بأكثر وضوح في الشعور بالامتنان لله، لأنه وهب شخصاً آخر. ويقول الرسول بولس إن " المحبة هي تكميل الناموس "، وآخر الوصايا العشر هي شريعة ضد الاشتهاء. ومحبة القريب الحقيقية، تبدو حين أحب أخي، إلى درجة لاّ أشعر فيها نحوه بالحسد.

لقد كان هناك واعظ شهير، بالولايات المتحدة، في القرن الماضي، وكان يجذب الجماهير، وكان يُعَد بصفة عامة واحداً من أعظم الوعاظ. وجاء يوم، دُعي فيه واعظ آخر إلى مدينته. وكان لهذا الواعظ أيضاً قدرة على جذب الجماهير؛ إلى درجة أن البعض بدأ يترك الواعظ الأول ويذهب بالأحرى لسماع الثاني. وهنا، بدأ الحسد ينمو، وكان من الطبيعي أن تتأثر خدمة الواعظ الأول. وكلما زاد حسده، قلَّت فاعلية عمله للرب. لكن الحلقة التي سرعان ما أصبحت ضارة بغيضة، تحطمت حين شرع يصلي من أجل منافسه، ويشكر الله على المواهب التي أعطاها للواعظ زميله. لقد شقت المحبة طريقها، حين تم التغلب على الحسد، بالشكر الامتنان.

والمحبة -كما يقول " سكوت بيك" M.Scott Peck، هي : "الإرادة في أن يبذل الإنسان نفسه إلى أقصى حد، من أجل نموه الروحي أو نمو الآخرين". وبعبارة أخرى، المحبة هي أن يبذل الإنسان ذاته بمحض إرادته. ومحبة الأخ تظهر، بصفة خاصة، بكل وضوح، في تقديم الشكر لله على عطاياه. غير أن موقف "قايين" كان على النقيض تماماً من المحبة الأخوية و"قايين" الذي فينا - يظهر في حسدنا لمواهب الآخرين، وأيضاً في الغيظ الذي ينتابنا من خدمة الآخرين لله، وفي كراهيتنا لحقيقة أن الآخرين يبدون "أكثر منا نجاحاً في الناحية الروحية"، وفي غيظنا من أن الله

يبدو أنه يُسّر بقبول تقدمات الآخرين، في الوقت الذي فيه يبدو من الصعب جداً، أن نفرح لمواهب الآخرين، فنتمنى لو أنها كانت لنا."

وهكذا " اغتاظ قايين جداً وسقط وجهه ".



٤. النظام

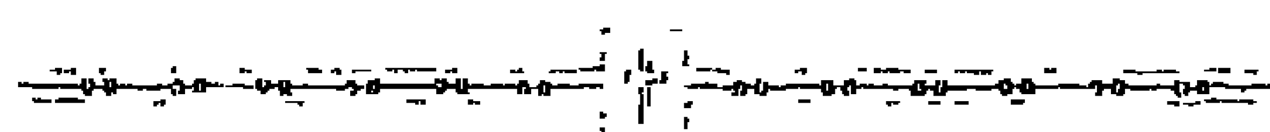
إن هذا الأصحاح - كما سبق أن لاحظنا - يثير أسئلة حول "الجسد" و "العالم". ولا نجد هذا الجمع بينهما، على نحو من القوة، كما نجده في فاعلية " النظام". فسيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة، وفعالية الحراك الاجتماعي، ونظرية النظم، قد قدمت لنا طرقاً لفهم قوة وتأثير الجماعات الإنسانية في تعايشها فيما بينها. وفي التفاعلات الخاصة بالمجتمعات الإنسانية، يمكن تكبير الآلام الناجمة عن الاحتياجات النفسية ، فالمخاوف المتأصلة، والمحاسدات، والعدوان، كلها يمكنها أن تظهر في الجماعات، بما تسميه " ميلاني كلين": (آليات التمزق والإسقاط)، وهذه يمكن أن تنتقل عدواها من شخص لآخر.

وحين ترتبط مجموعة أيضاً بتسلسل رئاسي للسلطة، فإن مسألة "مَن" يمارس السلطة على "مَن"، يمكن أن تصبح معقدة ومؤلمة بصورة متزايدة، لأنه حين تلتهب السلطة والاعتداءات الشخصية والمخاوف؛ هنا يمكنها أن تصبح قاتلة .

دعونا نتخيل رئيساً في مكان للعمل، قام نزاع بينه وبين أحد معاونيه. فالأول يصف النزاع بأنه يعود إلى عدم كفاءة مساعده في العمل . أما هذا الأخير، فيعتقد أن الرئيس مدفوع بغيرته منه . وأخيراً، تؤدي انتقادات الرئيس المتواصلة، إلى أن تحمِل من هُم في السلطة العليا إلى اتخاذ إجراء تأديبي. إلا أنَّ الرئيس في واقع الأمر، لا يريد ذلك لأن هذا التصرف يسيء إلى قدرته على التعامل مع مرءوسيه، والمرءوس لا يريد ذلك أيضاً، فيُترك كلاهما في النهاية، في وضع يحتّم أن يقوم كل منهما بعمله على خير حال، وإلا عليهما أن يستقيلا . وهنا يشرع الرئيس الأعلى، في البحث عن أشياء يتخذها سبباً للشكوى، كي يبرّر الإجراء التأديبي. أما المرءوس، فقد يجد أن المراقبة المستمرة كانت تشكّل تهديداً له، حتى أن مستواه في العمل قد انخفض بالفعل، وهنا يبدأ في تقديم أساس حقيقي للشكوى، ولا يخرج أحد من هذا الموقف، وهو على ما يُرام . فقد تولى "النظام" الأمر، ولا يشعر أحد أنه في موقف يسمح له بإيقاف تدفق الأحداث .

فالحسد والخوف يمكنهما أن يكونا وقوداً "لنظام" هدّام للغاية، تضيع فيه القيم الشخصية، وتصعب فيه فرصة إعادة إقامة علاقات ودية، وتُداس المشاعر الإنسانية بالأقدام . وهذه هي قوة العالم الهدامة حيثما قامت العلاقات الإنسانية، دون الرجوع إلى الله .

وتوضح لنا قصة قايين هذه القوة الهدّامة، بتركيزها على العلاقة بين الأخوين. ولكنها تأتي، كنموذج للقوة الهدّامة "للنظام"، الذي يمكن أن تؤدي فيه مخاوف "قايين" وحسده إلى عدوان قاتل بين الناس .



٥. المسئولية

(٤: ٦– ٧)

"٦ فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. ٧ إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها".

تذكّرنا هذه الآيات، بأن قايين لا يزال مسئولاً عن أعماله، وهي تفتح المجال أمام التفاعل بين المعتقدات والسلوك والعاطفة. فأحياناً تقودنا التغيُّيرات العاطفية، إلى تغييُّرات في الموقف والسلوك. أما النموذج، هنا، فعلى عكس ذلك: فالمعتقدات الخاطئة تؤدي إلى السلوك الخاطئ، والتجاوب السلوكي السيء يؤدي إلى الحزن والكآبة.

ومما لا شك فيه، أنه ليس من الحكمة إطلاقاً استخلاص مبادئ عامة من نصوص منعزلة. وفي كتابه " مؤهل لتقديم المشورة" يميل "جاي آدمز" Jay Adams إلى عمل ذلك، حين يستخدم هذا النص لتبرير "نموذج المشورة القائم على السلوك". وإذ يشير إلى (تك٤: ٥- ١٦)، يقول: "هنا يضع الله المبدأ المهم بأن السلوك يحدد المشاعر". ثم يواصل كلامه، مجادلاً، بان خطية "قايين" أدت إلى رفض الله، وما تلى ذلك من غيظ قايين من الله، الأمر الذي أدى إلى الكآبة. وتحذير الله: " إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة " (تك٤: ٦-٧)، لم يعره قايين أي اهتمام، وغيظ قايين ورثاؤه لحاله وغضبه، كل ذلك أدى به إلى الإثم والحزن، ثم أدى به إلى خطية أخرى، وألم آخر في دوامة من الأخطاء السلوكية تزداد عمقاً.

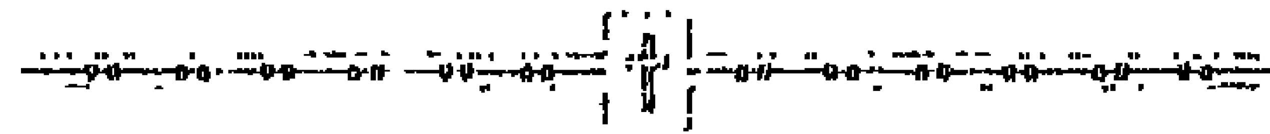
وعلى الرغم من صدق هذه الصورة، بالنسبة لبعض المواقف، إلا أن استخدام "جاي آدمز" لنص كتابي هنا، يحتاج إلى معاملته بقدر من الحذر، وألاّ تُتخذ هذه القصة كمبدأ شامل للمشورة. لأنه واضح، وبنفس القدر، أن "الدائرة" في قصص كتابية أخرى، تأخذ اتجّاهاً مغايراً: فالتغيُّيرات في المشاعر؛ تؤدي إلى تغيُّيرات في السلوك. فحزن "راعوث" على فقدان زوجها على سبيل المثال –

جعلها تلتصق "بنعمي". وبالتالي، فالروابط المتشابكة بين الإيمان والسلوك والمشاعر تُعُد أمراً معقداً

ومع ذلك، فإنه في النموذج الأوسع والأكثر تعقيداً، يجيء وقت في عملية المشورة، قد يكون فيه التأكيد على المسئولية الشخصية أمراً مناسباً، وهذا ما توضحه بشكل مفيد تجربة قايين.

ويحتاج المشيرون والرعاة إلى حكمة، ليعرفوا المدى الذي يمكن أن يُنسب فيه اكتئاب شخصي، بصفة مباشرة، إلى الخيارات الخاطئة التي عملها، كما يحتاجون إلى الحكمة، أيضاً ليعرف الواحد منهم النقطة التي يمكن أن يُشجَّع عندها الشخص المكتئب، بالنسبة لمسئوليته عن أعماله. فعند النقطة التي كان على قايين أن يتحمل فيها المسئولية عن سلوكه، وعواقب إثمه، وكآبته، وسلسلة أفعاله الخاطئة؛ هنا واجهه الله. وفي إطار كل ما يحدث من تفاعل بين الإيمان والعاطفة، فهناك على الرغم من ذلك نقطة محددة للمسئولية الشخصية. وإذ كان الله واقفاً عند المذبح إذا جاز القول أشار الله إلى الحزن الذي اكتسى به وجه قايين، وقدم له رجاء التغيير : "ليس عليك أن تظل على هذا النحو". فبوسعك أن تختار التغيير في السلوك، أو نظام إيمانك، أو النموذج السلوكي الذي سيؤدي بك إلى أن تعرف انك مقبول، أو بوسعك أن تختار ألا تفعل ذلك.

والواقع أن العدد (٤ : ٧) معقد، إلا أنه قد يعني : أنك إذا وقفت ضد الله وطرقه؛ فإنك بذلك تضع نفسك في خدمة الخطية، التي هي مثل وحش قابع يترقب فريسته، وسوف تسود عليك. غير أنه مهما كانت الخطية (الوحش المفترس) مغرية، ومهما كانت سيطرتها قوية، فالأمر على الرغم من ذلك يشير إلى أن مسئوليتك لا تزال قائمة : فعليك أن تسود عليها. وعلى الرغم من كل الظروف المخففة، والتي قد يكون لنا الحق في ذكرها، وذلك للتخفيف من المسئولية، ففي مواقف معينة، هناك نقطة يمكن لكل منا، عندها، أن يختار في الحدود المتاحة له.



٦. حارس لأخي!

(٤ : ٨ - ١٢)

"٨ وكلم قايينُ هابيلَ أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله.
٩ فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي. ١٠ فقال ماذا فعلت.
صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. ١١ فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل
دم أخيك من يدك. ١٢ متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في
الأرض."

لم يسُد "قايين" على الوحش المفترس؛ فبدأ يلتهمه. فالبغضة والغيرة، تتحولان إلى خداع : "لنخرج إلى حيث لا يستطيع أحد رؤيتنا" . والخداع يؤدي إلى القتل.

وهنا، تكلم الله إلى قايين: " أين هابيل أخوك". قبل ذلك في (٤: ٦)، كان الله بجوار المذبح، يقدم لقايين طريقاً للخروج من مأزقه، طريقاً ليستعيد قبوله . أما هنا، فكان الله مع قايين في الخارج، في الحقل، والقول الذي قاله له، كان يُعَّد مواجهة مباشرة .

وما أعظم التشابه بين السؤال الذي وجَّهه لقايين، وذاك الذي وجَّهه لآدم في الأصحاح الثالث !

" آدم ... أين أنت " ؟ (٣: ٩) .

" قايين ... أين هابيل أخوك " ؟ (٤: ٩) .

والسؤال الشخصي لآدم، تحول إلى سؤال اجتماعي لقايين .

وبالنسبة لوقاحة قايين في قوله : " هل أرعى أنا الراعي؟ " (إذا كان لنا أن نصيغ "العدد ٩ " على نحو تفسيري)، فإن ما يريد سفر التكوين أن يوصّله لنا، إجابة على هذا السؤال، هو للإجابة: "نعم"، وليس أية إجابة أخرى : ذلك أن المسئولية أمام الله، تتضمن المسئولية عن أخوتنا. وقد قيلت هذه العبارة لقايين، ليس عند المذبح، بل خارجاً في الحقل خارجاً في عالمه، في مكان عمله خارجاً في البيئة المألوفة له. وهناك، يدعونا الله لمباشرة مسئوليتنا تجاه أخوتنا .

إن مقاومة قايين للتغيير، حتى هذه النقطة، التي أصبح فيها في مواجهة مباشرة مع الله، قد توضّح لنا كيف يمكن أن يصبح الضمير ميتاً، نتيجة الإصرار على رفض الاستماع إلى الله. والنتيجة، هي: إننا نحكم على أنفسنا، بأننا في موقف مضاد لله، ونضع أنفسنا في معارضة مشيئته - وهذا في حد ذاته دينونة الله علينا. ويعلق "كالفن" Calvin على هذه النقطة قائلاً:

"إن قوة الدينونة الإلهية تُرى بوضوح، لأنها هكذا تخترق قلوب الأشرار الحجرية؛ حتى يضطروا، في سريرة أنفسهم، إلى أن يدينوا أنفسهم، وهي لا تدفعهم إلى هذه المعاناة، لتزيل الإحساس بالذنب الذي أثارته فيهم، بقدر ما تريد ألا تترك أثراً أو نُدبة من آثارها."[1].

وبعبارة أخرى نقول، إن طريقة عمل دينونة الله في حياتنا، هي أنها كثيراً ما تتركنا للدينونة التي حكمنا بها على أنفسنا. فإذا كنا نريد أن نعيش بدون إله؛ فسوف تتركنا لنعيش هكذا!

بل إننا نلمس، هنا، أمراً يتميز بمزيد من الغموض، نجده كامناً في إشارة الله إلى دم هابيل (في العددين ١٠و١١).

"فالدم" والحياة يخصان الله. وسفك دم إنسان، معناه أن تأخذ منه شيئاً يخص الله. ومن بين ركائز الإيمان اليهودي كما في ممارسات العبادة - هو الاقتناع بأن الحياة هي في "الدم" (انظر لا ١٧ : ١١). و"الدم" المسفوك هو أكثر الأشياء التي تُدّنس. وبعد موت هابيل، كان صوت "الدم" - وهو أبلغ من صوت أي خطيب - يصرخ شاكياً. ويشبِّه "وينهام" هذه الصرخة، بصرخة أناس يائسين لا طعام لهم (تك٤١: ٥٥)، متوقعين الموت (خر١٤: ١٠)، إنها صرخة أناس تعرضوا للخطر من أعدائهم (قض٤: ٣)، كما أنها أيضاً صرخة استغاثة امرأة تُغتصب (تث ٢٢: ٢٤ و ٢٧). وهنا دم هابيل " صارخ " طالباً الانتقام. وقولنا هذا، يذكِّر أن "دم" هابيل هو ملكية خاصة لله - وأن الله حارس كل حياة وحاميها، وما كان لقايين أن يأخذها، ومع ذلك، فإذ أخذ قايين دم هابيل؛ فكأنه أصبح بذلك، بمعنى خفي، حارساً لأخيه.

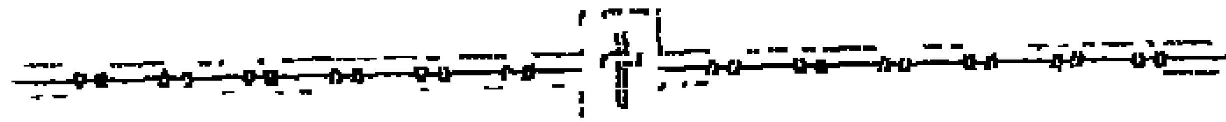
هناك أسلوب صادق لأن نكون حارسين لأخينا، نعبِّر من خلاله عن عنايتنا به والاهتمام بحياته وقبول عطاياه، والترحيب بمساهماته المختلفة، واحترام تقدمته. بينما هناك طريقة معينة، لأن نكون حارسين لأخينا؛ بحيث يكون ذلك من أجل مصلحتنا الخاصة، ويكون ذلك تعبيراً عن غيرة منه، والسعي إلى سيطرتنا عليه بأسلوب هدّام، وأن نأخذ منه ما ليس له حق في أن يعطيه،

---

[1] مرجع سابق، ص ٢٠٦

لأنه ليس ملكه، بل هو مِلك الله. والطريقة الأولى هي طريق المحبة الأخوية، أما الطريقة الثانية فهي طريق قايين.

ومن أبرز الأمثلة على السلوك المماثل لأسلوب قايين في عالمنا الحديث، هو الاستغلال الرهيب للأمم الضعيفة، والتي تعاني من الجوع على أيدي قلة من الأغنياء والأقوياء. وكذا الظلم الاجتماعي، الذي أدى إلى الفاقة والحرمان في العالم الثالث، ورفض أولئك الذين لديهم الكثير أن يعملوا من أجل إعادة توزيع ثروات الأرض، بشكل يحقق المساواة في صالح أولئك الذين ليس لديهم إلا النذر اليسير، والذي معناه أن إخوتنا وأخواتنا يتعرضون للموت بسبب الافتقار إلى المحبة. ودمهم - على غرار دم هابيل - يصرخ إلى الله من الأرض. وما من أحد بمقدوره أن يؤذي أخاه، دون أن يجرح الله نفسه.



٧. أرض نود

(٤ : ١٣- ١٤)

"١٣ فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يحتمل. ١٤ إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. "

إن طريق قايين يؤدي إلى أرض القلق (٤ : ١٦). فلا سلام للإنسان، إلا إذا استطاع أن يكتشف حرية الحياة في إطار عناية الله، وأن يرى أن حياته هي موضع اهتمامه، وأن يؤمن بأن خيره الأعظم إنما هو في العيش بحسب مشيئته. ذلك أن مشيئة الله تعبِّر عن طبيعة الله الصالحة، كما تعبّر أيضاً عن نموذج الحياة الأمثل لخير شعبه . فمشيئة الله، هي صلاحه، تعبِّر عنه مشيئته.

في إحدى المعضلات القديمة، في فلسفة السلوك الأخلاقي، تلك التي وصفها "أفلاطون" أولاً، في حواره المسمى " المعضلة" (Euthyphro). وبعبارة مبسّطة للغاية، كان السؤال هو: هل يُعَد الشيء صالحاً، لأن الله يريده، أم أن الله يريد أموراً لأنها صالحة ؟! ووضع السؤالين على هذا النحو، يشكّل لنا معضلة نعجز عن حلها . فإذا قلنا إن شيئاً ما صالح، لأن الله يريده؛ فإن هذا يعطي فكرة اعتباطية للغاية عن الصلاح . فإن ما يشاؤه الله، سيكون في هذه الحالة بالتحديد صالحاً، وإذا ما شاء الله شيئاً نسميه نحن شرّاً؛ فإنه رغم ذلك، يكون صالحاً. ولنا الحق في ألا نسعد بهذا، لأننا نريد أن ما يقول عنه الله "أنه حسن"، متفق مع المعنى الأساسي الذي نفهمه نحن عما هو صالح . بيد أن الوجه الآخر لهذه المعضلة، ربما يكون أسوأ، لأن هذا يبدو، أنه يُوحي بأنه يوجد معيار للصلاح خارج الله، ويجب أن تتناغم مشيئته معه. وإذا كان الأمر كذلك؛ فلن يكون الله، هو الله لأنه في هذه الحالة عليه أن يخضع لسلطة أعلى .

أما الطريقة التي تغلب بها الإيمان الكتابي على هذه المعضلة، فتتمثل في قوله إن الله إنما هو الإله الذي تتناغم مشيئته مع ما يعمل من أجل ما هو أفضل لحياة الإنسان . وهذه إحدى السمات المميزة لديانة شعب الله في القديم، إذا ما قُورنت بالديانات الوثنية المحيطة بهم، لأنه بينما كانت هذه الآلهة الوثنية مقيدة بقوة أعلى مجهولة ، فإن " يهوه " إله إسرائيل لا يخضع لأحد .

فهو الإله الحقيقي وحده، "الرب" (Yahweh)، الذي تستمد منه كل الأشياء كيانها . وطريق السلام هو أن تعيش بحسب مشيئة الله .

غير أنه حينما ننفصل عن الله – كما حدث مع قايين؛ فسوف يسود عالمنا القلق والحيرة بصفة مستمرة. لأن شبعنا إنما هو في الله، أما في أي مكان آخر كما قال أغسطينوس، فلن ترتاح قلوبنا إلا في الله .

وهنا أيضاً يصيب تعليق "كالفن" Calvin الهدف :

"لا سلام للإنسان، ما لم يستكن للحياة في ظل العناية الإلهية، ويقتنع بأن حياته هي موضوع اهتمام الله . . . . ولن يستطيع أن ينعم بخيرات الله في هدوء؛ إلا إذا أدرك أنه وُضع في العالم على هذا الأساس، ألا وهو أن يقضي حياته في ظل حكم الله."[1]

غير أن قايين، بدلاً من ذلك، سمع لعنة الرب " ملعون أنت من الأرض " - بمعنى أنك مطرود. ولعل العبارة - كما يقول "كاسوتو" Cassuto - تعني أيضاً أنه كما صرخ دم هابيل من الأرض، فهكذا تلعن الأرض الآن قايين . وكما أن (تك ٤) يأتي بعد (تك٣)، مشيراً إلى انتشار الخطية ونموها، فإنه يشير أيضاً إلى تعميق دينونة الله. ذلك أن الأصحاح الثالث يبيّن أن اللعنة قد وقعت على الحية والأرض، أما الآن، فقد وُجهّت اللعنة إلى الإنسان . وقد اعتبر قايين نفسه " مطروداً " (تك ٤ : ١٤)؛ مطروداً من الله، ومطروداً من بيته .

وهكذا، ابتعد قايين عن محضر الرب، وأصبح " تائهاً وهارباً " (تك٤ : ١٢) . وبذلك، أصبحت حياته الآن حياة التيه والبحث، وتملكته رؤى الرعب (" كل من وجدني يقتلني " ، ٤ : ١٤)، يطارده الدم الصارخ، ويلاحقه الخوف، وبعبارة أخرى، سيطر القلق على كل مناحي حياته .

وقد علّق "هيلموت ثيليك" H. Thielicke على هذه الأعداد بقوله :

"حين يصبح العالم بلا أب؛ يصبح مكاناً غريباً ، وأجد نفسي مدفوعاً إلى هروب لا نهاية له، فتصبح كل شجرة وكل معلمٍ في الطريق مصدراً للتهديد. ومن ثم ، أحاول أن أطرد هذا الحظ العاثر بتعويذة، تتدلى من سقف سيارتي. أو أستشير النجوم، لعلها تهديني إلى طريقة أستطيع بها أن أتفادى الإمساك بي، في أثناء محاولتي الهروب من حظي العاثر، أو أحصل على أرقام سعيدة، لكي تزيد فرصتي في الحياة، أو أكتشف التواريخ والأرقام التي يتعيّن عليّ أن أكون على

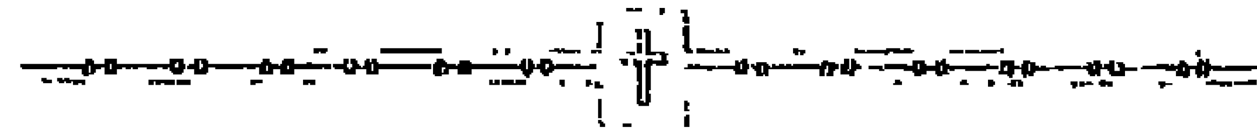
---

[1] مرجع سابق، Calvin,p212;.

حذر منها، لأنها أوقات سيئة الطالع! هذا هو قانون الحياة في "أرض نود" بعد أن يتلاشى الأمن الذي يشعر به الإنسان في بيئته وبين أهله "[١].

وهذا هو القلق الذي يسميه الفيلسوف الوجودي المؤمن "كير كجارد" Kierkegaard "المرض المفضي إلى الموت". ذلك أن قايين الذي تملّكه القلق، لم يفقد صلته بالله فقط، بل فقد الأرض أيضاً. فالأرض التي كانت تعوله، قد شربت الآن دم هابيل؛ وعلى ذلك : " فلن تعود تعطيه قوتها " (تك٤: ١٢). لقد اضطرب كيان قايين من جميع النواحي.

وهذا هو قلقه -وهذه هي أرض القلق - والحنين في اليأس إلى الوطن والأسرة، وهو الأمر الذي يسود "أرض نود" . أليس هذا كله هو ما يحيط بنا ؟! ألا يُصوِّر القلق الذي انتاب حياة قايين- في صورة حية-الحياة في البُعد عن محضر الله ؟!!



(١) مرجع سابق: Thielicke, p 218.

٨. علامة قايين

(٤: ١٥ - ٢٤)

"١٥ فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. ١٦ فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقيّ عدن.

١٧ وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك. وكان يبني مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. ١٨ ووُلد لحنوك عيراد. وعيراد ولد محويائيل. ومحويائيل ولد متوشائيل ومتوشائيل ولد لامك. ١٩ واتّخذ لامك لنفسه امرأتين. اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلّة. ٢٠ فولدت عادة يابال. الذي كان أباً لساكني الخيام ورعاة المواشي. ٢١ واسم أخيه يوبال. الذي كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. ٢٢ وصلّة أيضاً ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد. وأخت توبال قايين نعمة. ٢٣ وقال لامك لامرأتيه عادة وصلّة. اسمعا قولي يا مرأتي لامك. وأصغيا لكلامي. فإني قتلت رجلاً لجرحي. وفتى لشدخي. ٢٤ إنه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف. وأما للامك فسبعة وسبعين."

إن الحديث عن القلق الذي ساد حياة قايين، لا يعني على الإطلاق القول بأن حياة قايبن كانت كلها بلا قيمة. ذلك أنه على الرغم من القلق الذي تملّكه، كان نشطاً ومبدعاً. فقد بنى مدينة (٤: ١٧)، وكان أباً لعائلة (٤: ١٨)، كما طوّر أحفاده الزراعة (٤: ٢٠) ، ومنهم من كان يضرب بالعود والمزمار (٤: ٢١)، وآخرون كانوا يصنعون آلات من نحاس وحديد (٤: ٢٢)، وبدأت الحضارة تنمو خارج عدن. بل، كانت ثمة ثقافة وفن، حتى في أرض القلق (في نود) . ومما يدعو للدهشة، أن تكليف الله لشعبه بالعمل وإخضاع الخليقة، قد بدأ يتحقق على يد قايين التائه الهارب الضال!

ولعل هذا كان أحد معاني العلامة التي جعلها الرب لقايين (٤ : ١٥)، فلم تكن هذه علامة دينونة إلهية، بل علامة حماية إلهية وقيداً إلهياً. وقد كان الغرض منها، كبح الانتقام من قايين. فالله لم يتخل عن قايين، بل وضعه تحت ذرعٍ واقٍ. ولم يُسمح بأن تكون اليد الطولى لقانون الثأر. لكن كانت خشية قايين، هي أنه ربما يرى الآخرين في الحماية التي وفرتها له العناية الإلهية، سابقة طيبة؛ ومن ثم يسيرون على نهجه، ويفعلون ما فعله هو، فيقتلونه. ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو، لأن علامة الحماية هذه، كانت في ذات الوقت علامة تحذير، حتى لا يقلّد أحد قايين، فما من أحد يستطيع أن يتخذ من العادة عذراً لارتكابه الخطية.

إن مقاصد الله لا تتحقق من خلال الأخذ بالثأر، ثم أن العلامة التي جعلها الله على قايين، لم تكن تشكّل حماية تشفيه من لهفة حنينه إلى وطنه، ولكنها حالت، بالفعل، دون أن تعمل قوة الشر التدميرية بكامل طاقتها. فكان قايين الضال يحمل علامة الله، حتى وهو متغرب في بلاد بعيدة .

ولعل البعض من عمليات التنظيم، لما نسميه الحضارة، تعمل كدروع واقية، وذلك رحمة من الله بشعبه. فإن الله يكبح قوى الشر الطبيعية، وذلك بتنظيم المجتمعات، وإقامة الحكومات، واحياء الثقافة. والله يهتم بنمو الفن، والمجتمع، والتكنولوجيا، حتى في عالم بعيد ويشتاق إليه، بل، وبالنسبة لشعب لم يلمس محبته. فأبناء قايين، أيضاً، كانت لهم مواهب من الله (تك٤: ١٧ - ٢٢)

ويستحق الأمر أن نقتبس مرة أخرى، ما قاله "كالفن" Calvin. فكثيراً ما كان يُعتبر لاهوتياً، يحظى بحكمة إلهية، فقد كان "كالفن"- أكثر مَن أوضح "نعمة الله الشاملة".

"وإنه لما يدعو إلى الدهشة، حقاً، أن هذا النسل، الذي كان أبعد ما يكون عن الأمانة، يتفوق على بقية نسل آدم، بما أُعطى من مواهب نادرة . . . فلنعرف إذاً، أنه على الرغم من حرمان أبناء قايين من روح الولادة الجديدة، إلا أنهم أُعطوا مواهب لا يمكن الازدراء بها، تماماً مثلما تعلّمنا خبرة كل الأجيال،كيف أن أشعة النور الإلهي قد أشرقت - وبشكل واسع- على أمم غير مؤمنة، وذلك من أجل فائدة الحياة الحاضرة. كما أننا نلمس في العصر الحاضر أن مواهب الروح العظيمة قد انتشرت بين الجنس البشري كله."[1].

---

[1] مرجع سابق، Calvin,p218.

وهناك الكثير في عالم الفنون والعلوم، مما يشهد على أن نعمة الخالق العامة، ومواهبه المغنية، موجودة، حتى، بين أولئك الذين لا يعترفون به، والذين لا ينسبون مهاراتهم إلى القدرة التي منحها إياهم. ليتنا نشكر الله على أن كل تعبير، من الابداع والجمال، وكل تقدم للعلم، وكل جديد في الموسيقى، وكل بيت من الشعر، يتحدث بقدر ما عن نعمة الله الخلاقة .

غير أنه، مما يُؤسف له، أن هذا ليس كل ما في الموضوع. فكل هذا الخير الإيجابي، كان لابد أن يلحقه الفساد! لأنه على الرغم من أن الله كان يحمي قايين، إلا أنه كان لا يزال يواصل البحث عن الأمن بعيداً عن الله! حيث أن هناك هدفاً آخر من بناء المدينة، نلمسه فيما ترمز إليه هذه المدينة، باعتبارها مكان آمن من صنع الإنسان في أرض القلق. ولقد كانت هذه المدينة - كما ذُكر لنا - تقع شرقي عدن، كما لو كانت توجّه النظر لدى قايين إلى جنة عدن. ولكنه بدلاً من أن يرجع إلى مكان السرور الإلهي، حيث يجد الأمن؛ أراد أن يوّفر بدلاً من الأمن عوض الأمن الذي يمنحه الله.

وكما يذكر "إيلول" J. Ellul، دعا قايين اسم المدينة "حنوك"، وهو نفس الاسم الذي أطلقه على ابنه. فهل كان قايين يسعى، هنا، إلى أن يصنع لنفسه ولعائلته اسماً ؟

إذا كان الأمر كذلك، فسوف يكون هذا هو الموضوع الذي ستعرض له (الأصحاحات ١-١١) من سفر التكوين. و "حنوك " اسم قد يعني "تكريساً"، أو"بداية". وهكذا، فإن قايين كان يبدأ ثانية. غير أنه كما يقول "إيلول":

"من وجهة نظر قايين، لم تكن هذه بداية ثانية، بل البداية. فقد كان ينظر إلى خليقة الله على أنها لا شيء. فالله في رأيه لم يعمل شيئاً، ولم يستكمل شيئاً في أية ناحية. والآن، فقد حدثت بداية ما، ولم يكن الله هو الذي بدأها، بل الإنسان. وهكذا، كان قايين، بكل شيء يعمله، يزيد من عمق الهوة التي تفصل بينه وبين الله."(١).

وبينما لا نؤيد، بشكل تام، النظرة اليائسة التي عبَّر عنها "إيلول"، بالنسبة لما تعنيه المدينة، كرمز لعمل الإنسان في مواجهة الله، إلا أنه من المؤكد أنه كان مُحِقاً في تذكيرنا ثانية بغموض الحياة خارج الجنة.

وفي هذا الأصحاح، نجد أن غموض الأمر كله، تم إبرازه بلا غموض. فالإنجاز الفني، جاء بالمقابلة مع الانحراف الأخلاقي. فإن تعدد الزوجات (٤ : ١٩)، والعنف والوحشية، ومحاولة تأكيد

---

(١) J. Ellul, *The Meaning of the city* (Eerdmans, 1970) p.6.

الذات (٤: ٢٣- ٢٤) - على الرغم من يد الله الكابحة مازالت من سمات الحياة في أرض القلق (نود).

وقد قدَّم طبيب الأمراض النفسية "لينج" R.D.Laing ، وهو من أنصار "الحركة الإنسانية" (Humanism) - تحليلاً مماثلاً :

"نحن نُولد في عالم تنتظرنا فيه "الغربة". فنحن موجودون؛ لنعيش كبشر، ولكن في حالة غربية، وهذه الحالة ليست ببساطة نظاماً طبيعياً، فالغربة، بصفتها مصيرنا الحالي، لا تأتي إلا نتيجة العنف الوحشي الذي يمارسه الإنسان ضد أخيه الإنسان."[١].

ولقد اختص (تك٤) "لامك" بالتعليق عليه. وكما يقول " كيدنر" kedner في ملاحظته على (العدد ٢٤) : "إنَّ أغنية "لامك" التهكمية، تكشف لنا عن التقدم السريع للخطية. فبينما خضع قايين لها (العدد ٧)، نجد أن "لامك" يفخر بها."[٢].

ويتباهي لامك بأنه قتل طفلاً صغيراً، لأنه جرحه! ويعلن أنه سينتقم سبعاً وسبعين مرة! ولقد تخطى "لامك"، إلى حد بعيد، الحدود التي وضعها الله، والتي طُبِّقت على قايين (انظر تك٤: ١٥).

وما "لامك"، إلا واحد من بين كثيرين، في هذا الأصحاح، ممن يحاولون انتهاك الحدود التي وضعها الله، فلشريعة الثأر عنده أسمى مقام، وهو أكثر قسوة إلى حد كبير- من قانون " الجزاء من جنس العمل"، الذي كان أساس الناموس الإسرائيلي القديم . ففي ذلك الناموس (خر٢١: ٢٢-٢٥)، لم تكن العدالة تطلب أكثر من عين بعين ، وسن لسن. ولولا هذا الناموس، الذي يحمي الناس، (كما يقول وينهام)، فإنه، حتى الأقوياء بدنياً- ناهيك عن الضعفاء- يكونون تحت رحمة أشخاص على شاكلة "لامك".

ومن المؤكد أن ما جاء في (تك٤: ٢٤)، كان في فكر السيد المسيح حين حثَّ. ليس على الانتقام، بل على الغفران إلى " سبعين مرة سبع مرات " (انظر مت ١٨: ٢٢). والعبد الذي سامحه سيده عن مبلغ كبير جداً، ثم طالب عبداً زميله أن يسدّد له ديناً تافهاً؛ صدر ضده حكم شديد. ذلك أنه بمسلكه هذا تجاه زميله، أظهر أنه لم يُقدِّر إطلاقاً عِظم ما سامحه به سيده. لذا.. فطريق ملكوت السموات، هو على النقيض تماماً من شريعة الأخذ بالثأر.

---

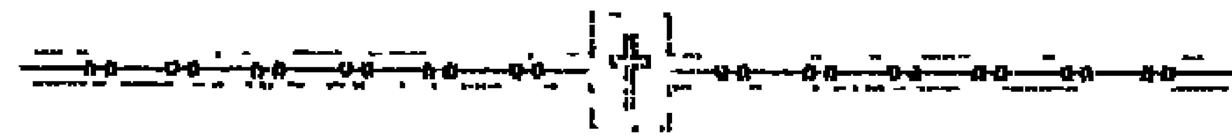
[١] R. D. Laing, *The Politics of Experirnce* (penguin, 1967),p.12.

[٢] مرجع سابق، Kidner, p78.

إننا في كل مكان نجد "قايين" ، فقايين هو كل إنسان امتلأ قلبه بالحسد والبغضة الوحشية والخوف من الثأر، والقلق والافتقار إلى الراحة. ويُلاحظ أن قايين لم يأت إلى الله في اتكال متواضع على نعمته، بل جاء، وقد امتلأ غروراً وغطرسة.

ولكن "هابيل" قدَّم حملاً، وذبيحة الحَمَل التي قدَّمها هابيل، بالإيمان، تقبَّلها الله. وكما نقرأ في (عب١١: ٤)، **فإن هابيل، وضَّح لنا، هنا، أسلوباً تناوله الكتاب المقدس بإسهاب، المرة تلو الأخرى، وهو أن التقدم إلى الله، من العالم الساقط، هو على أساس ذبيحة؛ على أساس حياة وُضعت حتى الموت، وعلى أساس سفك دم حَمَل.** وما لم يكن هابيل يعرفه، هو أنه في ترتيب الله، سيكون هناك حمل آخر يصرخ دمه المسفوك إلى الله، نيابةً عن جميع البشر. **وفي هذا الحمل الآخر، يعطي الله رده النهائي لقايين.** ذلك أنه في المسيح، يُنَّحي جانباً قانون الأخذ بالثأر إلى الأبد: " ظُلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاة تُساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه" (انظر إش٥٣: ٧)، "الذي إذ شُتم لم يكن يشتم عوضاً وإذ تألم لم يكن يهدد بل كان يسلِّم لمن يقضي بعدل. "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة " (١بط٢: ٢٣، ٢٤).

تمت الكفارة عن الخطية، وفيه أعطينا اسماً جديداً: نصيباً في اسمه. وفيه، يمكن أن يُطرح الخوف إلى خارج، ويتلاشى القلق. فيه يمكن للضال الذي يشتهي الرجوع إلى بيته، أن يسمع صوت الترحيب بعودته، ويبدأ ثانية في أن يتعلم كيف يحب أخاه .



٩. شيث

(٤: ٢٥- ٢٦)

"٢٥ وعرف آدم امرأته أيضاً. فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً. قائلة لأن الله قد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل. لأن قايين كان قد قتله. ٢٦ ولشيث أيضاً وُلد ابنٌ فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتُدئ أن يدعى باسم الرب. "

نعود الآن إلى آدم وعائلته. حيث تتواصل قصة التاريخ البدائي: " وعرف آدم امرأته " (٤: ٢٥) - ومن علاقتهما الحميمة؛ وُلد "شيث". واسم "شيث" معناه: (مُعين) أو "بديل". فإيمان حواء، هنا، بأن الله قد عيَّن شيثاً، جاء في تناقض صارخ مع ادّعائها في بداية الأصحاح الرابع. ويرى كثيرون من المفسرين، أن حواء، في ذلك الموقف، كانت أقل شعوراً بالكبرياء وبحلاوة النصرة. فهي إذ تنعي فقدانها ابنيها، تقول إن الله هو الذي (عيَّن) ولداً آخر، عوض هابيل. ولم تستخدم الاسم الشخصي "يهوه" (الرب Yahweh) والذي استخدمته في (٤: ١)، ولعلها كانت تنظر إلى الله، في ذلك الموقف، على أنه الخالق العظيم (Majestic Creator)، أكثر مما تراه كالرب الحميم (Intimate Lord). ولعل هنا إشارة تعود بنا إلى (٣: ١٥)، وذلك في كلمة نسل (" الله وضع لي نسلاً آخر ") - ولعلها كانت تتطلع أيضاً إلى المستقبل، إلى نسل جديد من هذا الابن.

ويقول (العدد ٢٦) " حينئذ ابتُدئ أن يُدعى باسم الرب " - حيث تشير، هنا، إلى عبادة "يهوه"، (Yahweh)، الإله الذي يرتبط اسمه الشخصي بشعب العهد.

لقد كان الكُتّاب المسيحيون، في بعض الأحيان، يضعون عائلة قايين، التي عُرفت بتغربها عن الله، في مقابلة مع العائلة الجديدة التي وُلدت بالإيمان (بيهوه). وهنا، نرى - كما يقول البعض رمزاً للكنيسة. وقد يُنظَر إلى "شيث" على أنه رجل تقي أمين، فبعد أن وُلد له ابن مثله؛ بدأ يظهر "وجه الكنيسة". ولكن يصعب القول، ما إذا كانت مثل هذه الأفكار، قد ألمحت إليها هذه الأصحاحات أم لا. وأحد أهداف تضمين الأصحاحات سلسلة الأنساب الموجزة هذه، هو أن يقودنا إلى قصة نوح والطوفان. لأنه من هذا النسل، من آدم، وعن طريق شيث، وُلد نُوح، الذي كان " كارزاً

للبر " (٢بط٢: ٥) . ومع ذلك ، فإنه من الجلي أن الإيمان يتلألأ عبر هذه الأقوال. فعلى الرغم من كل ما تُحدثه الخطية من خراب، وانتشارها عبر الأجيال، وعنفها، وانتقامها، وغضبها القاتل، وما تولِّده من عزلة واغتراب وقلق والاضطرابات، وعلى الرغم من الأمور الغامضة التي تشوب الحياة في هذا العالم الساقط؛ إلا أنه مع ذلك يمكن أن يُعرف الله. هذا ما قالته حواء في صيحة إيمانها (٤: ٢٥)، كما نقرأ القول : " حينئذ ابتُدئ أن يُدعى باسم الرب " (٤: ٢٦) .

الباب الرابع

مركز العاصفة

[أصحاح ٥:١ - أصحاح ٨:٢٢]

لا تواجهنا "قصة الطوفان" بإيمان نوح وطول أناة الله فحسب، بل تضع ذلك أيضاً في سياق رؤيوي من تاريخ العالم ونعمة الله السامية. ويخبرنا "الفيضان" عن نهاية نظام قديم، وعن بدايةٍ جديدة له. **إنها قصة الخلاص، منسوجة في خلفية نسيج الخليقة، وعناية الله ودينونته. وهو خلاص، لا يقتصر على رجل وعائلته، بل للعنصر البشري كله، ولكل كائن حي. إنها تتكلم عن البقاء، في وقت كان نسيج كل شيء مهدداً بالانقراض. إنها قصة تناسب، على وجه الخصوص، عالماً يواجه كارثة عالمية، وتعرفنا بأن الله يظل ملتزماً نحو عالمه.**

ولقد سبق أن علّقنا على الأزمات التي تواجه الحياة على هذه الأرض، فنحن نستهلك على نحو سريع المواد الخام والوقود المستخرجين من باطن الأرض، وكما نلوِّث الهواء والبحار، وندمّر – وعلى نطاق واسع – غابات لا يمكن تعويضها. ونخلق صوبة عالمية، من المحتمل أن يكون لها عواقب رهيبة. وثمة أجناس من الحيوانات، في طريقها إلى الانقراض، على نحو سريع. وأخطار الإشعاع، التي يتسبب فيها الإنسان، تجعل أجزاءً من العالم غير قابلة للسُكنى. ثم إن الدول الغنية تبدد بلايين الدولارات على أسلحة الدمار الشامل الأكثر تعقيداً، ونظرية الردع التي يتبنونها تقوم على أساس التهديد والخداع. واحتمالات إبادة جماعية نووية، يعقبها شتاء نووي، تظل قائمة بصفة دائمة. كما تزداد جرائم العنف، وتغرق مجتمعاتنا، أكثر فأكثر، في لجة من الخوف – وفي اللامبالاة والكآبة اللتين تنجمان عن الخوف. وقد يتخذ الموت، بسبب الفيروسات الجديدة الفتاكة شكلا وبائيا.

هناك حروب وأخبار حروب، أمة تقوم على أمة، ومملكة على مملكة. هناك مجاعات وزلازل في أماكن مختلفة من العالم، كما يتخلى الكثيرون عن إيمانهم، وتنتشر الخيانة والكراهية في كل مكان. والأنبياء الكذبة آخذون في الظهور هنا وهناك بمذاهبهم المنحرفة، واعدين بآمال عريضة، لا يمكنهم تحقيقها؛ فيصبح كل ما حولنا هو مظاهر الأيام الأخيرة.

وفي إطار ظروف، كهذه، أدلى الرب يسوع بإشارته الوحيدة إلى قصة نوح، فقال: " وكما كان في أيام نوح كذلك يكون أيضا في أيام ابن الإنسان " (لو١٧: ٢٦، انظر أيضا مت٢٤: ٣٧). ولقد كان قصد المسيح من هذا القول ينصب على نهاية الزمان، واستخدامه لقصة نوح، يوضح حقيقة أن دينونة الله آتية على العالم، ومع ذلك، فإن الناس يواصلون ما هم عليه، دون أدنى مبالاة. ويبدو الأمر، كما لو كانوا يقولون: "لن يحدث ذلك بالنسبة لنا!". "ولم يعلموا حتى جاء

الطوفان وأخذ الجميع " (مت ٢٤: ٣٩). لذلك، يقول الرب يسوع : "اسهروا إذا لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم " (مت٢٤: ٤٢). **ليت قصة الطوفان تكون تحذيرا لأن نأخذ كلام الله بصورة جادة .**

لذا.. فقصة نوح ليست مجرد قصة من قصص مدارس الأحد، بل إنها تتناول تاريخ العالم، وديننونته، ومصيره، وخلاصه.

ومع ذلك ، وكما أوضح "ريتشارد بوكهام" Richard Bauckham بكل جلاء، فإن الموضوعات الرؤيوية التي نواجه عالمنا، تختلف عن تلك التي في قصة نوح. فهناك، كان التهديد الذي يواجه البقاء يأتي من خارج، أي من قوى الطبيعة. وكان وعد الله هو أنه لن يكون ثمة فيضان آخر على الإطلاق. وأما الموضوعات المتعلقة بمصير الإنسانية، سواء ما يتصل منها بالتلوثات البيئية، أو الإبادة النووية الشاملة، هي موضوعات جلبناها نحن على أنفسنا، فنحن نمتلك قوة تدمير العالم، والله لا يعد بأنه سوف يمنعنا من إتيان ذلك. وعلى هذا ، ينبغي أن نكون مستعدين أن نقرأ هذه القصة، ليس على أنها مجرد تأكيد إلهي بالأمن، بل نأخذ التزام الله بخير العالم. كتوبيخ لكبريائنا، وتبجحنا، وتهورنا. وإذا كان الله ملتزما نحو عالمه، فكيف إذا نجرأ على أن نأخذ حق إصدار قرارات تتعلق بمصير العالم، وهو الأمر الذي يخص الله وحده؟!"[١]

والقصة تستغرق الأصحاحات (٦- ٩) من سفر التكوين. والكثير مما جاء بها، له نظائره في قصص الطوفان الواردة في نصوص قديمة أخرى، تنتمي إلى دول في الشرق الأوسط . فهناك قصة بابلية في " ملحمة جيلجامش " الشهيرة، والتي نرى البطل فيها يكتسب الخلود، بالمرور عبر مياه طوفان. فبعد أن حذر الإله " يوتنا بشتيم " في حلم، فقد تم إنقاذه، مع جميع أنواع الحيوانات من مياه الطوفان، عن طريق سفينة ضخمة. ولقد استقرت السفينة على جبل، وقد أرسل " يوتنا بشتيم " إلى الخارج حمامة وسنونة وغرابا . وقدم البطل ذبيحة إلى الآلهة، الذين منحوا بدورهم الخلود " ليوتنا بشتيم " وزوجته. وقد قدمت قلادة من اللازورد تذكارا لهذا الحدث .

كما، توجد أيضا قصة طوفان سومرية، تصور الكثير من موضوعات مماثلة . ومن المؤكد أنه كانت هناك طوفانات في تواريخ قديمة جدا، كما يستدل عليه من الاكتشافات الأثرية في أور الكلدانيين، وفي غيرها من مدن ما بين النهرين. ومع ذلك ، ليس ثمة اتساق بين التواريخ كلها، غير

---

(١) The Genesis flood and the Nuclear Holocaust: A Hermeneutical Reflection, *churchman*, 1985, no. 2, pp.146 ff.

أنه لا توجد قصة طوفان في الكتابات القديمة لمصر - على سبيل المثال - وبكل تأكيد، لا يوجد دليل مستمد من الآثار، تم قبوله، على نطاق واسع، بالنسبة لطوفان شمل العالم كله .

أما ما يبدو أنه أمر مؤكد بالفعل، فهو انه يوجد بين نهري دجلة والفرات تاريخ لطوفان عنيف، وأن هذه الأحداث الدامية قد ألمت بها الشعوب، وقد فسروها على أن لها مغزى دينيا خاصا. **وبساطة القصة الكتابية، بالمقارنة بالقصة البابلية، توحي بأن شعب الرب (يهوه) تركوا قصتهم، بلا تنميق أو زخرفة، بعكس ما اتسمت به ملحمة جلجامش. وفي القصة الكتابية، جاء الفهم الذاتي للشعب من معرفتهم أنهم شعب الرب (يهوه)، وقد أكد تفسيرهم للطوفان الأهمية التي أضفاها على هذا الأمر.**

إن إعلان الله عن حقه، يأتي دائما من خلال حادث وتفسيره: فمن كان بوسعه أن يتصور أهمية الحية، وقوس قزح، والختان، والمعمودية، أو موت نجار على تل في اليهودية؟! فلقد اكتسبت هذه الأحداث أهميتها؛ نتيجة ما قاله الله عنها . فالإعلان الإلهي؛ متأصل في حقيقة موضوعية - فهناك موضوعية في الحق الإلهي. ولكن الحقائق تصبح من مقاصد الوحي الإلهي نتيجة الأهمية التي تضفيها عليها الكلمة الإلهية. وقصة الطوفان، كما جاءت في سفر التكوين، هي عن الله : عن دينونته وبركته وعهده .



١. من آدم إلى نوح :

(١:٥- ٣٢)

"١ هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله. ٢ ذكرا وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق. ٣ وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولد ولدا عل شبهه كصورته ودعا اسمه شيئا. ٤ وكانت أيام آدم بعدما ولد شيئا ثماني مئة سنة وولد بنين وبنات. ٥ فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ومات.

٦ وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش. ٧ وعاش شيث بعدما ولد أنوش ثماني مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات. ٨ فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتي عشرة سنة ومات.

٩ وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان. ١٠ وعاش أنوش بعدما ولد قينان ثماني مئة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات. ١١ فكانت كل أيام أنوش تسع مئة وخمس سنين ومات.

١٢ وعاش قينان سبعين سنة وولد مهللئيل. ١٣ وعاش قينان بعدما ولد مهللئيل ثماني مئة وأربعين سنة وولد بنين وبنات. ١٤ فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات.

١٥ وعاش مهللئيل خمسا وستين سنة وولد يارد. ١٦ وعاش مهللئيل بعدما ولد يارد ثماني مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات. ١٧ فكانت كل أيام مهللئيل ثماني مئة وخمسا وتسعين سنة ومات.

١٨ وعاش يارد مئة واثنتين وستين سنة وولد أخنوخ. ١٩ وعاش يارد بعدما ولد أخنوخ ثماني مئة سنة وولد بنين وبنات. ٢٠ فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنتين وستين سنة ومات.

٢١ وعاش اخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح. ٢٢ وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد
متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات. ٢٣ فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين
سنة. ٢٤ وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه.
٢٥ وعاش متوشالح مئة وسبعا وثمانين سنة وولد لامك. ٢٦ وعاش متوشالح بعدما ولد
لامك سبع مئة واثنتين وثمانين سنة وولد بنين وبنات. ٢٧ فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة وتسعا
وستين سنة ومات.
٢٨ وعاش لامك مئة واثنتين وثمانين سنة وولد ابنا. ٢٩ ودعا اسمه نوحا. قائلا هذا يعزينا
عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب. ٣٠ وعاش لامك بعدما ولد نوحا خمس
مئة وخمسا وتسعين سنة وولد بنين وبنات. ٣١ فكانت كل أيام لامك سبع مئة وسبعا وسبعين
سنة ومات.
٣٢ وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساما وحاما ويافث."

إن قصة الطوفان، كما جاءت في كتابنا المقدس، قد استهلت بسلسلة أنساب. وسلاسل الأنساب تهيئ المشهد من الناحية التاريخية. ونفس هذا النهج، نجده في أناجيل العهد الجديد، فعند بداية قصص الخلاص بيسوع المسيح، التي ذكرها كل من متى ولوقا، نجد قوائم بالأسلاف (مت١: ١- ١٧ ، لو٣: ٢٣- ٣٨)، فنرى الخط الذي انتهجه الله في معاملاته مع شعبه، قد تم تتبعه من جيل إلى جيل. وهذا يذكرنا بالروابط المشتركة، بيننا، نحن البشر، وتوجهنا نحو إله يعمل في التاريخ. وكما في الأناجيل، كذلك هنا في تكوين(١- ١١)، تستهل قصة الخلاص بهذا العرض التاريخي - وبتاريخ صور من الناحية اللاهوتية.

ومما تجدر الإشارة إليه - كما يقول وينهام - أنه في قصة الطوفان السومرية (وقد ذكرنا التشابهات في قصة قايين وهابيل، وذلك في الإشارات إلى التيهان ، وبناء المدينة، وبدايات العبادة

الجمهورية)، كما سبق وصف الطوفان هناك أيضا، بالإشارة إلى الملوك الذين حكموا قبل الطوفان – وبعضهم حكم لمدة طويلة على غير المعهود. والتشابه بين قوائم ملوك السومريين، وقوائم الأجيال في (تك٥)، لاحظه كثيرون من المفسرين. وعلى الرغم من ذلك، كما يقول "وينهام"[1]، هناك اختلافات جوهرية في الأسماء، والأزمنة والأهداف التي ترمي إليها هذه القصص المختلفة. وهذا مرده- كما سبق توضيحه آنفا- إن سفر التكوين يدور حول فكر لاهوتي معين .

فما الذي يدور في هذا الأصحاح الغريب ؟!

هنا.. نجد، بصفة خاصة، ثلاثة خيوط مجدولة معا : بركة خلاقة، وديْنونة، وشركة مع الله.

أ. البركـــة

حسب الصيغة التي تشير إلى " القصة المستمرة" ("هذه مبادئ" . . . ، انظر: تسلسل القصة عند التعليق على ٢: ٤)، يفتتح (تك٥) بموجز عن الخليقة، والبشرية المشتركة للذكر والأنثى في الشبه الإلهي، وميلاد شيث على شبه أبيه وصورته.

وصورة عائلة آدم هذه. وقد كانوا جميعا على صورة الله وشبهه. كثيرا ما اتخذت في الكنيسة الشرقية رمزا للثالوث، وهذا ما أدى بنا إلى فهم ما يمكن أن نسميه "تعليما اجتماعيا" عن الصورة الإلهية. فليس الإنسان، كفرد، هو الذي يمثل الله بشكل تام، بل، وليس الزوجان الأولان، آدم وحواء، بل العائلة الأولى . ومع أن هذا التفسير لم يلق قبولا في الكنيسة الغربية، ومن الواضح أنه تخطى مضمون النص، إلا أنه يذكرنا فعلا بمجتمع الخليقة، بأن الله كائن في شركة، وأن الإنسان قصد به أن يعكس حياة الثالوث – أي العلاقات الشخصية من ناحية الشركة والمحبة.

وهنا، يأخذ الكتاب في وصف طويل للأجيال. وقد تم التعبير عن بركة الله الخلاقة للبشرية – بصفة جزئية – في الأهمية التي أضفاها الله على أشخاص محددين. وقد ذكرت في هذا الأصحاح أسماء عشرة من الآباء، وأعمارهم، وأسماء أبنائهم أيضا. غير أنه تم التعبير أيضا عن بركة الله . ولعل ذلك بإسهاب. في إطار الارتباطات المتبادلة. فأن تكون إنسانا؛ معناه أن تكون منخرطا في مجموعة معينة من العلاقات، وأن تكون مخلوقا في الزمان: لك ماض، وحاضر، ومستقبل. وكما لاحظنا حين كنا نناقش معنى الصورة الإلهية (انظر التعليق على ١: ٢٦، ٢٧)، **فإن معنى أن تكون على صورة الله، هو أن تكون أساسا في علاقة معينة معه. فعلاقتنا مع الله، إذا، هي التي**

[1] مرجع سابق، .Wenham,p125

تضفي معنى لعلاقتنا بعضنا ببعض. وسلسلة الأنساب هذه، تذكرنا بهذه العلاقات، وبالبركة الإلهية التي يمكن أن تأتي من خلالها، وبركة الله الخلاقة، تمتد على مر الزمان، فالله يعمل من خلال عائلات. كما أن قصة الخلاص، التي تتضمنها الأصحاحات التالية من سفر التكوين، هي جزء لا يتجزأ من تاريخ العالم – تاريخ العائلات – التي يشير إليها (تك٥)، والتي تمتد من آدم إلى نوح .

ب. خط الزمن

إن الإيمان العادي، في هذا السفر، يتفق مع سائر أسفار العهد القديم ، ويتميز بعدة نواح عن ديانات الحضارات المجاورة . ولا يتجلى هذا بصورة أكثر وضوحا ، مما يتجلى في إبراز أهمية الزمن .

وبينما نجد أن بعض الحضارات الأخرى، كانت تنظر للزمن على أنه يسير بشكل "دوراني"، إذ كانوا يعتبرون كل الأشياء مجرد جزء من "دوران" لا نهاية له لعجلة الطبيعة: حيث لا بداية، ولا نهاية، ولا مغزى، **نجد أن العهد القديم ينظر إلى الزمن على أنه يسير في "خط مستقيم"**. فقد كانت هناك بداية – وحيث يشير إلى ذلك مرة أخرى (٥ : ١)– وسوف تكون هناك نهاية، وغالبية هذا الأصحاح تتحدث عن النهايات (" ومات " ، على سبيل المثال، الأعداد ٥ و٨ و١١ و١٤ إلخ). وفي الوسط، تقع أحداث فريدة غير متكررة، فالناس يعيشون حياتهم، ويقررون اختياراتهم، يزوجون ويتزوجون ، وينجبون أولادا، ويحتفلون بأفراحهم، ويحصدون نتيجة فشلهم، وكل حدث له " أهمية " خاصة.

ولقد لاحظنا، في الأصحاح الأول، كيف أن ما جاء به لم يكن بعيدا عن اهتمامات العلم. ورأينا الشيء نفسه، في الأصحاح الثاني، في ترتيب عالم الحيوان. وهنا، نجد مؤشرا آخر في نفس الاتجاه. لأنه، حسبما تساءل "ستانلي جاكي" Stanley Jaki وآخرون: "ما السبب في أن العلم لم يصبح قابلا للحياة والنمو في أي من الحضارات العظيمة في القديم؟! لماذا لم يحدث هذا في الصين القديمة، مع التقدم العالي للتكنولوجيا فيها ؟! لماذا لم يحدث هذا في فارس أو مصر أو المكسيك أو بيرو ؟! لماذا نجد أن شعلة العلم التي بدأت تشتعل في اليونان، سرعان ما أخذت تخبو حتى انطفأت؟! لما اضطر العلم لانتظار "أوروبا القرن السابع عشر"، ليأخذ في النمو ؟!.. إنه كي يعيش العلم، لابد وأن يتلازم أمران: ظروف مادية كافية (على سبيل المثال، تكنولوجيا محدودة، وقدرة على الملاحظة) وكذلك تناول مشترك للحق. والواقع أن هناك نواحي كثيرة "لأوربا المسيحية" في

القرن السابع عشر،ساهمت في انتعاش العلم، وكان من بينها فهمها للزمن على أساس الكتاب المقدس. وإذا نظرنا إلى عدد الحضارات التي تدرك أهمية الزمن (الصين ، الهند، بابل، مصر، اليونان، شعب الإنكا، وشعب المايا Mayas، وشعب الأزتيك Aztecs)؛ فسوف نجد في الغالب أن فكرة تسود بينهم وهي أن العالم يتأرجح تأرجحاً، بحيث أن كل الأحداث تتكرر دون حدود. وهذا الاعتقاد الأساسي يفرض على الكون فكرة "الجبرية أو القدرية" (Fatalism)، ولا يوجد العلم حين يسود هذا المفهوم . ذلك أن "الجبرية" تضعف ثقة الناس في أهمية حياتهم، فلا تعد ثمة أهمية لشيء؛ ولذلك فإن حب الاستطلاع اللازم للاكتشاف، لا يتوفر- وإن كنا، أحياناً، نجد أفراداً بذاتهم ينشقون عن هذا النمط، ويحققون اكتشافات رائعة، غير أنه لا توجد بيئة فكرية مساعدة يمكن أن ينمو العلم فيها.[١]

ومع ذلك، يقدم لنا إيمان الكتاب المقدس وجهة نظر بالنسبة للتاريخ والزمن، من حيث إن له بداية، وله أيضاً نهاية. وفي إطار خط الزمن هذا، يكون لأنشطة الناس كأفراد، غرض، واتجاه وإنجاز. فما نفعله له أهميته، ويحدث فرقاً بالنسبة للعالم. ذلك أن كل فرد هو حادث لا يتكرر، وكل عمل، هو في الواقع، فريد من نوعه، فهو على وجه التدقيق، لم يحدث من قبل، ولن يحدث ثانيةً. وهذا جزء من السبب، الذي يجعل الكتاب المقدس يهتم بسلاسل الأنساب : فنحن أناس ننتمي إلى تاريخ له أهميته. ولا يوجد هنا جبرية كونية (Genealogies). وأعمال إبداعنا تعبِّر عن بركة الله. وآثامنا - كما سنرى بأكثر وضوح في الأصحاح السادس - تضعنا تحت الدينونة الإلهية.

وسلاسل الأنساب تذكِّرنا، أيضاً، بأن هناك حدوداً للوقت الذي خُصِّص لنا على الأرض. وحياة كل فرد منا لها بداية، وسيكون لها نهاية. كما كان هناك وقت، لم يكن لنا وجود قبله. وبقدر ما يتعلق من أعمال بكل فرد، كان هناك فراغ من عدم الوجود قبل مولدنا، وذلك إذا ما تتبعنا خط الزمن إلى الوراء. وعلى الرغم من أنه كلما تقدمنا في السن؛ نزداد بعداً عن ذلك الفراغ ونفكر بالأكثر في الطرف الآخر للحياة، ومع ذلك يلِّح علينا السؤال : ماذا كان هناك قبل أن أكون أنا ؟ من أين أتيت أنا ؟ وما الذي جعل ذاتي هكذا بما أنا عليه؟!

إن الافتتان بسلسلة النسب، هو افتتان بهذا السؤال وهو بحث عميق عن معنى لحياتي قبل أن أكون. والإجابة القائمة على الإيمان الكتابي، هي أنه على الرغم من أنني لم أكن هناك، إلا أن الله كان له وجود، فحدود بداية حياتي، هي جزء من هبة الله لي. لأن الله، الذي هو

---

(١) In *Science and Creation* (Scottish Academic press, 1974).

خالق السموات والأرض، قد أعطاني الوقت المخصص لحياتي. ونظراً لأن شخصه عُرف بأنه يهوه (Yahwah)، "رب العهد" الرؤوف؛ فبمقدوري أن أتقبل هبة الحياة هذه باعتبارها بركة صادرة من شخص محب. و"سلسلة النسب" هذه، تعرِّفني أنني أيضاً لي انتماء. ثم يستكمل العهد الجديد الصورة لي؛ فيعرِّفني أن المسيح الذي أنتمي إليه، هو رب الزمن وملك الدهور (انظر ١تي١: ١٧).

ج. الدينونة

غير أن (تك ٥)، يتحدث أيضاً عن الدينونة، أو بالأحرى عن تنفيذ قول الله لآدم : " موتاً تموت" . لأن الملاحظة البارزة، في الأصحاح الخامس، هي شمولية الموت . وبالنسبة لكل شخص، من هؤلاء الأشخاص، قيل لنا إنه عاش لفترة تبدو طويلة بالنسبة للبعض منهم، نقرأ عنه بعد ذلك أنه: "مات.. "، " ومات.. "، " ومات.. ".

ليس من الواضح تماماً، ما الذي يُراد منا أن نفهمه من الأعمار الطويلة بشكل هائل، وكتَّاب كثيرون من العالم القديم سجلوا أعماراً طويلة لأسلاف بعيدين. ولعل ذلك، كان طريقة لإبراز البُعد بين التاريخ البدائي والعالم المعاصر ، أو قد تكون للأرقام معان رمزية بشكل أو بآخر. ولا يزال هذا اللغز دون حلّ. أما ما هو واضح، فهو إصرار الكاتب على أنه برغم الحيوية الخلاَّقة لهؤلاء الأسلاف، فإنه حتى حياتهم الطويلة انتهت بالموت، وحتى "أبناء شيث"، كانوا خاضعين لسلطان الموت.

وكما أن الزمن الذي خُصص لنا، كانت له بداية . لم يكن لنا قبلها وجود؛ فسوف تكون له نهاية، بعدها نواجه الطرف الآخر من وجودنا. ولسوف تنتهي حياتنا في الزمن، وكما يقول " بارت Barth " ، سوف تأتي لحظة- ونحن مازلنا على قيد الحياة، عندها، لن نكون قادرين على الحياة بعدها؛ لأن الزمن الذي سيكون لنا حينئذ، سيكون زمناً له حاضر، (وماضينا كله سيكون وراءنا)، ولكن لن يكون له مستقبل.[1]

أما الآن، فنحن نُواجه - إذ كنا راغبين في مواجهة ذلك - بالتهديد بالعودة إلى حالة عدم الوجود، فالموت يخيِّم علينا. وأياً كان ما يعنيه وجودنا في الموت - وبالنسبة للمسيحيين، فإن لهم رجاءً مجيداً في القيامة، فلا يمكن أن يتضمن ذلك استمرارية الحياة في الزمن، فحياتنا في الزمن سوف تنتهي.

---

(1) *Church Dogmatics*, III/2, p.587.

وفي الوقت الذي نستطيع أن نبتهج فيه ببركة الله، المثلة في عطية الحياة - لأنه هو معطي الحياة - فما الذي عسانا نقوله عن نهاية الحياة ؟! فهل هذه أيضا جزء من البركة الإلهية ؟!

يبين "إرنست بيكر" E. Becker ، كيف أن أعمق العواطف الإنسانية، وأقوى محفزاتها، غالبا ما تتولد عن رفض قبول الموت كحقيقة.[١] فالموت هو إنكار للحياة. ويخبرنا (تك ٥) مرارا وتكرارا بالتعليم السابق وروده في (تك٣)، وهو أن الموت دليل على دينونة الله للخطاة.

ولذلك؛ فمهما شكرنا الله كثيرا، لأجل الكشف لنا عن عنايته النهائية بمن يحتضرون، ولأجل اكتشاف وسائل يمكن بواسطتها تخفيف آلام الموت، ولأجل الأفكار السيكولوجية النفاذة التي تتعامل مع فكرة ترك الحياة ورؤية الموت على أنه أمر طبيعي وعادي من الناحية البيولوجية؛ إلا أننا من وجهة النظر الكتابية، يجب علينا أن نقول المزيد: فليس بمقدورنا تجاهل الحكم اللاهوتي، على أن الموت ليس أبعد من أن يكون " طبيعيا " فحسب، بل هو أكثر الأحداث خروجا على الطبيعية. وليس هو أبعد من أن يكون " صديقا " لنا فحسب، بل هو آخر عدو، حيث لم يكن الموت جزءا من الخليقة التي كانت حسنة جدا.

ويبدو أن "بارت" Barth كان أقرب إلى الحقيقة، حينما كتب يقول: "إن الرجل الذي يخاف الموت، حتى وإن حاول أن يضفي عليه سمة أفضل إلى حد ما، هو على الأقل، أقرب إلى الحقيقة من الرجل الذي لا يخاف الموت، أو يتظاهر بالأحرى بأنه لا يوجد سبب يدعوه إلى ذلك. فحيث أن الموت علامة على دينونة الله على خطية الإنسان وإثمه؛ فهذا أدعى إلى أن نخافه."[٢]

وبعد أن قيل كل هذا ، وتم تقدير الإلحاح الرهيب لموضوع الموت في(تك٥)، هنا، فقط، تستطيع الصورة التي يقدمها لنا العهد الجديد عن مواجهة يسوع للموت، أن تملأنا بالرجاء. **لأنه بمقدورنا أن نتفادى ألم الموت والخوف منه؛ لأن إنسان " آخر" قد تحمل عنا بموته ألم الموت، وفيه، تمت النصرة على آخر عدو، وتجلت قوة حياة القيامة.**

إنه العدو، آخر عدو للإنسان، وهو الذي أعلن الله - بموت يسوع - أنه عدوه هو أيضا، وعامله على هذا النحو، بأن وضع نفسه إلى جانب الإنسان في الحكم الذي أعلن هناك، وقد انتشل الإنسان من براثنه، بموت يسوع عنه. ولكن، إن ظل الموت، بالنسبة لنا، علامة على الدينونة الإلهية، إلا أنه لم يعد علينا أن نعاني من الدينونة نفسها.

---

[١] E.Becker, *The Denial of Death* (New York: The Free press, 1973).

[٢] *Church Dogmatics*, III/ 4,p.598.

ولأن المسيح تحمَّل الموت من أجلنا - حيث واجهه من أجلنا في بستان جثسيماني، وعلى صليب الجلجثة، حيث ذاق ألم هوة عدم الوجود (mon-Being)، وقطعه من أرض الأحياء، وتحمَّل دينونة الله من أجل خطية الإنسان، ونزوله إلى مكان الموتى (كما جاء في قانون الإيمان). لهذا، يمكن الترحيب بنا، ثانية، إلى الشركة مع الآب. ففيه، وحده. في المسيح. نستطيع أن نجد المحبة التي تطرح الخوف. وفيه، وحده، نعرف أننا حينما نصل إلى حافة حياتنا في الزمن، فإنه سيقف إلى جانبنا. وفيه وحده نسمع صوت الآب يرحب بنا في بيته، ويقول لنا، إن الموت لم يعد عدونا بعد، بل هو رقاد في المسيح .

إن قوة قيامة المسيح، هي التي تقهر مخاوفنا، ومخاوف الأجيال السابقة، عن طريق رسالة الرجاء لشعب الله. وبدون ذلك، لا يبقى لنا، سوى عبارة اليأس الحزينة التي تتردد في (تك ٥) : " ومات ".

د. الشركة

إن تاريخ البشرية هو قصة بركة الله الخلاّقة، وهو أيضاً قصة حكم الموت الشامل. غير أن هناك رجلاً كسر هذا النموذج؛ فكان مثل جوهرة تتلألأ في كومة ليس بها سوى أحجار معتمة. يُقال لنا عن "أخنوخ" : " وسار أخنوخ مع الله ولم يُوجد لأن الله أخذه " (تك ٥: ٢٤) . إذاً هناك بقايا صغيرة من الإيمان، ومن ثم يمكن وجود شركة حقيقية مع الله، تحطم عبودية الموت، رغم ما نراه من تغيير وفساد في كل ما حولنا.

وإيمان أخنوخ كان هو حياته. فبعد ميلاد ابنه (هل كانت هذه اللحظة لها أهمية خاصة في حياته الإيمانية ؟) نقرأ أنه " سار... مع الله"، أو أنه بحسب ما جاء في (عب١١: ٥) : " أرضي الله ". وهنا، نرى شخصاً آخر من رجال الإيمان العبرانيين- يمكن القول بأن سيره مع الله، كان السير في طاعة الإيمان. وكذلك " سار نوح مع الله " (تك٦: ٩) . وسار إبراهيم أمام الله (تك ١٧: ١)، وذروة نبوة القرن الثامن (قبل الميلاد) تم إيجازها في (مي٦: ٨) حيث تتضمن مطالبة كل الناس بأن يسلكوا متواضعين مع الله. وقد أبرز أخنوخ من بين ممثلي سلالة "شيث" الأتقياء، والذي قيل عنه مرتين أنه "سار مع الله"، حيث إبراز أهمية طاعة الإيمان التي يمثلها أخنوخ.

ونحن نعرف أنه "بالإيمان نقل أخنوخ لكي لا يرى الموت " (عب١١: ٥). وهنا نجد تصويرا رائعا لسلطان الله على الموت، وأنه في الإيمان بالله، يقهر الموت أخيرا بالحياة. وفي أخنوخ، اقتحمت السماء النماذج العادية للأشياء على هذه الأرض. لقد خطف أخنوخ إلى السماء، مثل

إيليا (انظر ٢مل٢: ٩ - ١٥) . وهناك تقاليد رؤيوية عن أخنوخ في الكتابات اليهودية (على سبيل المثال في "سفر أخنوخ" ، وهو من أسفار الأبوكريفا) . وعلى النقيض من ذلك، يقدم لنا (تك ٥) هذه الإشارة المحدودة إلى سر الله وقوته : " ولم يوجد لأن الله أخذه " .

ولذلك، فإنه حتى، هنا، في التاريخ البدائي، توجد لمحات من الرجاء. فالشركة مع الله تعني استعادة الحياة، وهي حياة لا تحدها بعد قيود الزمن. وكما سبق ورأينا، يُشير سفر التكوين مرات عديدة إلى انفصال السموات عن الأرض . فلا يجب الخلط بين "مكان الله" و "مكان الإنسان". وحين يحاول الإنسان أن يضع نفسه في مكان الله، فستكون النتيجة : الارتباك والفوضى والموت . غير أنه - كما سبق القول - يمكن للسموات والأرض أن تتقابلا. ويخبرنا العهد الجديد أنهما يتقابلان في المسيح ربنا، الوسيط الوحيد بين الإنسان والله. فالكلمة الإلهية أخذ جسداً عند التجسد . وأصعدت البشرية إلى الله، من خلال القيامة والصعود، فمكان التقاء السماء والأرض هو الرب يسوع المسيح، والمكانان يتقابلان فينا، نحن الذين " في المسيح ". ذلك أننا (فيه) يُؤتى بنا إلى مكان " الله" .

و(فيه) " أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع " (أف٢: ٦). ولكننا في حاجة إلى أن نذكِّر أنفسنا أن هذا كان " بالنعمة " (أف٢: ٨) . فبنعمة الله، زالت الفواصل بين السماء والأرض، وتم الترحيب بنا في الشركة مع الآب بالمسيح في الروح، وبمقدورنا أن نسلك في محبته ونوره وحكمته (أف ٥: ٢ و٨ و١٥) . ولكن في كل هذا، كان أخنوخ رائدنا : فقد " سار مع الله ".

يُعدّ (تك ٥) مقدمة (للأصحاحات ٦ ٩). وهو يقدم حلقة الربط بين آدم ونوح : بداية الله، وبداية الله مرة ثانية . وفي هذه الأصحاحات، نجد أن الخيوط التي نُسجت معاً في (الأصحاح ٥)، قد أصبحت لوحة مطرّزة كاملة. ذلك أننا في قصة نوح، وفي لوحة أكثر اتساعاً، وبألوان أكثر روعة، نجد أيضاً رسماً لشمولية الدينونة الإلهية، وسلطان الموت. ومع ذلك، نرى أيضاً عطية النعمة والبقية من الإيمان، فنوح أيضاً سار مع الله (تك٦: ٩) .



٢. زواج الملائكة: وتخطي الحدود

(٦: ١ -٤)

"١ وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ٢ أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. ٣ فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. ٤ كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم. "

ترى.. ما هو الهدف الذي ترمي إليه هذه الفقرة الغريبة الصغيرة ؟ !

لقد كان هناك عدد من المفسرين المسيحيين، يعتقدون أن هذه الفقرة تصف الزواج المختلط بين أبناء سلالة "شيث" الأنقياء، ببنات عائلات أخرى ليست تقية. وانتشار الشر، والذي كان من شأنه أن جلب دينونة الله المثلة في الطوفان - لأنه هكذا وصف، كما سنرى فيما بعد كان مرده تدنيس نقاء شعب الله على هذا النحو، وفقدانهم تميزهم، وإخفاقهم في أن يظلوا أمناء لإلههم.

وتوجد، بالطبع، فصول عديدة في الكتاب المقدس توضح هذا الموضوع. وتوضح شريعة القداسة في (لاويين ١٩) السبيل، الذي من خلاله، يتم التعبير عن شخصية الله: فعبارة "فأنا الرب "، يجب أن يعبر عنها في مختلف مناحي الحياة المتباينة،بما في ذلك الزواج، بين الناس وكلها سبل لطاعة الكلمة : " تكونون قديسين لأني قدوس الرب إلهكم " (لا١٩: ٢) . ويلاحظ أنه بعد السبي ، أدان "عزرا" و"نحميا" الزواج المختلط بين شعب الله والشعوب الأخرى (عز٩: ١ ٢ ، ١٠: ١ - ٤٤ ، نح١٣: ٢٣ - ٣١) . وفي العهد الجديد، يحث الرسول بولس قراءه في الرسالة الثانية إلى كورنثوس ألا يتزوجوا من غير المؤمنات . لأنه " أية خلطة للبر والإثم . وأية شركة للنور مع الظلمة " (٢كو٦: ١٤) .

وإذا كان هذا هو ما ترمي إليه الفقرة الافتتاحية، من الأصحاح السادس من سفر التكوين؛ فإن هناك كتابا آخرين كتابيين ممن يدعمون هذا الرأي .

ومع ذلك، يبدو من المحتمل أن هذه الفقرة تعني شيئا آخر. ذلك أن بعض المفسرين يعارضون هذا الرأي، لأن عبارة " أبناء الله " .على الأقل. لا تستخدم عادة للإشارة إلى شعب الله. فهذه العبارة تعني عادة " ملائكة " (انظر على سبيل المثال أي١: ٦ ، مز٢٩: ١)، ويبدو للبعض أن الفقرات الصعبة الواردة في (١بط٣: ١٩ - ٢٠)، وكذلك في (٢بط٢: ٤ - ٦) تؤيد هذا التفسير. فبعض الكائنات الملائكية " تركوا مسكنهم " (انظر عدد ٦)، و" أبناء الله " هؤلاء، اتخذوا لأنفسهم نساء من " بنات الناس".

وهناك قصص كثيرة تتحدث عن الزواج بين الناس والآلهة ، في كتابات العالم القديم. ومع ذلك، فإنه بالمقارنة مع تقاليد أخرى كثيرة، نجد أن نص سفر التكوين خال تماما من السمات الأسطورية. فقد ذكر أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن "حسنات" (أى جميلات)، فتزوجوا من بينهن بحسب أختيارهم. ونفس تتابع الكلمات التي وصف بها سقوط المرأة في جنة عدن (تك٣: ٦) تكرر هنا : " رأت . . . جيدة... أخذت ".

وهنا نجد إشارة إلى الفكر اللاهوتي، الذي يشكل خلفية هذه الفقرة. وهنا أيضا، يذكر انتشار الشر في العالم. ولعل عبارة " أبناء الله " - كما يقول "دافيد كلاين" David Clines [1] تشمل الحكام من البشر - حكام الزمن القديم، في فترة ما قبل الطوفان، وكان ينظر إليهم كآلهة أو أشباه آلهة (كما يقول كلاين).

وأيا كان هؤلاء، فهناك شيء مثير بالنسبة للوقوع في محبتهن (٦: ٢)، وشيء بشع بالنسبة لما أسفر عنه ذلك (تك٦: ٤)، ولعل كلمة " الجبابرة " (Nephilim) تشير إلى " بني عناق" (انظر عد١٣: ٣٣)، والذين يرجع أصل البعض منهم على الأقل. وإن لم يكونوا جميعا. إلى هذه الزيجات الملائكية .

ولكن إلى ماذا يرمي كل هذا ؟

أولا: وكما سبق ورأينا في سفر التكوين، كادت تنمحي الحدود بين السموات والأرض. وللمرة الثانية، انتهكت الحدود بين ما هو إلهي وما هو بشري، وذلك في تخطي الحدود التي أقامها الله . وللمرة الثانية أيضا، أدى ذلك إلى كارثة. ويرى بعض المفسرين هنا، وصفا لطغيان القوة المتعجرفة،

---

(1) *JSOT 13* (1979), pp.33ff.

التي لا تعرف قانونا سوى القوة. وأيا كان ما يمثله هؤلاء الجبابرة خلاف ذلك،فإنهم يصورون انتهاكا خاطئا وبشعا لطرق الله. وفي هذه العبارات القليلة الرائعة، دعوة لشعب الله للرجوع إلى حدودهم. فالله هو الذي يضع الحدود للحياة البشرية. وهناك أشياء معينة، لا يجب على الإنسان أن يعملها؛ إذا كان له أن يحتفظ بإنسانيته.

إن هذه القصة عن زواج أبناء الله ببنات الناس، تشير إلى الخروج عن هذه الحدود، وهنا، نجد امتدادا وتعميقا آخر لمعنى الخطية. فهناك قوات غلابة في هذا العالم، تدفعنا إلى تجاوز حدود الله. وحين نحاول أن نسلب لأنفسنا ما يخص الله وحده من حقوقه؛ حينئذ نكون معرضين للوقوع فيما هو شيطاني، فهل سيادة الشيطان على العالم هي مرمى الكلام هنا ؟ ! إن الشر في الجنس البشري بمقدوره إذا لم يكبح أن يتجاوز الحدود التي رسمها الله، وحين يفعل ذلك، ينتج "عمالقة" لا يستطيع البشر التعامل معهم، لأن هذا الشر يطلق قوى، ما كان يجب أن يكون لها مكان في هذا العالم.

ثانيا: هناك انتهاك آخر للحدود، يتمثل في (العنف) و(شهوة تعدد الزوجات) عند " أبناء الله " (كما يقول كلاين) . فالنظام الذي وضعه الله في جنة عدن، كان هو الزواج من زوجة واحدة. ولقد ذكر لنا أن "لامك" انتهك الحدود بزواجه من اثنتين، أما هنا، فإن " أبناء الله " اتخذوا نساء من كل ما اختاروا، أي العدد الذي راق لهم (تك٦: ٢) .

ثالثا: في حين أنه في جنة عدن، كان الإنسان الذى يحمل الصورة الإلهية يمثل الله على الأرض، ويمارس سيطرة نافعة على بقية الخليقة، فأننا هنا: نجد الآن حضور الصورة الإلهية على الأرض (أي الإنسان)، بشكل يسيء تماما إلى صورة الله، من خلال ممارسة العنف الملكي، والسلطة الاستبدادية على غيره من البشر (كلاين). وهنا، نري محاكاة شيطانية ساخرة لفكرة صورة الله.

رابعا: كان الجبابرة " مشهورين " (حرفيا : ذوي اسم) . وقد لاحظنا كيف أن الكفاح من أجل (اسم)، كان ظاهرا في تسمية قايين مدينته على (اسم) ابنه (انظر تك٤: ١٧). وسوف نرى هذه النزعة ثانية في بناة برج بابل، الذين سعوا لأن يصنعوا لأنفسهم (اسما) (انظر تك١١: ٤). غير أن هذا أمر يفوق الغطرسة. إنه هجوم على امتياز من امتيازات الله، لأن الله هو الذي يعطي شعبه

(اسما) ويجعلهم مشهورين (انظر صف٣: ١٩- ٢٠) . فالله هو الذي سيقول لإبراهيم، فيما بعد : فأجعلك أمة عظيمة . . . . . . وأعظم (اسمك) " (تك١٢: ٣) .

ولقد رأى أبناء الله بنات الناس أنهن جميلات، واتخذوا منهن زوجات لهم، وبذلك انتهكوا حدود النظام الذي خلقه الله.

ولكن الله يقول كلمته، لأنه هو من، ويضع الحدود. هو الذي يقرر النقطة التي تحل عندها الدينونة. وحتى العملاق، كما كان الحال بالنسبة للشيطان في سفر أيوب، هو خصم له حدود تقيده. ولا يزال الله هو المسيطر، وفي كلمة دينونته، يقارن أولا روحه بجسد الإنسان (تك٦: ٣). وروح الله، هو قوته المعطية المانحة. و(الجسد) يعبر عن الإنسان من منظور فنائه. أما إشعياء، فيقارن بين الإنسان والجسد من جهة، والله والروح من جهة أخرى (إش ٣١: ٣) . ويدون نسمة روح الله؛ تفني حياة الإنسان. وإذا كان هذا الحادث يشير، مع ذلك، إلى محاولة أخرى للإنسان كي يحصل على الخلود، فإن الله يذكر البشر، رجالا ونساء، بأنهم " جسد" . ويلاحظ أن (العدد ٣) معقدا، بيد أنه يعني على الأرجح أن نسمة الله التي تعطي الحياة، لن تبقى في البشر إلى الأبد. وسوف تسحب منهم. وليس ثمة طريق سريع إلى الخلود من هذه الناحية، فقد قال الله لآدم : " لأنك تراب وإلى تراب تعود " (تك ٣: ١٩). **فليس هناك خلود في طبيعتنا، بل إن مدة حياتنا على الأرض، لابد وأن يحدها الموت. أما الحياة فيما بعد الموت، فهي هبة كريمة من الله، ولا تكتسب نتيجة أعمال يقوم بها الإنسان أو حتى نتيجة الزواج بالملائكة.** و(الجسد) يمكن أن يشير إلى طبيعة الإنسان، في تباينها مع طبيعة الله، فلقد أصبحت صورة الله مجرد جسد. وكما جاء في هامش (الترجمة الإنجليزية المنقحة RV) : " في ضلالهم أصبحوا مجرد جسد ".

وهكذا، وضع الله حدا لحياة الإنسان : " وتكون أيامه مئة وعشرين سنة ". وهذه تقوم علامة على عدم خلود الإنسان، وتذكره أن الله يحدد مدة حياة الإنسان على الأرض، ولعلها مؤشر أيضا إلى انسحاب النسمة الإلهية (من الناحية العملية)، من جميع الأحياء في الطوفان الوشيك الحدوث. ومشكلة نسبة العدد " مائة وعشرين"، إلى الأعداد التي أعطيت في الواقع لأعمار الآباء الأولين، لم توضح، حتى الآن، بطريقة مرضية. ولعل مدة العمر أخذت تتضاءل تدريجيا، حتى أصبحت في عصر إبراهيم حوالي مئة وعشرين سنة. وأيا كان معنى المئة والعشرين سنة، فإن المقصود بها أساسا، في هذه الفقرة، هو أن تذكرنا بأن الله هو الذي يحدد مدة الحياة.

وهكذا، ومن هذه المقدمة الجادة، ننتقل إلى الدينونة عن طريق الطوفان .

٣. الله ونوح

(٦: ٥ – ٨: ٢٢)

"٥ ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير
كل يوم. ٦ فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. ٧ فقال الرب أمحو عن
وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني
عملتهم. ٨ وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.
٩ هذه مواليد نوح. كان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله. وسار نوح مع الله. ١٠ وولد نوح
ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث. ١١ وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما. ١٢ورأى
الله الأرض فإذا هي قد فسدت. إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض.
١٣ فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلما منهم. فها أنا
مهلكهم مع الأرض. ١٤ اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن. وتطليه من
داخل ومن خارج بالقار. ١٥ وهكذا تصنعه. ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا
عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه. ١٦ وتصنع كوا للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب
الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. ١٧ فها أنا آت بطوفان الماء على
الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت. ١٨ ولكني
أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ١٩ ومن كل حي من
كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكرا وأنثى. ٢٠ من الطيور
كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كل تدخل إليك

لاستبقائها . ٢١وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك. فيكون لك ولها طعاما .
٢٢ ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل. "
"١ وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك. لأني إياك رأيت بارا لدي في هذا الجيل. ٢ من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرا وأنثى. ٣ ومن طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا وأنثى. لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض. ٤ لأني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة. وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته. ٥ ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

٦ ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض. ٧ فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ٨ ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض. ٩ دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكرا وأنثى. كما أمر الله نوحا .

١٠ وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. ١١ في سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء. ١٢ وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة. ١٣ في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح، وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. ١٤ هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذي جناح. ١٥ ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة. ١٦ والداخلات دخلت ذكرا وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله. وأغلق الرب عليه.

١٧ وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك. فارتفع عن الأرض. ١٨ وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض. فكان الفلك يسير على وجه المياه.

١٩وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء.
٢٠ خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. ٢١ فمات كل ذي جسد
كان يدب على الأرض. من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على
الأرض وجميع الناس. ٢٢ كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. ٢٣ فمحا
الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء. فانمحت من
الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط. ٢٤ وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين
يوماً. ".

"١ ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك. وأجاز الله ريحاً على
الأرض فهدأت المياه. ٢ وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء.
٣ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه. ٤ واستقر
الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. ٥ وكانت المياه تنقص
نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال.

٦ وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها. ٧ وأرسل
الغراب. فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ٨ ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل
قلت المياه عن وجه الأرض. ٩ فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها. فرجعت إليه إلى الفلك. لأن مياهاً
كانت على وجه كل الأرض. فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. ١٠ فلبث أيضاً سبعة
أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. ١١ فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون
خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. ١٢ فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وأرسل
الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً.

١٣ وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن
الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. ١٤ وفي الشهر الثاني
في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض.
١٥ وكلم الله نوحاً قائلاً. ١٦ اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك. ١٧
وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الأرض
أخرجها معك. ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض. ١٨ فخرج نوح وبنوه وامرأته
ونساء بنيه معه. ١٩ وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها
خرجت من الفلك.
٢٠ وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد
محرقات على المذبح. ٢١ فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض
أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي
كما فعلت. ٢٢ مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحرٌّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا
تزال. "

يعتقد كثيرون من الدارسين، أن ثقافات قديمة مختلفة تتقاطع أحياناً أو تتوازى أحياناً مع بعض النصوص بكتبنا المقدسة. وسواء كان الأمر هكذا أم لا، وسوف نركّز بالأكثر على اثنين من الموضوعات الواردة بهذا النص، وسوف نطلق عليهما: السيادة (sovereignty) والعلاقة الحميمة (intimacy).

أ. السيادة

هناك خلفية كونية لهذه الصورة، فقصة عناية الله الوثيقة بنوح وعائلته، والتي سنعرض لها بعد قليل، وُضعت في إطار السياق الأكبر لمقاصد الله لخليقته كلها: " ورأى الله . . . . " (تك٦ : ١٢)

وآخر مرة قرأنا فيها هذه العبارة، كان ما رآه الله، وإذ " هو حسن جداً " (تك١ : ٣١). أما الآن، فلم ير الله أن " شر الإنسان قد كثر في الأرض " (تك٦ : ٥) فحسب، بل رأى أيضاً أنه قد " فسدت الأرض . . . . وامتلأت ظلماً " (تك٦ : ١١ - ١٢) . والدينونة التي ستنصب على الناس، ستنصب أيضاً على كل الكائنات الحية : " كل ما في الأرض يموت " (٦ : ١٧) .

إن قصة الطوفان التي تسردها هذه الأصحاحات - على النقيض من كثير من قصص الطوفانات الأخرى - حيث تُصوَّر كقصة طوفان رهيب، بل قُصد بها أساساً أن تصوِّر نشاط الله، تعبيراً مشيئته السلطان المطلق. والله يتكلم بلغة قانونية، كما في (٦ : ١٣) . وهو يرد، كحاكم صاحب سيادة، على الانتهاكات التي تعرض لها النظام الإلهي للعالم. فسبب الفيضان هو شر قلب الإنسان " كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم " (٦ : ٥). فهو شر ظاهر في العنف (٦ : ١١ و ١٣) - أو كما يقول " فون راد " Von Rad : " الانتهاك العنيف لنظام عادل"[1]. الأمر الذي يشكِّل ذروة رفض الإنسان أن يعيش في إطار الحدود التي رسمها الله. وقد تقابلنا مع بداية هذا الأمر، أولاً في جنة عدن، حيث خطية عصيان مشيئة الله. ثم تواصل ذلك في قتل قايين لأخيه، الذي كان دمه يخص الله. وذهب "لامك" إلى بُعد جديد، بزواجه بأكثر من واحدة، وفي عنفه البالغ الذي تخطى - وإلى حد كبير - الحدود الإلهية (٤ : ٢٤). ورأينا قوة الشر الشيطانية، في زيجات أبناء الله من بنات الناس، المُشار إليها في (تك ٦). وهكذا، أصبحت الخطية انتهاكاً للطريقة التي يجب أن تكون عليها الأمور في عالم الله - انتهاكاً لنظام الله، وكسراً لحدوده، وتركاً لكل القوانين الطبيعية التي وضعها الله. وعلى النقيض من العمل التنظيمي الذي قام به الخالق في (تك١)، نرى هنا في (٦ : ١٢) وصفاً لعالم انقلب فيه هذا العمل، وأصبح على النقيض مما كان عليه. وهنا، نرى عودة كاملة إلى الفساد، والفوضى، والخراب.

وهكذا، جلس الرب الإله على العرش ملكاً "الرب بالطوفان جلس" (مز٢٩ : ١٠)، وحكم بالدينونة. ومثلما نرى كثيراً بالنسبة لدينونة الله، فإنه يسمح بأن تكون دينونتهم، هي العواقب

---

[1] مرجع سابق، Von Rad,p123.

الوخيمة التي تتولد عن خطيتهم وشرهم . لأن ما قرر الله أن يهلكه (٦: ١٣)، كان في الواقع قد أهلك نفسه (٦: ١١ - ١٢)، كما يقول "كدنر" Kidner[1]. فالطوفان نفسه، قَلَبَ الخليقة إلى عكس ما كانت عليه. وعندئذ؛ رأينا قوة الرب الإله العظيمة الخلاّقة، والتي لا يُسبر غورها، وقد جعلت كل شيء جديداً مرة أخرى.

ولكننا، أولاً، نلتقط خيطاً آخر قد نُسج مع الخيط الخاص بسيادة الله، وهو عنايته الوثيقة والكريمة بنوح.

ب. العلاقة الحميمة

ونقصد "بالعلاقة الحميمة"، تلك الأجزاء- في القصة- التي تركّز على معاملات الله الشخصية مع نوح. وهي تشمل الأعداد التي يُذكر فيها الله باسمه الشخصي " يهوه " (الرب Yahweh). وتتحدث هذه الفقرات عن عواطفه، وكيف أنه (يحزن) (٦: ٦)، ويتأسف (٦: ٦)، و(يصدر) تعليمات شخصية (٧: ١)، و(يتنسم) رائحة الرضا من الذبيحة (٨: ٢١) . وهذه الأعداد تتحدث عن عنايته : فقد وعد انه طالما بقيت الأرض؛ فلن تتوقف مواسم الزرع والحصاد (٨: ٢٢). كما تحدثنا هذه الفقرات، عن إيمان نوح وطاعته (٧: ٥)، وتكريسه وعبادته (٨: ٢٠). إلى جانب أنها تقدم لنا صورة إنسان يعرف إلهه، لأن الله يعرف ويهتم به، بشكل وثيق. ولعل هذه الأجزاء من القصة، كانت في ذهن كاتب الرسالة إلى العبرانيين، حين أشار إلى إيمان نوح (عب١١: ٧)، الأمر الذي أشار إليه الرسول بطرس فى رسالته الثانية، في قوله أن نوح كان " كارزاً للبر " (٢بط٢: ٥) .

وبعبارة "العلاقة الحميمة"، نقصد معاناة الله، فلا يمكن أن يكون هناك ما هو أشد إثارة من عبارة : " **فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه** " (٦: ٦). **فالله يتأثر بما يلحقه الناس بأنفسهم، وبما يعملونه لخليقته. فالله يتألم.** وعبارة " تأسف في قلبه "، قد تعني: (شعر بسخط مرير) - وهذا خليط من الغضب والألم (كما يقول وينهام Wenham) . ومن بين

[1] مرجع سابق، Kidner,p87.

النظائر المماثلة في العهد الجديد، ربما تكون صورة يسوع الذي " انزعج "، وعبَّر عن غضبه، بينما كان في الوقت نفسه يبكي عند قبر لعازر، لتدخّل الموت في عالم الله.

وقد سبق أن أشرنا في تعليقنا على (تك٣)، إلى المجازفة التي أقدم عليها الله في خلقه هذا العالم وإعطائه الحرية. حيث حساسية الله، وألم المحبة الخلاَّقة؛ وهنا نرى روح الفنان الجريح الذي رُفض عمله، والقلب المنكسر للمحب الذي لم يُقابل حبه بحب. لقد أخلى الله نفسه في محبته، وجعل نفسه قابلاً للشعور بالألم. بل إن الله نفسه قد دخل عالم الألم. وما جاء في (تك٦)، يلفت نظرنا إلى الإله المتألم. وكما يقول "وولتر ستورف" Wolterstorff : " دموع الله التي تضفي على التاريخ معنى ".[1]

كذلك، نعني "بالعلاقة الحميمة" الإله الرحيم . فهناك ثراء في العدد (٦: ٨) : " وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب " ، والتي، كما يقول فيها "موتييه" J. A. Motyer : "بمقدورنا أن نفهم معناها على أفضل وجه؛ إذا ما قرأنا الترجمة على عكس ترتيب الكلمات"، وبذلك، تصبح الآية: "**النعمة وجدت نوحاً** "، ومبادرة الله بالنعمة تجاه نوح، ذُكرت قبل وجود أية إشارة إلى إيمان نوح وبره (٦: ٩)، وهذا أمر مهم. فبين هذين الأمرين - الإشارة إلى النعمة، والإشارة إلى البر- نجد صيغة أخرى تشير إلى تطور القصة، حيث قال : " هذه مواليد نوح " (٦: ٩)، وكأنه يقول هذه هي بداية قصة نوح. ولكن، ما مغزى هذا ؟! هل كان ذلك بقصد إبراز حقيقة أن حياة نوح، العامة الذي سار أمام الله، وكانت له عائلة، وبنى فلكاً - " تنبثق" من قصة نوح السرية، باعتباره متمتعاً بنعمة الله ؟

يؤكد لنا هذا النص، بعناية تامة، إننا نقرأ عن "نعمة الله" قبل أن نقرأ عن "طاعة نوح وإيمانه". وهذا هو النموذج الذي يوضحه الكتاب المقدس مراراً وتكراراً : " لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم . هو عطية الله " (أف٢: ٨) .

وتبدأ قصة الطوفان في (تك ٦: ٥)، حيث كان من شأن تفاقم الشر في الأرض، أن تسبب في تألم الرب . **وهنا، نتعلم عن نعمة الله، والتي على الرغم من الخطية، لا يمكنها أن تتخلى عن الإنسان**. كما يجب أن نلاحظ، أيضاً، التركيز على : "الإنسان ... الإنسان ... الإنسان " الذي تضمنته (الأعداد ٥ - ٧) في (تك ٦) . لقد كان نوح جزءاً من البشرية الخاطئة، وفي إطار تلك البشرية الخاطئة وجدت النعمة نوحاً .

---

[1] N. Wolterstorff, *Lament for a son* (Erdmans, 1987), p.90.

ج. النعمة.. في الدينونة والرحمة

لقد أمر الله أن مياه الدينونة تمحو البشرية من على وجه الأرض، ومع ذلك، أدخل رجُله (نوح) وعائلته في الفلك، وأغلقه عليه . والمياه التي كانت وسيلة إهلاك العالم، كانت هي نفسها، في ذات الوقت، وسيلة خلاص عائلة الله. **ففي هذا العمل الواحد نجد: دينونة، كما نجد رحمة .**

وطوال هذه القصة، نجد أن علاقة الله بنوح، كانت علاقة نعمة غامرة وحامية: " لأني إياك رأيت باراً لديّ " (٧ : ١) . فقد التصقت النعمة بنوح، في إيمانه بأن الله يعرف ما سوف يحدث، على الرغم من اللامبالاة التي سيطرت على جميع جيرانه، فكانوا يزوّجون ويتزوجون (انظر مت ٢٤ : ٣٨) . والنعمة قد ساندت نوحاً، في طاعته الواثقه في الله وتنفيذه أمراً، هو أمر من المؤكد أنه كان غريباً جداً : فقد بنى هذا الفلك الكبير، في وسط أرض يابسة ! لقد حمته النعمة، خلال العواصف، حتى أمكن فتح النوافذ ثانية؛ لكي تدخل الشمس.

أليس في ذلك دليل على محبة لن تخذله ؟ وألا يشكّل هذا جزءاً من اهتمام الكتاب المقدس بإعادته سرد هذه القصة ؟

لنحذر نحن يا شعب الله، حينما تسير الأمور معنا على وجه طيب، فتكون الأمة آمنة، والملك في عرشه، والاقتصاد على أفضل وجه، وثمة أموال في البنك، وطعام فوق المائدة : فلنحذر من الوقوع في تجربة نسيان المُعطي . فنحن ما نحن بالنعمة. **وحين تكون الأمور صعبة، وحينما تشتد يد الدينونة من حولنا، وحين تنفجر ينابيع الغمر، ويصبح كل ما لنا في عرض البحر؛ فعلى الرغم من ذلك كله، لن يتخلى الله عنا.**

ولقد أشار إشعياء إلى هذه القصة، في تأكيده على دوام محبة ورحمة الرب، والفادي :

"لأنه كمياه نوح هذه لي. كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك. فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب. " (إش ٥٤ : ٩ - ١٠).

وقصة الطوفان، هي قصة دينونة الرب السيد على عالم فقد مراسيه. وفي الوقت ذاته، فإن قصة نوح هي قصة محبة الله الأمينة الرحيمة الحميمة. لأن هذه الصلة الحميمة، بين إنسان والله، يمكن الآن أن تكون النقطة الثابتة في عالم متقلب (بحسب تعبير الشاعر إليوت)، وهذا هو قلب العاصفة. فمن هذه العلاقة الحميمة مع الله، يمكن أن تنمو العلاقة الحميمة بين الناس.

د. هل هناك علاقة حميمة في هذا العالم؟!

إن قصة إمكانية وجود "شركة"، في عالم تتقاذفه العواصف، هي إحدى القصص التي نحن في حاجة إلى سماعها ثانية. ولا سيما، أننا نواجه ضغوطاً من كل نوع، ترغمنا على الابتعاد عن الله، والتباعد بين بعضنا البعض. وقد نسينا جميعاً ما تعنيه "العلاقة الحميمة". ففقدان هذه الصلة الحميمة، والقدرة على الارتباط . كشخص كامل . بأشخاص كاملين آخرين، تُعد مشكلة كبرى للرجال والنساء، في هذه الحضارة التكنولوجية المتقدمة، حيث تسير الحياة اليومية بعجلة سريعة جداً . كما أن هذه أصبحت أيضاً مشكلة في أماكن أخرى، نتيجة التحضر وإغراء مصادر الربح وتوفر رأس المال . وبالنسبة للسكان القرويين، في بعض المناطق الريفية الإفريقية، نجد حتى يومنا هذا، أن العلاقة الحميمة بين العديد من الأجيال التي كانت تعيش معاً في ظل من العناية والحماية المتبادلتين؛ قد ضعفت؛ نتيجة أن هؤلاء أصبحوا الآن يتبنون موقفاً ينتقل فيه الرجال إلى المدن بحثاً عن الربح السريع، ويتركون النساء والأطفال والمسنين دون رعاية.

كما أن انهيار الأسر أمر قد صار أكثر انتشاراً، إذ يتخذ الرجل لنفسه زوجة في المدينة لتعتني به، مع الاحتفاظ بعلاقة سرية بامرأة أخرى في بعض الأحيان. وإلى جانب تسلسل الزواج بأكثر من واحدة في بعض الثقافات الدينية، وزيادة برامج الترفيه في التليفزيون؛ كل هذه الأمور تعمل على انهيار العلاقات الحميمة. وبالتالي، هناك جوع نحو علاقة وثيقة مع الله، وفحص كتابات كثير من الكتّاب المسيحيين، يلفت نظرنا إلى فراغ روحي عميق في قلوب الكثيرين من المسيحيين .

ويتمثل جزء من مشكلتنا، في الطريقة التي بها تسود في ثقافتنا آراء أناس مأخوذة، بصفة أساسية، من بعض نواحي فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر : وتتمثل في آراء أشخاص مستقلين، لا هدف لهم، وقيمهم نسبية، ومعرفتهم بالعالم محدودة بما يستطيعون رؤيته أو الشعور به أو قياسه .

لقد قال "وليم تمبل" W. Temple : " لو سُئلت: ما هي أكثر اللحظات هدماً في تاريخ أوربا؟! لوقعت تحت إغراء قوي للإجابة بأنها فترة الفراغ، التي أحسّ فيها "ديكارت" بأنه ليس هناك ما هو مطلوب منه، ومن ثم، ظل اليوم بأكمله (وحيداً داخل موقد)! "[1] . نعم، ففي ذلك الحين كما نذكر قام "ديكارت" بمحاولته الشهيرة للشك في كل شيء، وإذ وجد أنه لا يستطيع

(1) W. Temple, *Nature, Man and God* (Macmillan, 1934, 1964), p.57.

الشك في أنه يشك، قال مؤكداً : " أنا أفكر، إذاً أنا موجود ". وما اعتقد "تمبل" أنه أمر هدَّام، هو الرجوع إلى إدراك عقلاني للذات، حيث يشجِّع إلى مدى بعيد النزعة الفردية (Individualistic) في التفكير فيما هو إنساني . وهذا ما أدى إلى ضغط حركة التنوير (Enlightenment) على الفردية الإنسانية المستقلة للفكر والإرادة؛ وهذا هو ما يرتبط به، بشكل وثيق، افتقارنا الحالي إلى العلاقات الحميمة .

ونستطيع مقابلة هذا، بمناقشتنا السابقة عن "الأشخاص في إطار العلاقة" [انظر التعليق على (تك١ : ٢٦- ٢٧)] كجزء من معنى "صورة الله". والأرنب المخملي - على ما نتذكر - أصبح حقيقياً؛ نتيجة شعوره بأنه محبوب . ولعلنا نستطيع أن نقترح على النقيض مما قاله "ديكارت" **أن الأرنب المخملي، سيتعلم من خلال علاقته بالآخرين، وعلى نحو تدريجي، وبألم وكفاح، أن يقول : (أنا محبوب إذاً أنا موجود). وهذا هو جزء من معنى النعمة .**

هـ. طاعة نوح

نحن في حاجة إلى أن نبدأ على نحو ما فعل نوح بكلمة "النعمة الإلهية"، ونتيح لكلمة الله أن تقود خطواتنا . غير أن العلاقة الحميمة بين نوح وإلهه، لم تقتصر فقط على الاستماع إلى صوت الله ، بل تضمنت أيضاً الطاعة المكلفة للواجبات المحيِّرة المتعلقة ببناء الفلك . أما الذي جعل نوحاً أهلاً لأن يُدرج في القائمة التي وردت في (عب١١)، إلى جانب هابيل وأخنوخ، فهو أنه كان أيضاً مثالاً لطاعة الإيمان : " بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تُر بعد خاف فبنى فُلْكاً لخلاص بيته " (عب١١: ٧).

وكما أوضحنا آنفاً، كم كان أمراً غريباً ذاك الذي طُلب من نوح. بيد أننا نقرأ مرتين في القصة القول: "فعل نوح حسب كل ما أمره به الله" (٦: ٢٢، ٧: ٥) . فقصة محبة الله الحامية، هي أيضاً قصة طاعة نوح بالإيمان، وهذا هو دورنا في الشركة. **ولكن، أحياناً لا يمكن أن نتعلم ذلك، من خلال الألم والكفاح، غير أنه يمكن أن تُوجد علاقة حميمة مع الله، حتى هناك في الخارج، في الحقل، حيث نمسك بالمطرقة والمسامير، بنفس القدر الذي يمكن أن توجد به عند المذبح .**

ونوح في طاعته، بيَّن أيضاً معرفته بأن حياة الإنسان والحياة الحيوانية، مرتبطتان معاً في مجتمع الخليقة . إن نوح - وهو من الداعين إلى المحافظة على البيئة - أخذ معه إلى الفلك حيوانات من كل نوع . وهنا، تم تنفيذ التكليف الإلهي بالاهتمام بالعالم، حيث قام نوح بحماية الحياة الحيوانية، إلى جانب المحافظة على حياته هو.

و. الفُلك

لم يكن هناك أي مكان يكفل الأمن لنوح سوى "الفُلك". وبعيداً عن خبرته وتوقعاته تماماً، كان على نوح وعائلته أن يُقبرَوا في مكان مظلم؛ كي يُنقذوا .

"والفُلك" ذو ثلاث طبقات، والذي كان طوله ٤٥٠ قدماً، وعرضه ٧٥ قدماً، وارتفاعه ٤٥ قدماً ، ما كان في الواقع سوى (سجن). ولقد أخذ نوح على عاتقه تحمل ألم، وظلام هذا القبر؛ كي يمر بسلام عبر وقت الدينونة الإلهية . وبطاعته القلبية للّه، أصبح مخلِّصاً لأفراد عائلته، الذين وثقوا فيه وفي إلهه .

وليس من عجب، أنه قد نُظر إلى "الفلك" في التقليد أوالفكر المسيحي، كرمز للخلاص بالمسيح، وكصورة لكنيسة الله . ورسالة بطرس الأولى تستخدم الخلاص بالماء في أيام الفيضان، صورة لماء المعمودية، فالعالم في الخارج قد دين، بينما خلصُ الذين هم في الداخل .

واللمسة البهيجة، هنا، هي: " وأغلق الرب عليه " (تك٧: ١٦)، فكما أن الله بهذا يُؤمِّن شعبه داخل مكان سلامتهم، فهو أيضاً يغلقه في وجه الآخرين، ولسوف يأتي وقت، حين يُغلق الباب. وصورة الله، وهو يغلق باب الفلك، تذكرنا "بأن الفلك لم يُجعل آمناً من الفيضان نتيجة براعة الإنسان، بل بمعجزة إلهية . . . فلم تُمنع المياه من اقتحام الفلك، بواسطة القار فقط، بل بالأحرى بواسطة قوة الله الخفية، وبتدخل يده في الأمر، كما يقول "كالفن" Calvin. وهذا يذكرنا أيضاً، بأن الذين يعتمدون على أنفسهم، رافضين تدبير الله؛ سوف يكتشفون - بحسب ما تعرفنا بعض أمثال المسيح القوية - أن باب الخلاص لم يعد مفتوحاً بعد أمامهم .

فلقد كانت تفصل الرجل الغني عن أبينا إبراهيم " هوة عظيمة " (لو١٦: ٢٦) . والعذارى الجاهلات غير المستعدات، واللواتي ذهبن ليبتعن زيتاً ، بينما كان العريس بالفعل في طريقه؛ وجدن الباب مغلقاً عند عودتهن (مت٢٥: ١٠) . ولذلك، يقول ربنا " فاسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة " (مت ٢٥: ١٣) .

ولقد اضطر نوح أن يدخل هذا (القبر) ، حيث كان عليه أن يدفن نفسه في هذا "الفلك"، وذلك ليجد السلامة . كان عليه أن يبحث عن الحياة من خلال مياه الموت .. كان عليه أن يضحِّي بعالمه؛ كي يجده ثانية . فلا تُوجد حياة؛ إلاّ من خلال الموت.. ولا تُوجد قيامة؛ إلا عن طريق الصليب ، لأنه " عند المساء يبيت البكاء وفي الصباح ترنم" (مز٣٠ : ٥) .

والعهد الجديد، كثيراً ما يتناول هذا الموضوع. فيجب أن تموت " الطبيعة العتيقة "، الحياة التي أنفقت بعيداً عن الله، قبل أن يكون بمقدورنا أن نلبس " الطبيعة الجديدة "، التي هي هبة الله

لنا في المسيح . وهبة هذه الحياة الجديدة، يُرمز إليها في العهد الجديد (بالمعمودية). حيث يربط الرسول بطرس، بصفة مباشرة، بين (المعمودية) و(قصة نوح) (١بط٣: ٢١)، ويحاجّ بأن الثقة المسيحية، تضرب بجذورها في قيامة المسيح يسوع. **ولذلك فإنه في اختبار الإيمان، وفي مجازفتنا بالمجهول، تساعدنا حقيقة.. إننا لسنا وحدنا في الفلك** . و"المعمودية" في المسيح ،هي معمودية تدخلنا في شركة مع عائلة ؛ فنوح دخل إلى "الفلك" مع عائلته ، والصورة بالنسبة لنا هي الانتماء إلى الكنيسة المسيحية.

وينبغي علينا ألاّ نقع في خطأ الاعتقاد في أننا نخلص بالمعمودية وحدها، أو بواسطة الكنيسة وحدها ، فالخلاص بالنسبة لنوح بدأ بكلمة الله له. وقد آمن نوح في وعد الله، وقد احتمى بالمكان الذي دبّره له الله، وأغلق الرب عليه. فالإيمان المسيحي، ليس إيماناً بالمعمودية، ولا إيماناً بالكنيسة، بل، وما كان إيماناً بالإيمان نفسه، كما لو كان إيماننا هو الذي يُعتد به. **فالإيمان المسيحي هو التسليم للمسيح نفسه، فهو الكلمة، والوعد، والفلك، كما أنه أيضاً هو العبد المطيع، الذي بالموت خلص عائلته من عواصف الدينونة الإلهية . ولقد فتح لنا ذراعيه، مرحباً بنا، وهو على الصليب" وسار على الأرض اليابسة عند شروق شمس القيامة، وأحضر عائلته معه .**

ز. العهد

الموضوعان التوأمان، وهما السيادة الإلهية، والمحبة الإلهية، قد تُجمعا معاً في كلمة كتابية عظيمة، حيث كانت الإشارة الأولى إليها في هذه القصة (على الرغم من أن الحقيقة كانت من قبل في جنة عدن، كما سبق لنا القول عند مناقشتنا موضوع الزواج) ؛ والكلمة هي " عهد ". وهي كلمة تعبر عن أحد الموضوعات الرئيسية في الكتاب المقدس كله .

و"العهد" هو إعلان عن علاقة مستقبلية بين طرفين، وهو التزام يقوم على أساس وعد بالدخول في هذه العلاقة، ونموها على مرّ الأيام . وأحياناً تُقطع العهود بين الأصدقاء، كأطراف على قدم المساواة (١صم١٨ : ٣)، وأحياناً بين الملوك ورعاياهم (٢ مل ١ : ٤) . ولكن عندما يصنع الله "عهداً"، فهو الذي يضع شروطه باعتباره الحاكم السيد، ولكن شعب عهده مدعوون للشركة الحقيقية معه .

وسوف نتوقف، قليلاً؛ لنستعرض قصة علاقة عهد الله. حيث أن جوهر عهد النعمة، بين الله وشعبه، تم التعبير عنه، بجلاء تام، في وعد الله لإبراهيم : "وأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي

شعباً"، وهذا هو إعلان النوايا الصادر من الله السيد والملك. وهذا هو الوعد الإلهي، والعطية الإلهية، والمطالب الإلهية .

لقد أعلن الله عن نفسه إلهاً لشعبه، كما أعلن أنهم شعب له، وهو بهذا يلزمهم بطريقة معينة للحياة: " فتكونون قديسين لأني أنا قدوس "، وهو القول الذي يلخص الالتزامات الواجبة على شعب العهد . والله يمنح نعمته؛ حتى تمكن شعبه من النمو في القداسة. ذلك، إنه في العهد القديم، كما في العهد الجديد، كل ما يطلبه الله منا، فإنه يعطيه لنا أيضاً .

و"العهد" الشخصي مع إبراهيم، ومع عائلته (تك ١٥، ١٧)، و أعيد تأكيده، وأعطي من زاوية جديدة، "كعهد" مع جميع المفديين من شعب الله (انظر خر٦: ٦) . وقد أعطي عن طريق موسى، على جبل سيناء، حيث ذُكرت بجلاء الالتزامات المترتبة على كونهم شعب الله . وكما أُعلنت البركات واللعنات، وأُعلن الناموس، وما أغراضه من الذبائح. و قد أعطي الناموس نموذجاً لحياة الشعب، الذي كان الله قد أنقذه، منذ فترة بسيطة، بعبور البحر الأحمر. والناموس – أو كما يجب أن نصفه بأكثر دقة – التعليمات الأبوية لإله العهد (التوراة)، هو أيضاً هبة من نعمة "إله العهد" . كما أن عيد الفصح السنوي، الذي فُرض الاحتفال به بعد الخروج، قد حفظ في أذهان الشعب أهمية الخلاص الذي حققه الله لهم من العبودية في مصر، ووصفهم بأنهم شعب الله . بجانب نظام الذبائح الدقيق، الذي أتاح طريقة لشعبن قد عاهد الله، بأن يظل في توافق مع إله قدوس .

وبمرور الوقت، نسى شعب الله إلهه . وكان على بعض الأنبياء، أن يدعوا الملوك والشعب؛ للعودة ثانية إلى التزاماتهم المترتبة على العهد . والفرح بعبادة الله، الذي عُبِّر عنه في بعض المزامير، كان دائماً تكتنفه مخاطر الشعور بالخضوع لمجموعة من القوانين وليس للتعاليم الأبوية، التي كانت تلقي التقدير في ظل علاقة العهد . وهكذا، تصبح الديانة فاترة وظاهرة ، خالية من الإخلاص والحيوية .

ولقد كان من نصيب إشعياء وإرميا وحزقيال (إش ٥٤ : ١٠، إر٣١: ٣٣ ، حز٣٦ : ٢٦ – ٣٨) أن يتطلعوا إلى اليوم الذي يتجدد فيه "العهد" - "العهد" الذي يكتب على القلوب .

" بعد تلك الأيام يقول الرب . أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً . ولا يعلّمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني " (إر٣١ : ٣٣- ٣٤) .

وسوف يأتي يوم، يعود فيه الشعب إلى معرفة إلهه، ويعبدونه بفرح . وقد **أشرق هذا اليوم، في عُليّة بأورشليم، حين قيلت هذه الكلمات : " لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من**

أجل كثيرين لمغفرة الخطايا " (مت ٢٦ : ٢٨) - وهو يوم أختتم بالقول : " قد أكمل "، حيث نُطق بها على الصليب، حين احتجبت الشمس ، وتزلزت الأرض، وتشققت الصخور. وفي ذلك اليوم، انشق حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، وكان الحجاب حتى ذلك الحين رمزاً لانفصال الله عن الشعب الخاطيء ، وقد نُزع الآن هذا الحجاب، إلى الأبد ، ويوسع الناس رجالاً ونساء أن يسمعوا، دون تشويش كلمة الترحيب الحار إلى الشركة مع الله أبيهم. وقد أستعيدت الآن علاقة "العهد"، و قد أصبحت العائلة جديدة في المسيح . كما وهب لنا التبني، لنصبح أولاد وبنات الله نفسه .

ولا تزال "عائلة العهد" تُجمع معاً . وفي نهاية الزمان، سيكتمل الكل. وفي السماء الجديدة، والأرض الجديدة سيأتي صوت عظيم من العرش قائلاً : " هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيكون معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم " (رؤ٢١ : ٣).

ومن إبراهيم، حتى مجيء مملكة المسيح، يتعامل الله مع شعبه، من خلال وعوده وتدبيراته التي تضمنها "العهد" .

ولكن .. يبدو أن (تك ٦)، يعود بنا إلى ماض بعيد، إلى ما قبل إبراهيم . فهو يرجع بجذور قصة شعب الله هذه إلى عهد سابق : " ولكن أقيم عهدي معك . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تُدخل إلى الفلك لاستبقائها معك " (تك٦ : ١٨ - ١٩) . ويأتي وعد مماثل، أيضاً، بعد الطوفان في (تك ٩: ٩ - ١٠) . و"العهد" لم يُقطع مع نوح وعائلته فحسب، بل مع " كل ذوات الأنفس الحية". فالتزام الله، إنما هو من أجل خير مجتمع الخليقة بجملته .

وفي عالم شوهته الفوضى، ويهدده الدمار، ويعمه التشويش والاضطراب، فعتقداً صلته بالله، هنا: قطع الله عهده. فعالمه لن يُدمر تماماً، بل إن خليقته ستجدد. فالله، وفي سيادته، في محبته الوثيقة، التزم بصالح مخلوقاته كلها .

ووعد العهد قُطع، هنا، في إطار الدينونة :

" فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد . . . . كل ما في الأرض يموت " (تك ٦ : ١٧) . وقد تضمنت هذه الدينونة: نوحاً، وعائلته، وحيواناته. فدينونة الله ضد الشر شاملة ".....لأهلك ".هذا ما جاء في (العدد ١٧). وبعد ذلك، يقول في (العدد ١٨) " ولكن . . . . . ". ففي ثنايا دينونة الله نجد أيضاً رحمته. ولقد سبق أن رأينا شيئاً مماثلاً، قبل ذلك: فالآية السابعة تقول : " أمحو. . . . الإنسان "، ولكن الآية الثامنة تقول : " وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب " .

فالعهد إذاً، هو وعد الله بالخلاص . وحين يقيم الله عهده ؛ يشرع في العمل من أجل الخلاص . وكلمة " أقام " تعني : (يقف على قدميه)، فالله يعطي لعهده حياة – ويضع وعده موضع التنفيذ .

وهكذا، نجد المياه التي سقطت على الأرض للهلاك، سقطت على نوح – وهو محفوظ داخل فلكه – من أجل السلامة . فالمياه التي محت الإنسان، هي ذاتها التي أنقذت نوحاً، وهو في فلكه. ولقد كان على نوح، أيضاً، أن يعاني في وقت الدينونة . ومع ذلك، حُفظ سالماً على أساس تدبير الله الرحيم .

وليس معنى هذا القول إن نوحاً كان في رحلة بحرية رائعة ، بل أنه كان سجيناً لفترة طويلة للغاية، في مكان يسوده الظلام، وليس ثمة شك في أنه كان يعج برائحة كريهة، ناهيك عن أنه لم يكن صحياً، فهو مكان مثل القبر، فلابدّ والحال هذه، أن نوحاً قد يئس من الحياة. وعلى غرار يونان، الذي كان في ورطة لا يُحسد عليها، وسط المياه، فليس ثمة شك في أنه"تذكر الرب" (انظر يو ٢: ٧) .

ولعلنا نظن أن نوحاً كان لا يتوقف عن ذكر الرب، ولعله كان يتساءل: ما الذي يجري الآن، يا ترى، على الأرض ؟! وهل تخلى الله؟! وهل خلّصه؟! ولكي يقضي أيامه، نزيل هذا السجن، ثمانية أشخاص ومجموعة من الحيوانات، ودون أي منظر أو مشهد، يا له من ثمن للطاعة !

– أهي معاناة البريء ؟!

ربما يكون ثمة شيء، غير عادل بالنسبة لمعاناة نوح . وعلى الرغم من أنه بلا ريب كان له نصيبه من الذنوب (انظر تك ٦: ٥ ٨)، إلا أنه كان أيضاً ضحية خطايا الآخرين . فإنه على الأقل، وبشكل جزئي يعاني الآن من هذه الورطة، بسبب عصيان الآخرين .

وبهذا الوصف، يمكن أن يُعد نوح مؤشراً لأعقد مشاكل الإنسان : معاناة الذين لا يستحقون المعاناة . وسواء كنا نفكر في صدمة الجنين الموجود في الرحم، قبل الولادة، الأمر الذي ناقشه بشكل مؤثر، وبجدال شديد علماء نفسيون، أو وسّعنا رؤيتنا، لنستعرض فياضانات بنجلاديش، والمجاعات في السودان، أو الملايين الذين فقدوا حياتهم في الحروب في معسكرات الإبادة الجماعية ؛ فإننا من خلال هذا، يُدفع بنا دفعاً إلى واحدة من أقوى الحجج التي تقول بعدم وجود إله . لأنه: كيف يمكن أن يسمح الله بأمور كهذه ؟

وعلى ضوء الحجة العقلانية ومنطق الاستدلال، ليس ثمة إجابة على هذا السؤال !! وبمقدورنا أن نتلمس تلميحات إلى إجابة ما ، وذلك في التعليم الخاص بالخطية الأصلية، فإنه،

وبطريقة غامضة، نحن جميعاً نشارك في خطايا وآلام الآخرين. وبمقدورنا أن نحاول استخلاص معنى ما، من حقيقة أنه في إطار المجتمع الإنساني، نحن جميعاً ننتمي إلى بعضنا البعض، وإلى حد ما، نشترك فيما يطلق عليه خبراء العهد القديم أحياناً " الشخصية المشتركة".Corporate (Personality) غد أنه على مستوى فكرنا، يكون لهذا الأمر ثقل قليل، حين نحاول أن نأتي بصورة تجمع ما بين إله محب، وصور لهيروشيما مثلاً.

والإجابة الوحيدة، تأتي على مستوى مختلف ، وهي تأتي، حين نتذكر أن الله هو الذي دبر الفلك . بل، وتأتي، بوضوح تام، حين نتفرس في إنسان معلق على صليب، ونسمح لدمه المسفوك أن يمس أرواحنا . لأننا نرى هناك، الإنسان الكامل، يموت كأحد المجرمين، فهناك جُرّمت البراءة، هناك نعرف أنه حينما نقف على هوة المعاناة بغير استحقاق، والشر الذي لا نفهم كنهه، سنجد المسيح هناك واقفاً معنا . فعند الصليب، تحمّل الله نفسه مسئولية آلام العالم : " أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها " . وعلى الرغم من أننا لا نفهم، إلا أننا نجد أن الله معنا هناك . وفي خضم صراعنا، فإن الله لا يخذلنا . والنقطة الفاصلة، تأتي حين نرفع أيدينا إلى أعلى، ونحن في ظلمة الهوة، ونكتشف أن الله طوال الوقت كان ممسكاً بنا .

٤. اللّه .. يتذكر نوحاً

(٨: ١)

أ. زمام العاصفة:

لقد جاءت اللحظة الفاصلة، بالنسبة لنوح، حيث جاءت بعمل من قبل اللّه : " ذكر اللّه نوحاً " (٨: ١) . والواقع أن هذه العبارة المقتضبة، هي نقطة التحول في القصة كلها. وكما أوضح "وينهام"، Wenham يمكن اكتشاف أن القصة الواردة في (تك ٦: ٩ - ٩: ١٩) تتبع نمطاً مفصَّلاً في القصص العبري- وقد اقتبس "وينهام" تحليل "ب . و. أندرسون" B. W. Anderson لهذا النمط :

- **مقدمة انتقالية (تك٦: ٩ - ١٠)**

١- عنف في الخليقة (٦: ١١- ١٢) .

٢- قول اللّه الأول : الإصرار على أن يهلك (٦: ١٣ - ٢٢) .

٣- قول اللّه الثاني : ادخل . . . إلى الفلك (٧: ١- ١٠) .

٤- بداية الطوفان (٧: ١١- ١٦) .

٥- ارتفاع المياه .

اللّه يذكر نوحاً

٦- انحسار الطوفان (٨: ١- ٥) .

٧- جفاف الأرض (٨ : ٦ - ١٤) .

٨- قول اللّه الثالث: " اخرج من الفلك " (٨ : ١٥ - ١٩) .

٩- اللّه يقرر حفظ الخليقة (٨: : ٢٠ - ٢٢) .

١٠- قول اللّه الرابع : عهد (٩ : ١- ١٧) .

- **خاتمة انتقالية (٩ : ١٨ - ١٩) .**

ويعلق "وينهام"، هنا قائلاً : "إن هذا التشكيل لعناصر القصة، يساعد على لفت الانتباه إلى طبيعة الفيضان، وارتفاع المياه وانحسارها، ويبرز أيضاً نقطة التحول الحقيقية، من خلال عبارة : ثم ذكر اللّه نوحاً" .[1]

---

[1] مرجع سابق: Wenham,p156-157.

فالإيمان – وكثيراً ما يكون من خلال الألم والصراع – هو تعلم كيفية الاطمئنان إلى تدبير الله وخلاصه، حتى إذا كانت كل الشواهد تقول لنا إن الله قد نسينا . غير أن إله العهد الذي كثيراً ما يتحرك – بطرق غامضة – ، هو الإله الذي لا ينسى أحباءه . فهو الله الذي يركب العاصفة، ويمسك زمامها بقوة في يديه .

ب. المياه (٧ : ١١و ١٢ ، ٨ : ١- ٥)

قرأنا، من قبل، عن قوة المياه الرهيبة، وذلك في قصة بداية الخليقة في الأصحاح الأول ، فالله الخالق، الذي خلق المياه، نفخ ريحه فوقها. وفصل بين المياه التي فوق، والمياه التي تحت ، وجعل اليابسة تظهر. وبعبارة أخرى: وضع حداً لقوة المياه . والله الخالق، هو إله نظام، فهو يعطي شكلاً لكل ما كان سيبقى في حالة من الفوضى– إن لم تمتد الله يده- لولا يده، فهو يعطي هيئة لما لا هيئة له .

وكما رأينا، فإن المياه التي حُصِرَت لجنة عدن، في الأنهار الأربعة المذكورة في الأصحاح الثاني، كانت مياهاً تعطي الحياة، وتروي الظمأ ، وتدعم الحضارة .

غير أن قصة الطوفان تبين لنا أن هذا النظام، الذي وضع عند بداية العالم، أخذ في الانهيار . فينابيع الغمر قد انفجرت، وطاقات السماء انفتحت ثانية . وبذلك؛ تحطمت الحدود، ومع المياه التي لا كابح لها، انتشر الخوف والتهديد .

ولقد سبق أن رأينا أن البحر كثيراً ما يأتي في الأسفار المقدسة رمزاً للفوضى ، ووحوش الغمر تظهر في المزامير(على سبيل المثال مز١٠٤ : ٢٦)، وتظهر في قصة شعب الله عواصف تحطم السفن (أع ٢٧ : ٣٩ – ٤٤ ، ٢ كو١١: ٢٥ على سبيل المثال)، وبعد خلاص ليلة الفصح في مصر، وجد الشعب أنفسهم أمام البحر وجهاً لوجه ، وأثارت العواصف الشك والخوف والرعدة .

و ها هي أقوى قصص الإنجيل، التي تصور يسوع نائماً في سفينة، في الوقت الذي يصرخ فيه تلاميذه : " يا معلم أما يهمك أننا نهلك " ، وكيف كان إسكاته للعاصفة أمراً مثيراً، وكذلك سيره على الماء ، فقوة الله لا يمكن أن تنال منها قوة البحر.

وفي السماء الجديدة والأرض الجديدة، إلى جانب نهاية حكم الموت، ونهاية ألم المرض، ونهاية ظلام الليل، نقرأ أيضاً : " والبحر لا يُوجد في ما بعد " (رؤ٢١ : ١) .

أما، هنا، في الطوفان، فكانت قوى الغمر الساحقة تحدث تدميراً وتخريباً ، فقد هلك كل ذي جسد على الأرض ، والبحر هاج ثانية دون أن يلجمه أحد .

غير أنه حين "تذكّر" الله نوحاَ؛ جعل ريحاً تهب فوق البحر، على غرار ما سبق أن فعلت عند بدء الخليقة (تك١و٢)، وكما فعلت بعد ذلك عند البحر الأحمر (خر١٤)، حيث فتحت طريقاً للخروج من العبودية في مصر إلى حياة جديدة . ثم انحسرت المياه، وأغلقت ينابيع الغمر وطاقات السماء، وكفّ المطر .

ج- عالم جديد (٨ : ١- ١٩)

إن خلاص الرجل وعائلته، ومعهم ممثلون لكل كائن حي، يُقدَّم إلينا الآن، كصورة لخليقة تمت استعادتها ؛ لأن الله مهتم بأن تستمر الحياة. والحياة يجب أن نكون في إطار عهد مع الله، وفي نظام للعالم تم تطهيره. وهنا نجد صورة تشير إلى ما بعد هذا الدهر ، هنا، بداخل هذا الفلك، نجد صورة مسبقة لما سيكون عليه الحال .

سوف تكون هناك ميناء للأمان، حينما ينتهي نظام هذا العالم المحطم . هنا، نجد حماماً وغرباناً، كتعبير عن التناغم بين الإنسان وعالم الحيوان . هنا، " يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسّمن معاً " (إش ١١ : ٦ – ١٠) . وهنا، حُفظت كل الحياة الحيوانية؛ لكي تترنم بحمد الخالق. فمن المؤكد أننا نرى هنا صورة للخليقة الجديدة .

وقوة البحر تظل في يد الله ، فهو يستدعي المياه إلى حدودها؛ ليقيم ثانية نظام عالمه. والرياح تدفع الأمطار ثانية إلى السحاب، والبحار تُرد ثانية إلى شواطئها، وتُعاد إقامة ضفاف الأنهار. وللمرة الثانية، تُفصل المياه عن الأرض، وتظهر اليابسة . وللمرة الثانية، تُطلق الطيور والحيوانات والزواحف على الأرض لتثمر وتُكثر. وهنا، أيضاً، يعود الله ليقيم شركة شخصية مع الإنسان الذي خُلق على صورته (تك٩: ٦– ٨) . وهذه القوى العنيفة التي تسبب كل هذا الخوف والدمار، يمكنها أن تعود؛ لتأتي بالحياة والتجديد . ونجد، هنا، صدى لكل ما جاء في (تك ١) ، فالخليقة الجديدة هي أمر ممكن ، ومجتمع العهد يمكن استعادته .

ألا يشكل هذا رجاء لشعب الله في أوقات الشدة ؟ ألا يشكل هذا رجاء لنا ؟

وهكذا، يتعين النظر إلى قصة خلاص نوح، كجزء من قصة كونية أكبر. فالله المحب الرحيم، هو أيضاً سيد كل الخليقة . إنها صورة تبدأ بالخالق، وتتتبع بركته – على الرغم من حكم الموت – عبر أجيال تاريخ العالم، التي بلغت ذروتها في تدبير فلك، يكون ملاذاً من دمار الدينونة

الإلهية، التي تحمل الوعد بخليقة جديدة (انظر ٢ بط ٣ : ٦ -٧ و ١٣)، والتي تشير إلى سماء جديدة وأرض جديدة يسكن فيها البر. وبهذا المعنى الكوني أيضاً، يُعد نوح " كارزاً للبر " (٢ بط ٢ : ٥).

د. وعد جديد (٨: ٢٠ - ٢٢)

والآن يبني باني الفلك مذبحاً . لقد خرج من مقبرة فُلكه إلى الهواء الطلق، وإلى نور صباح عيد فصحه، وركع على ركبتيه في الطمي ورفع صلواته . وكانت أول بادرة لنوح هي: الشكر والعرفان، وقد عبّر عن هذا بتقديم ذبيحة " رائحة الرضا " (٨ : ٢١) .

وقدّم نوح اعترافه بحاجة الإنسان المستمرة إلى النعمة الإلهية، كما نرى الله، كمن يعبّر عن موقف جديد تجاه الأرض والإنسان وكل كائن حي .

وقد نتساءل: لماذا كان من المناسب تقديم ذبيحة ؟!

من خلال تاريخ شعب الله المتواصل؛ نكتشف أن الذبائح جعلتهم يتذكرون بصفة دائمة أهمية ذبيحة افتتاحية بعينها وهي ذبيحة ليلة الفصح (خروج ١٢) . ففي تلك الليلة، تنقل ملاك الله عبر أرض مصر للدينونة، التي كان من أثرها أن رأينا مأتماً في كل بيت مصري، فقد مات كل بكر. أما بالنسبة لبيوت شعب الله، والتي كانت قد وضع عليها دم الحمل؛ فقد نجت جميعها ، بموت الحمل. بينما عبر الله عن شعب إسرائيل- حيث حفظهم في مكان آمن، بينما كانت دينوناته تُنفَّذ خارجه، وكانت علامة الأمان، ويقينية الحماية، هي في الحمل الذي قد قُدِّم ذبيحة. وهكذا تعلم شعب الله أن بذل الحياة هو أساس الحياة ، وأنه من خلال حياة تُبذل؛ يمكن لحياة أن تزدهر.

وبمقدورنا أن نقول إن الأصحاح الثامن من سفر التكوين، يبين لنا أهمية الذبيحة، بالنسبة لوعد الله معطي الحياة. وبربطه بين قصة خلاص نوح، بإمكانية أن تبدأ الحياة ثانية؛ يكون تقديم الذبيحة عملاً قوياً ومناسباً. لقد قدم نوح " محرقات "، ومما جاء في (لاويين١) نعرف أنها كانت تقدمات تتضمن المشاركة النشطة من العابد لصنع كفارة . كما أنها عبَّرت أيضاً عن الالتزام والتكريس فلم يُمسَك شيئاً عن الله (انظرتك٢٢: ١٢) . وهنا، نجد تأكيداً آخر لطاعة إيمان نوح . والإصرار على أخذ سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة إلى الفلك(تك٧: ٢)، يتوافق مع نمط الذبائح اليهودية (لاويين١١). لأن الله هو الذي أمر بأن تُؤخذ الحيوانات الطاهرة إلى الفلك، كما أنه هو أيضاً هو الذي عين نظام الذبائح الوارد في سفر اللاويين . والله الذي تذكر نوحاً، هو نفسه الله الذي تنسم الآن " رائحة الرضا "، ووعد بأنه لن يكون هناك طوفاناً بعد .

ومع ذلك، نلاحظ أن الطوفان لم يغّير قلب الإنسان الخاطيء . ومما يدعو للدهشة، أن في ختام القصة، يعود إلى الموضوع الذي ذُكر في المقدمة من حيث أن السبب الأساسي للطوفانات، هو أن " تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته " (٨: ٢١ ، انظر تك ٦: ٥) . فإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن يُقال، لكان على الله آن يعاقب الإنسان كل يوم بالطوفات ، كما يشرح "كالفين" Calvin غير أن " فون راد " Von Rad يقول :

"إنها نفس الحالة، التي نجد في المقدمة، أنها كانت أساس دينونة الله، وهي نفسها التي تكشف لنا في الخاتمة عن نعمة الله وعنايته. والتناقض بين غضب الله في عقابه، ورعايته وعنايته في نعمته- الأمر الذي يسود الكتاب المقدس كله- قُدّم هنا، بعيداً تماماً عن أي فكر لاهوتي، بل ويكاد يكون في غير موضعه" . ويبدو الأمر كأنه "تساهل"، يتضمن تعديلاً أجراه الله في موقفه إزاء خطية الإنسان [١] .

وما يسميه "فون راد ""تساهلاً"، هو في الواقع تعبير عن نعمة الله وطول أناته . وكما أن الحياة كلها في فلسطين يحكمها تعاقب فصول الزرع والحصاد، الصيف والشتاء، هكذا أيضاً الحياة كلها ، والتي ترمز هذه الفصول إليها، الذي يحفظها إنما هو الله. فلن يكون هناك طوفان بعد. وكان الطوفان آخر دينونة، لكبح انتشار الخطية، وإعلان بأنه حين يتم قول كل شيء، فالله إلى جانبنا " لا أعود أيضاً أُميت كل حي " . وهذا هو التزام الله بالحياة على هذه الأرض. واستمرارية الفصول، وثبات الطريقة التي يتم فيها تعاقب الليل والنهار، تشهد عن أمانة الله، وكما قال كاتب آخر للوحي المقدس: " إنه من إحسانات الرب أننا لم نفن . لأن مراحمه لا تزول. هي جديدة في كل صباح. كثيرة أمانتك . نصيبي هو الرب قالت نفسي من أجل ذلك أرجوه." (مر٣: ٢٢ - ٢٤) .

وفي عظة بعنوان : "النجاة مع نوح"، كتب "مولتمان"Moltmann يقول : ما الذي يعنيه إن قلنا إنها نجاة تخصنا بالنسبة لنا ؟ هذا يعني أنه على الرغم من عدم ثقتنا، التي يمكن تبريرها، في تاريخ الإنسان، وتاريخ الطبيعة، إلا أن ثقتنا في الحقيقة من الممكن أن تزداد. فالحقيقة في أعمق أساساتها جديرة بالثقة، لأنها صالحة . .وفي هوة يأسنا، نجد رجاء الله.. وفي عمق أعماق إثمنا الرهيب، نجد نعمة الله. .وفي مرارة الألم الذي لا مهرب منه ، نجد محبة الله.. وفي قلب كل شيء، نجد رد الله الذي لا يتغير عنه " نعم ".. ويظل الله ثابتاً راسخاً" [٢] .

---

(١) مرجع سابق، Von Rad,p119.

(٢) J. Meltmann,Power of the powerless,p11.

٥. رؤيا نبوية

ومن هذا المنظور الشامل، الذي تعلنه لنا قصة نوح، علينا أن نفهم أنفسنا - ولا سيما على ضوء الموضوعات الرؤيوية لأزمنتنا . لأننا نعيش في عالم، يحاول فيه الناس، الرجال منهم والنساء، أن يتخطوا الحدود التي رسمها الله. وفي كثير من مناحي الحياة ، في يومنا هذا - ومن بينها الأسلحة النووية، والحياة الأخلاقية، والانغماس في الجنس - قد تكون لنا جميعاً الرغبة التامة في أن نقف على أرضية لا تنتمي إلا إلى عناية الله، وقد تكون العواقب بالفعل مأساوية .

وكما كتب "ريتشارد بوكهام" R. Bauckham: "تؤكد لنا قصة نوح، في عصرنا النووي، التزام الله ببقاء الإنسان على الأرض . ورعب الأسلحة النووية، في أنها تشكل إهانة للبشرية، وإلى تكليفنا برعاية عالم الله وحمايته." [١].

وبقراءتنا لقصة الطوفان، مع إدراكنا لمغزاها الأساسي؛ سوف نحصل على معنى متجدد للعالم الذي نعيش فيه، على اعتبار أنه هبة الله لنا . وبينما نرى أن دماره لا يعطله سوى طول أناة الله ورحمته؛ سنجد أن العالم الذي أخذناه على أنه قضية مسلم بها، يصبح مرة أخرى العالم الذي تمنحه لنا باستمرار نعمة الله.

وعلى الرغم من كل سمات نهاية الزمان، بالنسبة لعالمنا الملوث والرهيب من حولنا، فأنه ما أسهل أن ننسى أن كل ما نمتلك، وكل ما نحن عليه إنما هو هبة من نعمة الرب. وإذا كان هو مهتماً بخير خليقته، فهل سيكون أقل اهتماماً بنا ؟

أننا نعيش في عالم يبدو في مرحلة تلو الأخرى، كما كان عليه الحال في أيام نوح، يشغل نفسه بكل شيء- ما عدا انتظار مجيء ابن الإنسان. **ومع ذلك ،فنحن في هذا العالم على غرار نوح في جيله مدعوون أن نظهر في عبادتنا وخدمتنا بر الإيمان الواثق في الله.. إيمان يتمسك بالله برغم كل الظواهر، إيمان يسعى لترجمة أقواله إلى أعمال .. إيمان مسّه قول يسوع لبطرس : " لستَ تعلم أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد " (يو١٣ : ٧).. إيمان يتمسك بمسيح الكون، الذي فيه تتحقق كل مقاصد الله بالنسبة للخليقة قاطبة. إيمان يوقن** كما يقول"كويبر"Kuyper بأنه :

---

(١) R. Bauckham, *Churchman*, 1985, no. 2,p.154.

"لا توجد بوصة واحدة في هذا الكون، لا يقول يسوع عنها : " إنها ملكي". " لأنه منه وبه وله كل الأشياء " (رو ١١: ٣٥) .

غير أنه بالنظر إلى أن ضخامة هذا المنظور العالمي بدأت تغمرنا، كما بدأنا نشعر بالضياع في خضم معاملات الله مع العالم، فدعونا نتمسك بذلك الجانب الأوثق صلة في قصة نوح، **وهو أن الله أمين معنا . فخالقنا هو في الوقت ذاته أبونا - وهو يدعونا للعيش في عهد معه، تدعمه المحبة التي لن تخذلنا أبداً.**

GENESIS

الباب الخامس

أقواس قزح.. في عالم ساقط

[أصحاح ٩:١ - ٢٩]

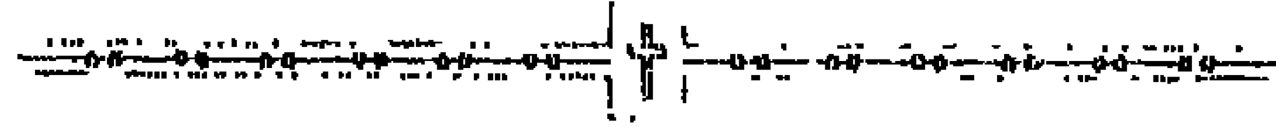
(٩ :١-١٧)

" ١ وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض. ٢ ولتكن خشيتكم
ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء . مع كل ما يدب على الأرض وكل
أسماك البحر قد دُفعت إلى أيديكم . ٣ كل دابة حية تكون لكم طعاماً .
كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. ٤ غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه. ٥وأطلب أنا
دمكم لأنفسكم فقط. من يد كل حيوان أطلبه. ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان. من يد
الإنسان أخيه. ٦ سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان .
٧ فأثمروا أنتم واكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها .
٨ وكلم الله نوحاً وبنيه قائلاً . ٩ وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم . ١٠
ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع
الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. ١١ أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد
أيضاً بمياه الطوفان . ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. ١٢ وقال الله هذه علامة الميثاق
الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. ١٣
وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. ١٤ فيكون متى أنشر سحاباً
على الأرض وتظهر القوس في السحاب. ١٥ أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس
حية في كل جسد . فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسدٍ . ١٦ فمتى كانت القوس
في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض. ١٧
وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض. ".

لقد سبق أن أوجزنا قصة علاقة الله القائمة على العهد مع شعبه، ولاحظنا كيف أقام الله عهده مع نوح، ومع " كل حي " (٦ : ١٨) . والأصحاح التاسع من سفر التكوين يستوفي الآن بعض نواحي حياة العهد : بركة العهد، وشريعته، ونعمته .

وقصة عهد الله مع نوح بعد الطوفان، تذكرنا، بأنه قد أعطيت بركة عهد الله، وأعطيت أيضا شريعته، في إطار عالم ساقط ومشوش . وقد رأينا مرات عديدة في هذا القسم من الكتاب المقدس، كيف أن حياة الإيمان كانت في عالم يسوده الغموض والتوتر. ويأتي (تك٣) بعد (تك٢)، أي بعد أن سقطت الخليقة . فقد طرد آدم من جنة عدن، غير أنه استمر على قيد الحياة . وعاقب الله قايين، بيد أنه قام بحمايته. وقصة الطوفان ذاتها، هي قصة رحمة وإنقاذ، في نفس مكان الدينونة والخراب . والآن، ولعل ذلك بمزيد من الوضوح، نجد أن نوحا في الأصحاح التاسع يمنح بركة الله، ولكن شريعة الله - إذا جاز القول - هي تكييف لإرادة الله الكاملة، مع ظروف عالم أبعد جدا عن الكمال . ثم إنه في الآيات الختامية المؤسفة للأصحاح (٩ : ١٨ - ٢٩)، نرى أن نوحا نفسه - الإنسان الذي دخل معه الله في عهد، وصار " كارزا للبر " - وجد عاريا، وهو لا يدري سبب سكره!!

وليس في التكوين أي شكوك بالنسبة لغموض العالم، وصراع رجال الإيمان أنفسهم في حياتهم من أجل الله . وفي هذا الإطار، فإن بركة الله، وتقديم شريعة الله الهادية، والطمأنينة التي يبعثها قوس قزح، كانت هذه كلها تعد دلالات أكثر وضوحا على محبة الله وعنايته الكريمة القائمة على العهد .



١. بركة العهد

(٩ : ١)

بعد خراب العالم بمياه الدينونة، قدمت للإنسان بداية جديدة . فقد قدم له، ثانية، عالم ليعيش فيه، يسود عليه، ويمارس فيه وكالته . وقد أمر، ثانية بأن يثمر ويكثر ويملأ الأرض . وهذا ما يذكرنا، إلى حد كبير، بقصة الخلق . فالله يظل أمينا لعالمه، فلم يتخل عن العالم الذي خلقه، على الرغم من أنه رأى " أن كل تصور أفكار قلبه (قلب الإنسان) إنما هو شرير كل يوم "وعلى الرغم من أنه حزن" انه عمل الإنسان في الأرض " (تك ٦: ٥- ٦)، على الرغم من هذا التشويه الذي لحق بجمال الخليقة؛ إلا أن الله الخالق لا يزال يعطي بركته الخلاقة . وهكذا.. أصبحت الخليقة الآن "نعمة": لم تكن متوقعة، ولا مستحقة . وكما قال "مولتمان" Moltmann في هذا الصدد : " لقد كان تواضعا بالغا من الله، حين أعار صورته الإلهية لكتلة من الطين!"[١] .

ولكن، كم كان تنازل الله وتواضعه، أعظم جدا بعد الطوفان! وذلك في تجديد بركته؛ لأن الله الآن يعطي تفويض خليقته لمن لهم القدرة على ارتكاب الشر! فالرجال والنساء قد أوكلت إليهم مسئولية الخليقة، على الرغم من أنهم أتلفوها كلها ذات مرة، وبوسعهم أن يتلفوها مرة أخرى . ويستطرد "مولتمان" قائلا : " هذه هي الكرامة النقية غير المستحقة، التي أعطيت لنا، فليس بمقدور أحد منا أن يتملص من هذه المسئولية المتعلقة بالحياة على الأرض."[٢] .

وإنه لمن الجلي أيضا، في هذه القصة، أنه قد أعطيت بركة عهد الله للإنسان كل إنسان؛ ذلك أن " نوحا وبنيه " يمثلون كل الناس الذين لا يوجدون في العالم بعد الفيضان.

والصورة المرسومة في (تك٩ : ١- ٦)، تعمل ثانية على تأكيد أن جميع الناس، بدون تمييز، قد خلقوا على صورة الله. وحين تكلم الله، كان ذلك مع نوح " وبنيه معه " (٩: ٨). وكلمة البركة الإلهية والتفويض المتجدد بشأن الخليقة، التي تحملنا مسئولية عالم الله قد أعطيت للجميع دون تفرقة، وهو تفويض نتشارك فيه نحن البشر جميعا .

---

[١] J. Moltmann, *Power of the Powerless*, p.4.

[٢] المصدر السابق، ص ٤

وهكذا كانت الحياة في العالم الساقط بعد الطوفان، حياة قصد التعبير عنها، عن طريق التزام إنساني شامل يشاطر فيه الجميع؛ لكي نظهر في علاقاتنا، وفي مسئولياتنا المتبادلة من نحو العالم، والتي قبلنا القيام بها؛ باعتبارنا على صورة الله، وقد تعين أن نكون "مجتمع " الخليقة .

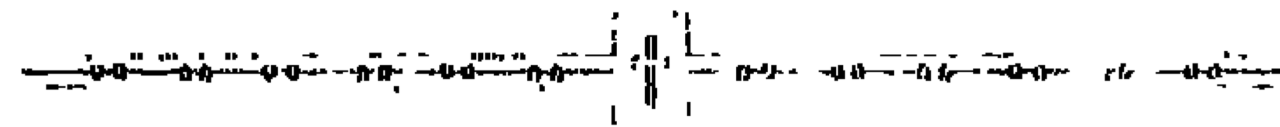
وحتى في وسط الشر الذي نحن سببه، والذي نعاني بسببه، فإن الله لا يزال يهبنا كرامة صورته، كما يباركنا بمسئولية كوننا " مديري أملاكه " .

ومع ذلك، فإنه من اليسير علينا أن نتجنب هذه المسئولية، واليأس هو أحد السبل لذلك. فماذا عساي أن أفعل ؟ وما الذي بوسع موهبتي الصغيرة أن تفعل، في مواجهة صراعات القوى الدائرة في العالم؟ وإن كان ليس معي سوى أرغفة قليلة وبضع سمكات، فما يمكن أن يفعله لكل هؤلاء ؟!!

هناك بحث نشر حديثا، أشار إلى أن الزيادة في نسبة عدد غير الخريجين، قد عزيت إلى الاعتقاد بأنهم لن يتموا حياتهم الطبيعية بتخرجهم، فالقنبلة (أو الأزمة الاقتصادية) بحسب اعتقادهم سوف تسقط في المستقبل المنظور. وعلى ذلك، فما الداعي إلى أن يزعجوا أنفسهم ؟! ولماذا يحاولون العودة إلى المثالية، التي كانوا يشعرون بها منذ سنوات قليلة مضت ؟!

وكذلك اليأس الذي ساد على بعض التقارير المتعلقة بضحايا الجوع في أثيوبيا والتي عانت من التهديدات المتواصلة بموت الآلاف جوعا، على الرغم من الاستجابات الهائلة لنداءات طلب العون هذا اليأس، يؤدي إلى نفس النتيجة أو السؤال عينه: لقد حاولنا، ولكن دون طائل، فما جدوى ذلك ؟!!

ولكن الجدال بهذه الطريقة، يقلل من شأن إنسانيتنا. فلقد ائتمننا الله على هذه الأرض، وبالتالي، فإن خياراتنا تحدد مدى رفاهيتها في المستقبل. ولا نقدر أن نتهرب من هذه المسئولية، بالتخفي وراء "القضاء والقدر" الذي ملأ العالم يأسا. لذلك، فنحن نشكر الله أن قصة نوح كما سيتضح لنا سوف توجه أنظارنا إلى قوس قزح الرجاء. ولكن قبل أن ننظر إلى قوس قزح، علينا على الرغم من ذلك أن نولي الشريعة مزيدا من التفكير.



٢. شريعة العهد

(٩: ٢ ٣)

" أثمروا واكثروا " هذا ما نقرأه في (تك٩: ١) - وهذا - مثل انحسار الطوفان نفسه - يذكرنا إلى حد كبير بقصة الخلق في (تك١) . بيد أنه في (٩ :٢) تتغير اللهجة. فلم يعد الأمر " حسن جدا " (١: ٣١)، بل أصبح العالم بالأحرى عامرا بالخشية والرهبة (٩: ٢) . ولذلك، كما يشرح " ثيليك" Thielicke، فإن هذه البداية الجديدة، اتسمت من مطلعها بوصمة عار انتهاك العهد . أما الآن، حيث أعاد الرب توفير الظروف التي تهيىء للحياة أن تعود ثانية إلى العالم، فلم تعد السيطرة تمنح بسهولة: بل بجب الكفاح في سبيلها (٩: ٢) . وهنا، ولأول مرة، نجد قيودا، في نوع من قانون الجنايات، تفرض على الأسلوب الذي يجب أن تكون عليه حياة الإنسان .

ولذلك، فإنه في هذا العالم الساقط، بعد الطوفان، بل حتى بعد قصة الخلاص، لم تعد البشرية ثانية إلى جنة عدن، بل لا زلنا خارجها، نعيش في جو تسوده توترات عالم ساقط. لم تسحب كلمة الله الخلاقة، ولكنها تأتي إلينا بأسلوب يتناسب مع عالم ساقط . فالله لم يتخل عنا، لكن شريعته أعطيت الآن، بطريقة لم تعط بها في البداية . ونحن نقرأ الآن عن ممارسات تشوه الطبيعة، واستغلال المملكة الحيوانية أبشع استغلال، كما نقرأ عن القتل وعقوبة الإعدام. مما أدى إلى أن شريعة الله قد أصبحت، الآن، لعالم غير طبيعي. وأن شريعته تأتي، الآن، منعكسة، من خلال العلاقات المشوشة التي تتسم بها هذه البداية الجديدة .

أ. إرادة الله المرحلية

إن أول ما نراه في هذه القصة، هو الاعتراف بأن سقوط الإنسان كان من شأنه أن غير، إلى حد ما، الأسلوب الذي يتعامل به الله معنا. فلم تعد أوامره تأتي بصفة مباشرة، كما كان شأنها في جنة عدن، بل جاءت متناغمة مع حاجات الإنسان الساقط . وهذا أمر - إذا جاز القول - لم يفرض على الله . فالله في سيادته المطلقة يدعو كل " ذوات الأنفس الحية" (٩ : ١٠)، للدخول في عهد خليقته الجديدة، ثم يأمر بالشروط التي يجب أن تسود الحياة الإنسانية. ومع أن كلمة الله تأتي إلينا، الآن، على هذا النحو المزدوج : حيث نتضمن الأمر الإلهي، الذي يعبر عنه غالبا بأنه شريعة

العهد، وهو أنه يجب أن نكون قديسين -كما هو قدوس، بالإضافة إلى أنها تتضمن أيضا شريعة الله، من أجل كبح جماح الشر في عالم مضطرب .

ونحن نجد هذا المعنى المزدوج، بالنسبة لأوامر الله، في مواضع أخرى، وإنه لأمر مهم، بالنسبة للذي قد ترغب فيه، بشأن الأوامر الإلهية، في اتخاذ قراراتنا الخاصة بالنواحي الأخلاقية . فعلى سبيل المثال، نجد أن الوصايا العشر تصور لنا هذا النهج المزدوج. فمن ناحية، نجدها تتطلب عبادة الإله الواحد - دون سواه، ومن ناحية أخرى : تعترف بوجود الاغراء لعمل تماثيل منحوتة . وهي تطلب تبجيل اسم الله، واحترام السبت، في حين أنها تعرف انه من الممكن تجاهل هذين الأمرين . وأسلوب النهي، في الوصايا ضد القتل والزنا والسرقة والشهادة الزور واشتهاء ما للغير يحمل معنى الالتزام وكذلك العقاب. ولقد كان الناموس ضروريا بسبب سقوط العالم، فجاء ليتناغم مع حالته. ولقد كان هذا - إذا جاز التعبير - تدبيرا عاجلا من نعمة الله، استلزمته الخطية .

وبمقدورنا أن نجد أيضا إقرارا بالاتجاه المزدوج لإرادة الله في العهد الجديد، ولعل ذلك، أكثر وضوحا، في حوار الرب يسوع مع الفريسيين في موضوع الطلاق (مت ١٩ : ٣- ٩). فقد أشار الرب يسوع إلى أن هناك فرقا بين سماح الله، أي أن يأذن بكتاب طلاق "من أجل قساوة قلوبكم" (مت ١٩ :٨ ، انظر تث ٢٤)، وبين إرادة الله من جهة كمال الخليقة "ومن البدء لم يكن هكذا " (مت ١٩ : ٨)، حيث يشير إلى (تك١ : ٢٤ و٢ : ٢٤) . فالله الخالق في تدبير محبته، قد وضع بعض الأحكام لهذا العالم الساقط، على الرغم من أنها أبعد ما تكون عن إرادته من الخليقة .

وهذا التمييز بين(إرادة الله في الخلق) ، (ومشيئته المؤقتة)، يبدو جليا من مقارنة (تك ٩) بما جاء في (تك١) . وهذا أمر مهم للغاية، لفهمنا لإرادة الله لنا في هذا العالم . فإن أخفقنا في فهم غموض هذا الجيل الذي يباركنا الله فيه، ويدعونا إلى الولاء له بمقتضى العهد؛ فقد تتكون لدينا صور غير صحيحة بالنسبة للحالة التي تسود الأمور الآن .

فعلى سبيل المثال، قد نقع في إغراء أن نأخذ المتطلبات الجذرية التي وردت في "الموعظة على الجبل"، وكأنها قانون مدني يناسب المجتمع الإنساني برمته. وهذا معناه إنك تتعامل مع العصر الحاضر، كما لو أنه مازال يعيش في حالته الأصلية قبل السقوط، أو كما لو أن يوم الرب الآتي قد جاء بالفعل، وأن كل الخليقة قد تجددت بالفعل . وهذا قد يحملنا على القيام بمحاولات مثالية لبناء ملكوت الله على الأرض، أو استعادة شكل من أشكال المجتمع السياسي الذي يقوم على أساس حكم ثيوقراطي (ديني) (أو حلم الدولة الدينية لدى البعض).

مع أنه من الواضح من "الموعظة على الجبل" نفسها، أنها تشكل نمطا للحياة بالنسبة للتلاميذ (مت٥: ١)، ولشعب الملكوت (مت٥: ٣ و١٠ و١٩ - ٢٠، ٦: ٣٣)، ولأبناء الآب (مت ٥ : ٤٥ و٤٨، ٦: ١و٤ و ٦ و ٨ - ٩ و١٨ و٢٦) . وبالتالي، سوف تبدو هذه "الموعظة" كنموذج مستحيل، بدون العلاقة الحية مع الله، التي تشير إليها هذه العبارات، وبدون النعمة في المسيح، التي تعطي القدرة لهذه الصفات على أن تنمو تدريجيا .

وعلى صعيد آخر، قد نقع في إغراء خطأ الاعتقاد بأن التعبير المؤقت، عن مشيئة الله للعالم الساقط، هو في الواقع تعبير عن قصده من الخلق. وعلى سبيل المثال، فإننا قد نأخذ وجود الحكومات – كنظام – على أنه نظام للخليقة، بدلا من أن نعرف أنه مجرد تدبير طارئ للعالم الساقط : قيد مؤقت محدود، كان ضروريا بسبب الخطية. وإذا اتبعنا هذا النهج؛ فقد يحملنا على أن ننظر إلى الحرب (التي يعتقد أنها امتداد لعمل الدولة)، على أنها تعبير عن إرادة الله الكاملة في بعض الظروف؛ مما يشكل ميلا لدى المتشربين بالروح الحربية للنزوع إلى بعض النواحي التي نسميها في المسيحية (الولع بالحرب)، والتي تنظر إلى الله بأنه إله حرب!! ومع ذلك، فإن إدراك الفرق بين قصد الله في الخلق، ومشيئته المؤقتة، تتطلب منا أن نرفض تسمية الله بإله حرب، بينما نعترف أنه قد يكون من الممكن تبرير حرب ما، على أنها جزء من موقف طارئ فرضته الظروف، وتدبير إلهي أقل ضررا بالنسبة لعالم ساقط .

ولذلك، ومن باب الإيجاز، بمقدورنا القول إن (أخلاقيات العهد) قد وضعت في إطار التوتر الذي ساد العالم الساقط . وليس بمقدورنا، ببساطة، تجاهل قصد الله من الخليقة، من حيث الأسلوب الذي نرى الأمور تجري عليه في هذا العالم – فالتشوه ألقى بظلاله على كل شيء . بل، وليس باستطاعتنا تعريف كل عبارة في ناموس الله على أنها إرادته الكاملة . ولكننا، نستطيع أن نكون شاكرين على أنه: "عطية من نعمة العهد"، أن وهبنا ناموسا ليرشدنا في المحبة . **لأن هذا هو ما ترمي إليه حياة العهد في أساسها : أن نتعلم كيف نعبر عن ولائنا لله، بحسب العهد، بطرق تبين محبتنا له، ومحبتنا لأقربائنا** . وأما الكفاح الذي نواجهه، في سبيل ذلك، وكذلك الصراعات الأخلاقية التي نواجهها؛ فكلها من أعراض العواقب الخطيرة "للخطية". فنحن في حالة "ما بعد الطوفان"، ولم نعد ثانية إلى "جنة عدن".

بل نحن في حاجة إلى الاستمرار في ظل هذا التوتر، وهذا الغموض، وذلك من ناحية فهم رحلتنا الروحية أيضا . فثمة موضوعات في العهد الجديد، تذكرنا بأننا خليقة جديدة في المسيح،

نفرح بقوة قيامته . وهناك موضوعات أخرى، تذكرنا بأن الخطية جذبتنا إلى أسفل، وإن الحاجة هي أن نحارب حروب الإيمان، محتمين بدرع الله

وإذا ركزنا على الوجهة الأولى؛ فإن هذا يؤدي بنا إلى الإحساس بنصرة لا تعير معارك الحياة اهتماما كافيا.

أما الإفراط في التشديد على الناحية الثانية؛ فقد يحملنا على إنكار العطية الجديدة، التي هي في الحقيقة لنا في المسيح .

وما جاء في (رو ٥) يوضح لنا الغموض، فنحن مازلنا " في آدم "، وفي ذات الوقت نحن " في المسيح " . ونحن نعيش تشابك الجيلين، حيث ننتظر الوقت الذي سيكون فيه المسيح الكل وفي الكل. وفي هذا العالم، تلزمنا مواجهة حقيقة وجود الشد بين الناحيتين: هناك شفاء، وقيامة، وحرية من الخطية؛ كما أن هناك معاناة، ومرضا، وموتا. ولكننا ننال هذه العطية، الآن، بشكل جزئي، ولن نصل إلى كمالها - إلا في السماء .

ب. قداسة الحياة(٩ : ٤)

إن هذه الآيات التي يطالعنا بها (تك ٩)، تفتح لنا أيضا طريقا لفهم القداسة الخاصة، والتي خلعت على الحياة البشرية فى كل التعاليم الكتابية . وهذا ما يتعدى كثيرا الاهتمام التقليدي بعالمنا الحاضر، لأنه، ليس على نطاق كوني فقط، نتواطأ نحن في موت عشرات الآلاف من اخوتنا في البشرية، بسبب المجاعات أو الحروب الأهلية، بل إنه في العالم الغربي المتحضر، تنتشر عدم المبالاة بمفهوم قداسة الحياة، وذلك في كثير من المناقشات التي تدور حول أخلاقية الإجهاض، أو قتل الأطفال، أو الأبحاث الجنينية (الاستنساخ على سبيل المثال).

ولقد أسهم عديد من الفلاسفة، من أصحاب مذهب المنفعة (Utilitarianism)، من ذوي التفكير المؤثر، في المناقشات الخاصة بأخلاقيات الطب، وعلى سبيل المثال، بالقول بأن "مفهوم قداسة الحياة ليس له معنى واقعيا".

وبالتالي، ومن الطبيعي، أنه في إطار نظام أخلاقي، لا يقاس فيه ما هو صالح إلا على أساس ما ينتج عنه أعظم سعادة ممكنة، فإن مبدأ قداسة حياة الإنسان يبدو تبريره صعبا .

وعلى سبيل المثال، إذ يكتب " جوناثان جلوفر" Jonathan Glover، من موقعه، كنصير "للحركة الإنسانية" و"مذهب المنفعة"، يقول : "إن تعليم قداسة الحياة غير مقبول، ولكن فيه تكمن وجهة نظر أخلاقية يجب الاحتفاظ بها". ويقول أيضا: " يتعين علينا أن نرفض الرأي القائل، بأن

أخذ الحياة الإنسانية هو أمر خاطيء تماما . غير أنه من الخطأ، بطريقة جوهرية، مباشرة، القول بأن معظم أعمال قتل الإنسان خطأ، في حالة عدم وجود آثار جانبية ضارة[١]. ثم يناقش "جلوفر"، بعد ذلك، الصعوبات التي تواجه تعريف الحياة، الموت، الوعي، الشخصية ، وما إلى ذلك، ويقيم تقديراته الأخلاقية، بالنسبة لموضوعات مثل الإجهاض، وقتل الأطفال، والقتل الرحيم، أي المرضى الميئوس من شفائهم، وغيرها من الخيارات التي تفاضل بين الحياة والموت، على أساس احترام استقلالية الفرد، وعلى المفهوم الخادع بأن " الحياة جديرة بأن نحياها " .

غير أنه في إطار علاقة العهد (تك٩)، والتي حددت ما هو صالح، على أساس طبيعة الله، واهتمامه بما هو أفضل لخير الإنسان؛ تكون الحجة مختلفة تماما.

ويقول (سفر التكوين) إن كل حياة لها أهميتها لدى الله؛ فحتى حياة الحيوان، يجب ألا تؤخذ دون داع . وهذا واضح من القيد الذي وضع على الميل إلى سفك الدماء، والذي تضمنه الأمر القائل: " غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه " (تك٩: ٤) . فلا يسفك دم الحيوان، إلا في إطار القيود المفروضة. وكما يقول "فون راد" Von Rad: وحتى حينما يذبح الإنسان ويقتل، فعليه أن يعرف أنه يلمس شيئا، من هو ملك الله، لأنه حياة من الله، وتأكيدا لهذا، يجب أن يرفع يده عن الدم.[١].

غير أن الأكثر من هذا، هو أن دم الإنسان لا يجب سفكه بأية حال. وهكذا، فإن هناك فرقا بين الإنسان والحيوان، فيما يتعلق بدرجة الحماية المناسبة لكل منهم. فلا يجب على أي إنسان، أن يقرر وحده أن يأخذ حياة آخر، فالله هو سيد الحياة كلها . إنها فقط في حالة القتل الخطيرة للغاية ، في البشرية الساقطة، هي التي - هنا في سفر التكوين - يمكن أن تطلب من إنسان بمفرده، بأمر إلهي أن يأخذ حياة آخر. وبالتالي، فعقوبة الموت (الإعدام) في هذه الفقرة، مردها الاحترام البالغ لحرمة حياة الإنسان .

ولذلك، نرى، هنا، تحريما ضمنيا مطلقا يمنع سفك دم البريء . وهذا مبدأ توضحه بالتفصيل مواضع أخرى من الكتاب المقدس : فكل إنسان بريء، له الحق في ألا يقتل عمدا[٢]

---

(١) J. Glover, *Causing Death and Saving Lives* (Penguin, 1977), p.42.

(١) مرجع سابق Von Rad, p.127.

(٢) انظر تحريم سفك دم البريء ، على سبيل المثال في (عد ٣٥ : ٣١ ٣٤)، (إش٥٩: ٧)، بالمقارنة مع (إر ٣:٢٢، مت٢٧: ٤).

هذا المبدأ، قد شكَّل أساس التشريعات والمعاهدات التي تدعم الحق في الحياة . وهنا - وعلى سبيل المثال - نجد أحد مصادر التعليم الخاص بحصانة غير المحاربين في وقت الحرب، ومعيار التمييز الذي استند إليه "الأسقف بيل" Bishop Bell في مجلس اللوردات، سنة ١٩٤٤، حيث أدان القوات المتحالفة، لقذفها مدينتي همبورج وبرلين قذفاً مكثفاً دون تمييز. وهذا المبدأ، يشكِّل أيضاً موضوعاً رئيسياً - كما سبق أن أوضحنا - في المناقشات التي تدور حول الأخلاقيات الطبية بالنسبة للموت الاختياري.

ويعلّمنا (سفر التكوين) أن الأبرياء لا يجب أن يُقتلوا عمداً. والسبب في ذلك، هو أن " الله على صورته عمل الإنسان " (تك٩ : ٦) . وهذا اعتبار مهم وحيوي في المعضلة الاخلاقية الشائكة المتعلقة بالإجهاض، وأبحاث الجنين، التي تُدمّر فيها أجنة إنسانية .

والخطورة الرهيبة في القضاء على حياة أي إنسان، ترجع إلى حقيقتين مهمتين:

أولاً : أن حياة الإنسان، بمعنى خاص للغاية، هي مِلك الله، وقد عرفنا هذا من (تك١) . ولمسنا هذه الحقيقة في قصة قايين وهابيل، الذي صرخ دمه إلى الرب . كما رأيناها، في هذه الفقرة، مرة أخرى. فحياة الإنسان هي عطية من الله - أو كما يقول "كارل بارت" Barth بشكل أشد : "هي عارية(قرض أو سلفة) من الله ".

ثانياً : وكما سبق أن رأينا، كل إنسان يحمل صورة الله. وإذا كانت مناقشتنا لموضوع الصورة الإلهية في الأصحاح الأول (انظر التعليق على ١ : ٢٦ - ٢٧) على صواب؛ فإن صورة الله تُرى في علاقة الله بهؤلاء الناس أي في تاريخهم أمام الله وليست في أية مقدرة لهم في ذواتهم . وهذا هو ما يأتي بنا إلى تحذير مهم للغاية، بالنسبة لهؤلاء الأعضاء الصغار الذين ينتمون إلى البشر وأقصد بهم أجنَّة الإنسان. لأنه، أياً كان ما نتصوره بالنسبة لشخصية هذه الأجنَّة قدراتهم وإمكانياتهم ، فإنهم بلا شك أعضاء حية من الجنس البشري؛ وعلى هذا؛ هم في صورة الله ذاته، ولذلك فَهُمْ بهذا المعنى " أشخاص في طريق النمو" .

فمن الطبيعي - كما سبق القول، أن هناك قدرات إنسانية معينة، يتضمنها التعبير الكامل لصورة الله في هذا العالم . غير أننا جميعاً مدعوون للاشتراك في عملية أن نصبح أناساً كاملين بحق - أن ننمو بشكل أكثر قرباً من صورة الله التي نراها في المسيح. ونحن جميعاً في مرحلة معينة من تلك العملية . ولذلك، يبدو الأمر متناغماً تماماً (مع ما قاله ريتشارد هيجنسون Richard Higginson) من أن هناك بالفعل انعكاساً لهذه الصورة في البدايات الأولى للحياة الجنينية . ومن الطبيعي، أن جنين الإنسان لا يمكن أن يكون إعلاناً كاملاً للصورة الإلهية، ولا حتى الجنين في

اكتمال نموه ، أو حتى الرضيع ، ولا حتى معظمنا ، نحن الراشدين الخاطئين . وأجنة الإنسان في مرحلة تكوينها الأولى، لا تختلف، من حيث النوعية، عن بقيتنا، فهي ببساطة في مرحلة مبكرة من عملية النمو ، والله، له معهم تاريخ وعلاقة أيضاً .

ولذلك، فإنه بالنسبة للأجنَّة أيضاً – ولا سيما بالنظر إلى أنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لهم حق بديهي واضح في ألا يُقتلوا عن عمد. أما من ناحية ما إذا كانت هناك اعتبارات أخلاقية أخرى تبرر هذا الحق، فمن الطبيعي أن يشكل هذا مجالاً للحوار والجدال، يختلف فيه مسيحيون كثيرون .

ج. سلطة القانون المدني (٩ : ٥)

هذه الفقرة من (تك٩)، هي المكان الذي نجد فيه بعض التلميحات الأولية التي تطورت في تفكير لاحق، حتى أصبحت فكراً لاهوتياً للدولة. لأن ما هو مهم وجديد هنا ، هو أنه على الرغم من أنه ستكون هناك دينونات إلهية في التاريخ : " وأطلب أنا دمكم " (تك٩ : ٥)، إلا أنه في بعض الحالات، فُوضت للمجتمع البشري نواح من هذه الدينونة : " سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه " (تك٩ : ٦) .

والسلطات البشرية عليها أن تقوم بنصيبها في ممارسة الدينونة الإلهية. وهنا، نرى بدايات عقيدة خاصة بنظام اجتماعي، وبالسلطات، بل وبالدولة .

ومبدأ الحكومات المنظمة، يتعين أن يكون علامة على أن الله لا يزال يعمل في حفظ العالم الذي لا إيمان له . والإنسان عليه أن ينظم المجتمع، بطريقة تعبّر إلى حد ما عن شخص الله . والدولة تُوجد – بصفة خاصة – لتوفير بيئة يسود فيها النظام والعدل .

وهذا ما يُستشف من دلالات في العهد الجديد، بخصوص موضع الدولة في مقاصد الله، وهذا الأمر واضح للغاية في أقوال الرسول بولس في رومية (١٢- ١٣). ففي (رو١٢)، نتعلم أن الأفراد يجب ألا يثأروا لأنفسهم إطلاقاً؛ لأن الدينونة هي من أعمال الله. كما نجد في (رو١٣)، أن القائمين على الحكومة – الذين يقول عنهم الرسول بولس إن لهم دوراً، محدوداً ومؤقتاً، تحت رقابة الله هم وكلاء الله، بالنسبة لعقاب فاعلي الشر.

وكما سبق القول، فهناك تلميحات إلى هذا الرأي في سفر التكوين، فالسلطات المدنيّة لها دور عينَّه الله – ولو أنه محدود، للمحافظة على النظام، وعقاب الخارجين على العدالة وهو تحت سيطرة الله .

د. عقاب العدالة الإنسانية: عقوبة الإعدام (٩ : ٦)

كثيراً ما أستخدمت الآية (٩ : ٦)، كأساس كتابي لتبرير عقوبة الإعدام .

ولقد كان الفلاسفة يميلون إلى الإجابة على السؤال العام: لماذا العقاب؟!! بإحدى طرق ثلاث: إجابتان منهما، تنتهجان نهج "مذهب المنفعة". حيث تنظران إلى الخير المستقبلي الذي يمكن أن يتحقق، إما نتيجة إصلاح المجرم، وإما نتيجة إبعاده عن المجتمع، فربما يكون في هذا ردعٌ للآخرين. أما الإجابة الأخرى، فتنظر إلى الجريمة السابقة، وتقول بأنه بسبب ما اقترفه المجرم؛ فهو يستحق العقاب. ولكن هذه الإجابات بالطبع، ليست تناولات جامعة مانعة لمعنى العقاب وهدفه : فلابد أن تكون ثمة عدالة في ممارسة العقاب، كما يجب أيضاً أن تكون هناك عدالة في القرار الخاص بالعقاب .

أما بالنسبة لعقوبة الإعدام، فليس من الواضح أن أي إصلاح يمكن أن ينجم عنها، فيما عدا استخلاص التوبة من المجرم، وهو في طريقه إلى الموت. ومن معظم الدراسات المتاحة، نخلص بأنه من الصعوبة قبول أو إثبات الرأي القائل بأن عقوبة الإعدام تعد ردعاً للآخرين؛ حتى لا يرتكبوا هذه الجريمة. ولذلك؛ فإنه بالنسبة لعقوبة الإعدام، يجب أن تستند بقوة على مفهوم الاستحقاق (أو الجزاء).

وفكرة "الاستحقاق" - أي معاقبة شخص لأنه يستحق ذلك - كثيراً ما وُصفت على أنها جزاء ، وهي فكرة غير مقبولة لدى بعض المفكرين المعاصرين. ومع ذلك، وكما جادل كثيرون، ألا يكون الأمر غير أخلاقي إن عاقبنا شخصاً لا يستحق العقاب؟!! لأن "العقاب" لا يلزم أن يكون بدائياً، أو انتقامياً، أو ثأرياً . ولكن يمكن أن يكون الأمر إيجابياً، بالنسبة، للرأي القائل بأن انتهاك القوانين الضرورية لرخاء المجتمع، يتطلب من هذا المجتمع أن يتخذ الإجراءات اللازمة لدعم قوانينه.

وفكرة "الجزاء" واضحة في (تك٩)، حيث وُضع مبدأ حكم الإعدام، لمن يسفك دم إنسان بريء : " سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه " (تك٩ : ٦) .

وهذا - بالنسبة لبعض المسيحيين - لم يؤكد أهمية "الجزاء" - كجزء ضروري من معنى العقوبة فحسب، بل أدى أيضاً إلى الرأي القائل بأن عقوبة الإعدام "مطلوبة" بالنسبة لجريمة القتل، وهو رأي نحن في حاجة إلى تناوله بشيء من الحذر، وذلك لعدة أسباب .

أولاً : الشريعة ضد أكل "لحم بدمه ". والتي جاءت، قبل ذلك، بآيات قليلة من الواضح أنها لا تُطبَّق كشريعة مطلقة في الأسفار المقدسة كلها. والواقع أن يسوع نفسه أعلن أن كل الأطعمة طاهرة (نظر مر٧: ١٩) . **أما بالنسبة لهذه الشريعة، فإننا - كمسيحيين - في حاجة إلى أن نقرأ ما جاء في (تك٩: ٦)، على ضوء إنجيل المسيح؛ وبعدئذ نقرر كيف يبدو الأمر.**

ثانياً : يبدو واضحاً أن عقوبة الإعدام في إسرائيل، قديماً، كانت مرتبطة بقوانين الوصايا العشر. أما في تشريعات أسفار موسى الخمسة، فقد قُررت لمن ضرب إنساناً ضرباً أفضى إلى الموت، وللقتل العمد، أو لضرب الآب او الأم، أو لسرقة شخص آخر، أو للعن الأب أو الأم، أو إلحاق الأذى بامرأة حامل نتيجة شجار أدى إلى فقدانها ولدها، أو فقدان أحد حياته أثناء الشجار (خر٢١: ١٢- ١٤) . وكذلك، لمن اشتغلت بالسحر، أو للشخص الذي يضاجع بهيمة (خر٢٢ : ١٨ ، ١٩)، ولممارسات جنسية خاطئة أخرى مختلفة تنتهك الوصية السابعة (لا ٢٠ : ١٠ و١٣ ، ١٤، ٢١: ٩)، ولعدد من الجرائم الأخرى. وقد أعطيت هذه الشرائع لتأكيد هوية المجتمع اليهودي، باعتباره شعب الرب(يهوه). ومن الواضح أنها كانت عقوبات كبرى - ولا نعرف متى، أو إلى أي حد نُفذت . ولكن من الجلي أن عقوبة الإعدام، لم تكن تُنفذ، بصفة روتينية، لجريمة الزنى في أيام هوشع النبي .

ثالثاً : نحن في حاجة إلى أن نضع ممارسة العقوبة، في نطاق البيئة الاجتماعية التي تُقام فيها العدالة. ففي مجتمع البادية (الصحراء) في إسرائيل قديماً، حيث لم يكن مُؤمَّن جيداً، كانت الحاجة تدعو إلى عمل فوري وحاسم لمنع وقوع جرائم أخرى، وكان هذا يتحقق على أفضل وجه بتوقيع عقوبة الإعدام في بعض الحالات. وليس معنى هذا، بالضرورة، أن العدالة كانت تُنفذ دائماً على هذه الطريقة . لأنه على الرغم من أن (تك ٩) يخصص عقوبة الإعدام لجريمة القتل، بالتحديد، ولأن كرامة وقداسة حياة الإنسان الذي خُلق على صورة الله هي التي قد أنتهكت، إلا أن السؤال الموجَّه لنا - بعد الصليب والقبر الخالي، وفي ثقافة تُوجد بها أشكال أخرى من العقوبات **هو: كيف ننظم توقيع العقوبة على أفضل وجه؛ بحيث نحافظ أيضاً على كرامة وقداسة حياة الإنسان ؟!!**

إن بعض المسيحيين يعتقد أن عقوبة الإعدام لا تزال وسيلة مناسبة لحفظ العدالة في مواجهة جريمة القتل. والبعض يقولون إن هذا ما يجب اتخاذه، بصفة خاصة، بالنسبة للقتل الذي ينجم عن الإرهاب، ويقولون آن يسوع لم يلغ عقوبة الإعدام كما فعل بالنسبة للشرائع المتعلقة

بالطعام، وأن القديس بولس علّم بأن القاضي الذي يحمل سيف العدالة هو خادم الله (رو ١٣: ١-٤). ومع ذلك، فهناك آخرون يعتقدون أنه في هذا العالم الساقط الذي يكتنفه الغموض، والذي يجب فيه أن تكون عدالتنا نحن البشر - متناغمة، بقدر الإمكان مع عدالة الله. وإن كانت الأهداف في هذا العالم، كثيراً ما يشوبها الغموض، وتناقض المسئولية أحياناً، وحيث حالات احتمال الخطأ بالنسبة للهوية، وسوء تطبيق العدالة في المجتمع الحديث، أكثر احتمالاً مما كنا نريد، إلا أن القرار الذي لا رجعة فيه بحرمان شخص آخر من حياته، يجب استبداله بصور أخرى من العقاب، يمكن أن يُنظر إليها بفاعلية أكثر، على أنها تحترم المبدأ الذي ورد في (تك٩)، والخاص بقداسة حياة الإنسان وكرامتها.

هـ. عدالة التوزيع (٩ : ٧)

لقد سبق أن قلنا إن السلطات البشرية قد أُعطيت من قِبل الله دورا - وإن كان محدودا لحفظ النظام، وإقامة العدالة؛ ومن ثم توقيع العقاب على كل من ينتهكها، وذلك في خضوع لله. وحيث أن هذا الدور قد وُضع في إطار مقاصد الله الخالقة بالنسبة لعالمه، ومن حيث إن الوكالة على الخليقة كما رأينا هي أمر نشترك فيه نحن البشر معاً، بل وأكثر من ذلك، حيث أن هذا القسم من سفر التكوين يؤدي بنا إلى الوعد الذي تضمنه العهد، والذي فيه جُمع بين نوح ونسله وكل كائن حي؛ فمن ثمَّ، يتعين علينا أن يتضمن مفهوم العدالة: "عدالة التوزيع"، التي تتحقق في المشاركة المتساوية في موارد الأرض الوفيرة.

وكذلك، فإن الدولة ليست تدبيراً من الحد الأدنى للقانون والنظام، بل تتحمل أيضاً مسئولية "العدالة الاجتماعية" على نطاق أوسع. أليس مفهومنا عن البشر، باعتبارهم أساساً "أشخاص في علاقة معنا"، يشير إلى نفس الاتجاه ؟

إن "العدالة" تشمل علاقات الرجال والنساء مع بعضهم البعض، ومع بقية النظام المخلوق، في إطار مجتمع الخليقة. لأن العهد، الذي نظّم الفصول، مهتم أيضاً بزمن الزرع والحصاد.

٣. نعمة العهد

(٩ : ٨ ١٧)

ليست هناك سوى مناظر قليلة، يمكن أن تفوق البريق المبهر "لقوس قزح" الكامل، من حيث الإثارة والقوة، في وسط العتامة المنذرة بالسحب الرعدية . والتعبير العبري الذي أستخدم لوصف قوس قزح في (تك ٩)، هو التعبير الذي يُستخدم عادة (لقوس المحارب). وعلى هذا، كم كانت تلك العلامة التي وضعها الله بارزة وواضحة في ذلك التوقيت بالتحديد، " وضعت قوسي في السحاب " (تك٩ : ١٣)!! لقد كانت هذه هي علامة العهد الذي قطعه الله مع نوح ومع كل كائن حي. ولقد انتهت العداوة : حيث علّق الله قوسه. والعهد ليس من صنع الإنسان على الإطلاق، فهو في جماله الطيفي، لا يحدثنا إلا عن الخالق – ونور جماله يسطع، حتى من خلال ما يذكرنا بالدينونة التي أستخدم فيها الماء. فسلاح الحرب ذاته، تحول إلى شيء بهيج. وهنا نرى عناية الله البالغة : فالله الخالق هو إله العهد، فالذي خلقنا ما زال يحبنا.

والإشارات الأخرى، الوحيدة، إلى "قوس قزح" في الكتاب المقدس، نجدها في (حز١: ٢٨)، وفي (رؤ٤ : ٣؛ ١٠ : ١). و"قوس قزح" في سفر حزقيال يشكّل جزءاً من " منظر شبه مجد الرب " . وفي (رؤ٤ : ٣) يشكّل هالة حول عرش الله – وهي صورة التحقيق النهائي للعهد، حين تشترك كل جماعة السماء في عبادة الجالس " على العرش": " أنت مستحق أيها الرب الإله أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخلقت. " (رؤ٤ : ١١) .

أما في (رؤ١٠) فالصورة لملاك قوي " متسربلاً بسحابة وعلى رأسه قوس قزح " – فهو الملاك المحارب الذي يعبّر عن دينونة الله .

إن الخلاص، بحسب ما رأينا في قصة الطوفان، هو نعمة ودينونة . وصورتا "قوس قزح" في سفر الرؤيا تقولان نفس الشئ. فوعد العهد، قد جاء وليد محبة الله الراسخة الكريمة التي لا تخذل أبداً – وقد انتهت عداوته بالنسبة لنا . والإنسان الذي قطع الله معه العهد، قد حُفظ سالماً في الفلك، وفي استطاعته أن يعيش الآن، في حرية، تحت "قوس قزح". غير أن الله لا يزال في حاجة إلى ملاكه المحارب، فهو لا يزال في حرب مع الشر، وقوسه – إذا جاز التعبير – يقشع السحب الداكنة المهددة، والتي إن لم تُكبح، أطلقت العنان لمياه الدينونة مرة ثانية .

و"القوس" في (تك٩) يذكّرنا بأن العالم يعتمد في وجوده على وعد الله، إذ قال لنوح : " **إني أذكر ميثاقي** " (تك٩ : ١٥)، ولا مجال هنا للقدرية الكونية (cosmic fatalism)، وليس ثمة

أساس للقول: " فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت ". فالعالم مدين باستمرار وجوده لالتزام الله بأنه سيكون هكذا، "فالقوس" إذاً "علامة للرجاء". ونقتبس فيما يلي مرة أخرى من أقوال مولتمان :

"إن وعد الله، بأنه لن يدمر مرة أخرى كل ذي جسد بسبب شره، هو وعد غير مشروط من قبل الله. وهذه هي كلمة " نعم " التي لا نحبب، والتي قالها الله لخليقته. وتاريخ البشرية بتغيراته ومخاطره، وتقلب تاريخ الطبيعة، يقوم كلاهما على أساس مشيئة الله غير المشروطة . فالكوارث الطبيعية ومآسي البشرية في التاريخ، ليس بمقدورها أن تلغي كلمة " نعم"، التي قالها الله لخليقته وللإنسان. بل حتى شر الإنسان نفسه، ليس بمقدوره أن يحبط إرادة الخالق نحو خليقته، فالله يظل أميناً للأرض؛ لأنه يظل أميناً لنفسه . ولا يمكن أن ينكر ذاته"[1].

وهذا بالنسبة لله، يعني تألم المحبة الإلهية، في انتظارها عودة الضال. وبالنسبة لنا، فهذا يعني الثقة في أنه على الرغم من كل المخاطر والتغييرات في هذه الحياة المتقلبة، إلا أن الله يمسك بالعالم كله في قبضته، ونحن اليوم، في حاجة إلى مثل هذا الرجاء.

ففي عالم، استسلم فيه الكثيرون من معاصرينا "للقدرية الكونية" - ولعل هذا ما تم التعتيم عليه بواسطة القنبلة الذرية، أو بالمنازعات السياسية العنيدة، والصراعات الأيديولوجية، أو الكراهية المتبادلة التي نجمت عن أجيال من عدم الثقة - نجد أننا في حاجة للبحث عن سبل لإعلان حقيقة أن - على الرغم من كل هذه المظاهر - الله لم يتخلَّ عنا، ولن يفعل ذلك إطلاقاً .

لأن العهد يشير أيضا إلى الخليقة. فهذه الظاهرة الملونة الرائعة في سماء مقاصد الله الودودة ترجع بنا ثانية إلى نظام الخليقة وأنماطها. فقوس قزح في بهائه الرائع، يلفت انتباهنا إلى نظام طبيعي، يعتمد على طبيعة الضوء وانكساره. غير أن جمال ذلك النظام الطبيعي، يمكن اعتباره أيضاً مثل " إشارة للسمو الفائق " (كما يقول بيرجر Berger)، حيث يتجاوز نفسه، ليشير إلى إله الخليقة والعهد .

والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لا تدركه . فالنظام الطبيعي للعالم المادي، هو نظير مرئي للنظام الأدبي لإله العهد (انظر مزمور ١٩) . فنحن نعيش في كون أدبي منظم، وما "قوس قزح" سوى علامة له. وهذا القوس متعدد الألوان، إنما يشير، بلا شك، للوراء - إلى موضوعات الخليقة، والعناية الإلهية، وأمانة العهد . وفي امتداده، في جلال، عبر السماء؛ يلفت أنظارنا إلى الحَمَل على

---

(1) Moltmann, *Power of the Powerless*, p.10.

العرش، واكتمال الخليقة في مجتمع العهد. إنه علامة للرجاء. وكما يقول "ديليتش" Debitzsch.. "وإذ ينشأ هذا القوس من تأثير الشمس على كتلة السحب السوداء؛ فإنه يصوّر لنا استعداد السماويين للانتشار بين الأرضيين.. (فالسموات والأرض) يمكنهما أن يجتمعا معاً. فالقوس هو أيضاً علامة للنعمة."[١]

ولنلاحظ ما ترمي إليه هذه الفقرة : فهي تفسِّر الأسئلة الرؤيوية apocalyptic questions للحاضر، حيث معنى استمرارية الحياة في ضوء حُكم الله في التاريخ - بإشارتها إلى إله الخليقة، والعناية، والعهد .

أليس هذا موضوعاً آخر يعزي شعب الله ؟

أليست هذه كلمة لمعاصرينا أيضاً ؟

ذلك، إن جزءاً من مهمتنا، نحن الشعب المسيحي، هو أن نشرح الأسئلة الرؤيوية المتعلقة بأيامنا، بطريقة تتيح لنا أن نتعداها إلى الإشارة إلى الله. وحين ننخرط في مناقشة متعلقة بالأخلاقيات البيولوجية (bioethics)، أو الردع النووي (Nuclear deterrence)، فعلينا ألاّ نقتصر على المسائل المتعلقة بالخصائص الوراثية، أو نظريات الاستراتيجية العسكرية، ففي مثل هذه المجالات وغيرها، حين لا تتعرض حياة الإنسان للخطر من قِبل إنسانية الإنسان؛ هنا نكون واقفين على أرض مقدسة . ويتعين علينا أيضاً أن نكون شهوداً لقداسة الله في هذه المسائل البالغة الأهمية. كما يجب أن نشهد دائماً لله، الذي يحافظ على وعده؛ الله الذي لن يتخلى عنا . كما أنه ينبغي أن تحملنا شهادتنا إلى العمل الاجتماعي المتعلق بتنظيم مجتمعنا - حيث نعتبر قادة المجتمع مسئولين أمام الله - وأن يعكس نظامنا الاجتماعي، ونظام العدالة الخاص بنا، شيئاً من صفات قداسته وصلاحه ومحبته .

ويتضمن هذا بُعداً فردياً أيضاً؛ لأن علامة العهد المتمثلة في "قوس قزح" قد أُعطيت لفرد : " وقال الله لنوح " (تك٩ : ١٧). فلم يكن "قوس قزح" مجرد تذكرة بالتزام الله بالنسبة لعالمه وحسب، بل كان أيضاً من شأنه أن يقوي إيمان نوح في وعد الله .

وهذا هو أسلوب علامات العهد، فعلامة الختان، العهد بين الله وإبراهيم ونسله(تك ١٧ : ١٠)؛ هي أيضاً قد أُعطيت لشخص واحد إلى إبراهيم نفسه، لتقوية إيمانه. وهي علامة على أن الله قطع عهداً، ودعوة إلى طاعة الإيمان، التي كان يتوقعها الله من تلك اللحظة فصاعداً . والسبت

(١) C. F. Keil and F. Delitzsch, *Biblical Commentary on the old testament*, vol.1 (Eerdmans reprint 1971), p.155.

كذلك، هو أيضاً علامة على وعد الله بتقديس شعبه، والتزامهم بأن ينظموا حياتهم طبقاً لنمط خليقته (خر٣١: ١٣ - ١٧) .

وفي العهد الجديد، نجد أن المعمودية - والتي تقابل علامة الختان في العهد القديم (كو٢: ١١- ١٢) - ليست هي أيضاً علامة الدخول في المجتمع المسيحي فحسب، بل هي، بصفة خاصة، علامة على أن وعد الله بالنعمة قد قُطع، بصفة خاصة، لهذا الشخص بالذات، وذلك لتقوية إيمانه وحمله على الالتزام بطاعة الإيمان .

وعلامات العهد، التي نسمّي بعضها الآن " أسراراً مقدسة " أو "فرائض مقدسة"، هي علامات خارجية مرئية لنعمة روحية داخلية. وقد أعطيت؛ لتكون وسائط للنعمة، سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة لحياة الجماعة المسيحية؛ لأن الالتزام الشخصي لله هو في ذات الوقت انضمام إلى جماعة شعبه (انظر١كو١٠ : ١٤ - ١٧): جسده، وكنيسته. وأن تكون عضواً في جماعة العهد؛ هو أن تلتزم في حياتك الشخصية والاجتماعية بأن تعيش كما يليق بشعب الله.

أما قدرتنا على عمل ذلك، وثقتنا فيه، بل وتحفيزنا للقيام به،إنما تأتي من وعد الله: **"وها أنا مقيم ميثاقي معكم.... لا أعود ألعن الأرض أيضاً "**. فوعد الله، كما يقول، "مولتمان" يعطينا جميعاً الفرصة للحياة .



٤. سُكْرُ نوح

(٩: ١٨-٢٨)

" ١٨ وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان.
١٩ هؤلاء الثلثة هم بنو نوح . ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض.
٢٠ وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً . ٢١ وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل
خبائه. ٢٢ فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً . ٢٣ فأخذ سام ويافث
الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء . فلم
يبصرا عورة أبيهما . ٢٤ فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . ٢٥ فقال ملعون
كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. ٢٦ وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم.
٢٧ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبداً لهم.
٢٨ وعاش نوح بعد الطوفان ثلث مئة وخمسين سنة. ٢٩ فكانت كل أيام نوح تسع مئة
وخمسين سنة ومات. ".

لعلنا نتساءل: لماذا كُتبت هذه الفقرة الصغيرة البغيضة ؟! وبعد قصة الخلاص من الطوفان، وتأكيد الوعد الإلهي الذي أعطي قوس قزح علامة له، فلماذا العودة، الآن، إلى هذه القصة، التي تعرَّض فيها نوح للسكر؛ حتى فقد الوعي، ثم أتى بتصرفٍ خالٍ من الوقار؟!! ولماذا الإزعاج ولعنة كنعان؟! مما يبدو هبوطاً لمستوى أدنى؟!!

لقد حاولت بعض "التفسيرات المجازية" للكنيسة الأولى أن تنقذ هذه القصة، وبل تقدسها بالقول إن "نوحاً" هنا رُمز إلى المسيح! فالثالوث المقدس رُمز إليه "بالفلاح" الذي يهيئ التربة، والمسيح يشرب "كأس" الخلاص، أما "عُريّه" فهو تعريض نفسه للخزي على الصليب أما "حام" فيرمز إلى اليهود الذين لم يؤمنوا والذين استهزأوا به وسخروا منه، وأما "سام" و"يافث" فيرمزان

إلى الذين آمنوا بالمسيح، من اليهود والأمم، الذين يبني الله منهم الآن كنيسته، مكاناً لسكنى الروح القدس.

وبدلاً عن ذلك، استخدم البعض هذه الفقرة، كدرس أخلاقي، لإرشاد الكهنة المساعدين، من ناحية التزامهم بتغطية أخطاء رؤسائهم. ومهما كان هذا ضرورياً، إلا أنه من المؤكد أن هذا يحمّل النص بأكثر مما يحتمل .

ونحن في حاجة، أولاً، إلى أن ننظر إلى النص كما هو . (فالعددان ١٨ ، ١٩) يربطان قصة نوح بحياة أولاده الحاضرة، الذين منهم " تشعبت كل الأرض". وصيغة القصة المتنامية، تأتي مرة أخرى في (تك ١٠ : ١). حيث نُؤخذ إلى قصة انتشار الحضارة في الأرض كلها، بعد الطوفان، وفي هذا السياق، وُضعت قصة هذا الحادث المتعلق بنوح .

وقد ذُكر لنا أن نوحاً كان فلاحاً يزرع الأرض، وهنا، نلمس أصداء، لا تفوت على أحد، لقصة آدم في الجنة، والمذكورة في (تك٢: ١٥). وبعد الطوفان، كان لابدّ من إعادة بناء الحضارة. وقد غرس نوح كرماً. ولم يكن هناك خطأ معيناً بالنسبة للخمر، بل إن بعض أجزاء الكتاب المقدس تذكر أن الخمر " تفرح قلب الإنسان (مز ١٠٤ : ١٥) - ويجب تقبلها كهبة من الخالق. ومع ذلك، فإنه حتى في العالم بعد الطوفان - كما رأينا عدة مرات من قبل كانت الحياة تُقضي في توتر. وما يُعطى، كبركة، يمكن أن يصبح مصدر تجربة أو سقوط. فالكرمة التي غرسها نوح، تمكنت منه أخيراً. فرجل الإيمان، يمكن أن تقهره الإغراءات التي تصبح أقوى من أن يستطيع مقاومتها.

وواضح من هذا النص، أن نوحاً وصل به الإغراء إلى درجة "العُري"، وهي كثيراً ما كانت تُعد عاراً وسبباً للخزي في الكتاب المقدس. إنه نوح، الذي سار مع الله، والذي فعل كل ما أمره به الرب فيما يتعلق بالفلك، والذي وثق في الرب في طاعة الإيمان في الوقت الذي كان كل ما حوله في حالة من الفوضى، والذي قدّم محرقة للتكريس، والذي تقبّل وعد الرب القائم على العهد - هذا الرجل الخائف الله، يوُصف الآن بأنه سَكر وتعرّى داخل خيمته!!

ولقد اعتقد مفسرون كثيرون أن هذه الصورة متنافرة، ولابدّ أنها دخيلة على النص. ولكن، ألا يمكن أن يكون هذا التنافر، هو الذي يجب أن يسترعى انتباهنا ؟! لقد ذُكرنًا في (تك٨: ٢١) أنه، حتى بعد الطوفان، كان " تصور قلب الإنسان شرير ". لقد خلّص الله نوحاً وعائلته، ولكن النجاة شيء والتغيير شيء آخر. ورجال الإيمان، دائماً، معرضون للسقوط في الخطية. فالإعلان في المعمودية، انك أصبحت عضواً في الجماعة المسيحية، ليس ضماناً بالقداسة الفورية، بل ما هو إلا بداية لرحلة التقديس والنمو؛ لأن حياة طاعة الإيمان لها مخاطرها. لكن سقطة نوح، هي قصة

أخرى، تسترعى أنظارنا جميعاً. وينتهي الأصحاح بأن يذكِّرنا بأنه هو أيضاً كان إنساناً مصيره الموت (تك٩: ٢٩).

غير أنه مهما كان ما نقوله عن نوح، فإنه يبدو أن المشكلة الكبرى تتعلق بابنه "حام". وعلى النقيض من رد الفعل المهذب لسام ويافث، فقد صُوِّر حام بأنه يسيء إلى كرامة أبيه، ولعل ذلك كان بالنظر إلى عُري أبيه نظرة غير طاهرة، وبصورة وكم كان حسناً، أنه - قبل أن نقرأ عن هذا الصراع المتواصل، الذي خاضه رجل الإيمان ضد الجهل والضعف والفشل، وهي الأمور التي كانت سقطة نوح ترمز إليها إننا أخبرنا بقوس قزح الرجاء!!

ما لا نعرفها، وبعد ذلك، بإذاعة هذه الفضيحة لمن حوله. ولقد كان إكرام الوالدين، في العالم القديم، أمراً من أسمى الفضائل، ويبدو أن حام - بناءً على رد فعل أخويه، وردّ فعل نوح نفسه - انتهك ناحية أخرى من النظام الإلهي.

ولكننا في حاجة إلى أن نتجاوز النص، ونعود إلى سؤالنا السابق : لماذا كان من المهم أن يتضمن سفر التكوين هذه الفقرة ؟! وما هي الرسالة التى يريد هذا الحادث أن يوصِّلها لشعب الله ؟!!

ولعل إجابتنا تكمن في الطريقة التي لُعِنَ بها كنعان بن حام، من أجل خطية حام (٩: ٢٥ ٢٧)، لأنه، طبقاً لأجزاء عديدة في العهد القديم، كان الكنعانيون من أعظم مصادر الإغراء لشعب الله. فالانحرافات الجنسية للكنعانيين، والتي كثيراً ما كانت ترتبط بطقوسهم الدينية العربيدة، كانت من السلوكيات التي طُلِبَ من شعب الله أن يتجنبوها . "مثل عمل أرض كنعان . . . . . لا تعملوا " (لا١٨ : ٣)، وتبع ذلك قائمة من الممارسات الجنسية الشائنة، التي لا تتفق مع حياة شعب الرب.

وعلى النقيض مما كان متوقَعاً، بارك نوح الله لأنه إله سام، وصلَّى من أجل أن يسكن يافث في خيامه. ولكن هذه الأعداد مليئة بالصعاب، حيث يكتنف الغموض معانيها الدقيقة. ولكن، من المحتمل، أنها تشير إلى أن نوحاً كان يتطلع إلى المستقبل، إلى وقت يسكن فيه شعب يافث في خيام سام في أرض كنعان. فهل نجد إشارة، هنا، إلى أنه على الرغم من مجيء الأمم وذهابها (المشار إليهم في تك ١٠)؛ فإن الله ما زال يمسك بزمام الأمور بالنسبة لتاريخ العالم وأنه سيأتي يوم يُرحب فيه بمن هم "من خارج"، ليصبحوا من بين شعب الله؟

إلا أنه رغم ذلك، فما هو واضح هو آن (تك ٩)، يقول لنا في هذه القصة الرائعة كيف أن أبا الكنعانيين أتهّم بسوء السلوك وذلك من نحو والده نفسه. وهذا ما يُعدّ تذكرة لشعب الله، ليعرفوا

كيف أنه من السهل أن يضل الإنسان عن نماذج الحياة المناسبة لشعب العهد. فحتى "كارز البر"، لم تكن له حصانة من التجربة والسقوط. وخطية إنسان واحد. (وهو حام)، يمكن أن تهيئ السبيل للأجيال التالية (كنعان). فعلينا نحن شعب الله أن نحذر؛ حتى لا نضل أيضاً، على يد الكنعانيين الساكنين بيننا.

الباب السادس

الله هو رجاؤنا وقوتنا

[أصحاح ١٠:١ -أصحاح ١١:٣١]

١.سلسلة أجناس الأرض

(١٠: ١ ٣٢)

"١ وهذه مواليد بني نوح. سام وحام ويافث. ووُلد لهم بنون بعد الطوفان. ٢ بنو يافث
جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس. ٣ وبنو جومر أشكناز وريفاث
وتوجرمة. ٤ وبنو ياوان أليشة وترشيش وكتّيم ودودانيم. ٥ من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم
بأراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم.
٦ وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان. ٧ وبنو كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة
وسبتكا . وبنو رعمة شبا وددان. ٨ وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض. ٩
الذي كان جبار صيد أمام الرب. لذلك يُقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. ١٠ وكان ابتداء
مملكته بابل وأرك وأكّد وكلنة في أرض شنعار.١١ من تلك الأرض خرج أشور وبني نينوى
ورحوبوت عير وكالح. ١٢ ورسن بين نينوى وكالح. هي المدينة الكبيرة. ١٣ ومصرايم ولد لوديم
وعناميم ولهابيم ونفتوحيم. ١٤ وفتروسيم وكسلوحيم. الذين خرج منهم فلشتّيم وكفتوريم. ١٥
وكنعان ولد صيدون بكره وحثّاً . ١٦ واليبوسي والأموري والجرجاشي. ١٧ والحويّ والعرقي
والسيني. ١٨والأروادي والصماري والحماتي. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني. ١٩ وكانت
تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة
وأدمة وصبوييم إلى لاشع. ٢٠ هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم.
٢١ وسام أبو كل بني عابر أخو يافث الكبير ولد له أيضاً بنون. ٢٢ بنو سام عيلام وآشور
وأرفكشاد ولود وآرام. ٢٣ وبنو آرام عوص وحول وجاثر وماش. ٢٤ وأرفكشاد ولد شالح
وشالح ولد عابر. ٢٥ ولعابر ولد ابنان: اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت الأرض . واسم

أخيه يقطان. ٢٦ ويقطان ولد ألموداد وشالف وحضرموت ويارح. ٢٧ وهدورام وأوزال ودقلة
. ٢٨ وعوبال وأبيمايل وشبا . ٢٩ وأوفير وحويلة ويوباب . جميع هؤلاء بنو يقطان. ٣٠ وكان
مسكنهم من ميشا حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق. ٣١ هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم
كألسنتهم بأراضيهم حسب أممهم.

هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم. ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان. "

يستهل الأصحاح العاشر، من سفر التكوين، بالصيغة الأدبية التي صادفناها مرارا من قبل : " وهذه مواليد بني نوح " .

ومن أصل وحيد، تمثل في نوح وعائلته في الفلك، كانت الأرض ستعمر ثانية بالسكان، ويقدم لنا الكتاب الآن سلسلة أنساب أخرى، وقائمة بالأمم. وكما عرفنا من (تك٥) بشأن التسلسل الزمني للأحداث – نمو العائلات الأولي بمرور الزمن – فإن (تك ١٠) يركز على الناحية الجغرافية : الانتشار الإقليمي للأمم عبر الأراضي.

وسلسلة الأنساب الواردة في(تك ١٠) ترد في كتابنا المقدس، كمقدمة للأصحاح الحادي عشر. وقد سبق أن رأينا هذا النموذج من قبل. ذلك أن (تك ٥) يبدأ بسلسلة أنساب ، تأتي كمقدمة لقصة الخلاص من الطوفان. وكما سبق لنا القول، فإن سلسلات الأنساب، تأتي كاستهلال لقصة الخلاص، في اثنين من الأناجيل في العهد الجديد. وهما، تذكراننا بأن قصة الله مع شعب معين، هي قصة وضعت في سياق أكبر من اهتمامات الله بالتاريخ وبالعالم.

وهذا ما ينطبق، بصفة خاصة، على الأصحاح الذي نحن بصدده. فالاهتمامات الفردية بقصة نوح وبنيه، وبعدها بقليل، بقصة إبراهيم وعائلته، وضعت في الإطار المسكوني لشعوب وجماعات وأمم كثيرة: " أثمروا واكثروا واملأوا الأرض " (تك ٩ : ١)، حيث كان هذا قول الله لنوح . أما الأصحاح العاشر، فيقول لنا إن نوح كانت له تجربة رائعة .

وثمة كلمة رئيسية، وهي (تفرقت): "من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم " (تك١٠ : ٥)، " وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني " (١٠ : ١٨)، " تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان " (١٠ ": ٣٢). وتوضح القصة، لنا، العائلات التي جاءت من أبناء نوح، الذين كونوا الأمم المعروفة لدى شعب

الرب(يهوه). أولا : يافث (١٠ : ٢- ٥)، ثم قسم أكبر بكثير يعرض لنسل حام (١٠ : ٦ - ٢٠) ، مع تعليق إضافي عن نمرود (١٠ : ٩)، والذي ربما يأتي، كنموذج أصيل يمثل الملكية لشعوب ما بين النهرين (كما يقول وينهام)؛ الأمر الذي يشير إلى افتخارهم بالإنجازات التي حققوها كمحاربين وصيادين، وأيضا كبنائين. ويلي ذلك، فقرة تتحدث عن الكنعانيين المهمين (١٠ : ١٥ ٢٠ ، انظر ٩: ٢٥). وأخيرا في (١٠: ٢١- ٣١) نجد إشارة إلى أبناء سام، متضمنة إشارة إلى أيام " فالج"، الذي في أيامه قسمت الأرض" (ولعلها إشارة تتطلع إلى ما جاء في ١١: ١- ٩).

وهنا، نجد صورة للنمو المسكوني، وتنوع الأقوام، ومع ذلك، فالكل قد جاء من رجل واحد يمكن أن يوصف بأنه آدم ثان، وهو نوح. وبركة الله التي أعطيت لنوح في العهد، قد تأكدت؛ لأن عناية الله تحتضن كل الشعوب. والواقع، أننا نجد هنا سبعين شعبا ، وهو رمز عددي للكمال والتمام، فبركة الله تغطي الأرض كلها .

وهذا هو المغزى اللاهوتي لقائمة الأمم هذه . وذلك، قبل أن تنتقل قصة التكوين إلى الاختيار المعين لرجل واحد، وهو إبراهيم، وقبل اختيار شعب واحد جاء من نسله، وهو إسرائيل، وقبل أن نقرأ عن الامتداد الشامل لمقاصد الله. فسلسلة الأنساب، من نوح إلى إبراهيم، تنتقل أولا، لتغطي كل العالم المعروف. وشجرة عائلة الأمم تبدأ بنوح، الرجل الذي أنقذته نعمة الله، من بشرية كان مصيرها الهلاك . وعائلته، هي التي تنتشر الآن، على مدى الزمان والمكان. وهكذا، فإن شجرة العائلة هذه تعرفنا أن بركة الله لنوح، تعني في الواقع، بركته لتاريخ البشر اللاحق كله (كما يقول ويسترمان Westermann)[1].

إن كافة الأجناس البشرية، مهما تباينت هويتها القومية والثقافية - الأمر الذي يتكلم عنه الأصحاح العاشر نفسه - هي أجناس من نفس الأصل، ولها نفس المكانة، وتنتمي إلى نفس العالم. وهذا ما يتنافى مع كل الانشقاقات القائمة، على أساس القومية أو الثقافة أو العنصر. ومهما كان نفع وثراء التنوع القومي والثقافي، فإن هذا لا يجب السماح له إطلاقا بأن يعتم على الحقيقة الجوهرية بأن البشر جميعا يتشاركون في نفس الطبيعة، ويتنسمون نفس الهواء، ويعيشون على نفس الأرض، ويدينون بحياتهم إلى نفس الإله . ويحسب قول غاندي : " كل الناس إخوة "، أو كما

---

(1) Westermann, *Genesis 1-11*, p.529.

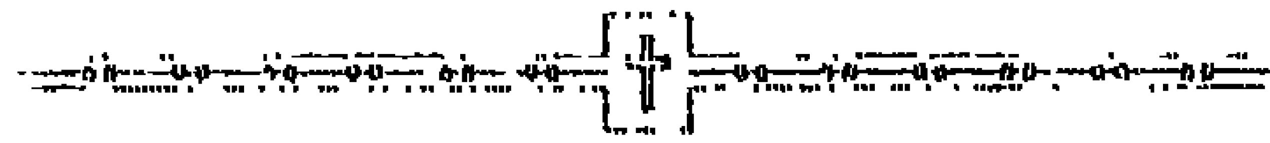
قال القديس بولس، وهو واقف في وسط أريوس باغوس في آثينا : " وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم " (أع ١٧ : ٢٦) .

ومن بين المضامين الأخرى، لما جاء في (تك ١٠)، أن شعب الله ينتمي إلى عالم كامل من الأمم، التي تشكل جزءا من مقاصد الله، وتعبر، على نفس المستوى، عن بركته لنوح. ويوفر هذا الأصحاح سياقا مهما للغاية، للكلمة التي قيلت لإبراهيم في (تك ١٢ : ٣) : "وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض " . والدعوة الخاصة لإبراهيم، هي أن يكون مصدر بركة للجميع، وعلى غرار ذلك، كانت الدعوة الخاصة لأجل نور الأمم (إش ٤٢ : ٦). واختيار الله، إنما هو دائما اختيار لخدمة معينة، وسبيل لتوصيل البركة الإلهية للآخرين.

ومع ذلك ، فإذا كان إنتشار الشعوب ، كما جاء في (أصحاح ١٠) - (والمذكور هنا، كمقدمة الأصحاح١١) يشير إلى بركات الله ، فإن تشتت الشعوب في الأصحاح الحادي عشر؛ إنما يشير إلى دينونة الله.

وهكذا، نواجه هنا، وللمرة الثانية، في تتابع هذه الأصحاحات، بتوتر الحياة وغموضها؛ الأمر الذي دأبت (الأصحاحات ١- ١١) من سفر التكوين على لفت أنظارنا إليه . فمن ناحية، تشكل الأمة جزءا من ترتيب العناية الإلهية للعالم، ومن ناحية أخرى، قد تكون أيضا تحت دينونته

وتركز تلك الدينونة، الآن، على جماعة واحدة بعينها، وهي التي هاجرت إلى الشرق، وجاءت إلى أرض شنعار (١١ : ١-٢) .



٢. التبديد

(١١:١-٩)

" ١ وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة . ٢ وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. ٣ وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا ونشويه شيا . فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين. ٤ وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. ٥ فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما . ٦ وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. ٧ هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. ٨ فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. ٩ لذلك دعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض.".

لقد استغرقتنا قصص الأصحاحات الأولى من سفر التكوين، ورأينا أنفسنا في "آدم"، وفي "قايين" ، وفي "نوح". أما الآن، فالموضوع لا يتعلق بمعاملات الله مع شخص واحد، ذلك لأن الأمر الآن يتعلق بموضوع المصير، في إطار يتجاوز النواحي الفردية. فنحن الآن مدعوون، لنرى ما يحدث للحياة الجماعية، حين تحيد مجتمعات بأسرها عن طرق الله.

وهذه القصة، التي تشكل آخر قصص التاريخ الأول - قبل إبراهيم، تبرز الآن على المسرح، وتبين مزيدا من انتشار الفوضى في العالم الذي خلقه الله. ويصور أسلوبها الأدبي الدقيق، في صعود وهبوط، بطريقة تماثل صعود مياه الطوفان وانحسارها. فنحن نبدأ بمجتمع ذي لسان واحد (١١: ١). ويقودنا هذا، إلى رحلة في أرض شنعار (أي بابل، ١١ : ٢)، والاستقرار فيها. وقد صنع الشعب لبنا وشرعوا يبنون برجا (١١: ٣- ٤). ثم وصلنا للنقطة المهمة في (العدد ٥)، حين "نزل الرب

لينظر" ، ويكون رأيا عما يجري (١١ : ٦-٧). وهنا، بدأ كل شيء يخسر ثانية، وانقلب الأمر، فقد توقف البناء، وتبدد الشعب(١١ : ٨). ولا ينتهي هذا الأمر بمجتمع مترابط معا، له لغة واحدة، بل ينتهي وقد تبلبلت ألسنتهم.

وقد صور "جوردن وينهام" Gordan Wenham ذلك، بشكل بياني يساعد على الوضوح[1]

- " كانت الأرض كلها لسانا واحدا (العدد ١)
- هناك (العدد ٢)
- بعضهم لبعض (العدد ٣)
- هلم نصنع لبنا (العدد ٣)
- هلم نبني لأنفسنا (العدد ٤)
- مدينة وبرجا
- المدينة والبرج
- فنزل الرب . . . (العدد ٥)
- اللذين كان بنو آدم يبنونهما
- هلم ننزل ونبلبل لسانهم (العدد ٧)
- من هناك (العدد ٨)
- لسان كل الأرض (العدد ٩)

وقد رويت القصة كلها من منظور واحد، بهدف أن تأتي بنا إلى (العدد ٩): " لذلك . . . ". فكان القصد هو إعطاء معنى كلمة "بابل"، وأهمية "بابل" أمام الله . وقد كانت بابل في ذلك الحين - وكما نعرف - مركز الحضارة في العالم القديم. ويشير كتاب (Enuma Elish) وهو كتاب بابلي عن قصة الخلق، إلى بناء بابل وبرج معبدها. ويقول في ذلك "فون راد" Von Rad: "لقد كانت (بابل) في الأزمنة القديمة - ولا سيما في الألف الثانية قبل الميلاد - قلب العالم القديم، ومركز القوة فيه. والأبراج القوية للزيجورات البابلية وهي هياكل بابلية هرمية الشكل من عدة طوابق، كانت معروفة على نطاق واسع. ومن وجهة نظر الإنجازات البشرية، كانت "بابل" هي القمة. وكلمة " بابل " عند البابليين، كانت تعني "بوابة الآلهة" [2].

---

[1] مرجع سابق: wenham, p.235

[2] مرجع سابق: مرجع سابق: Von Rud, p.146

وعلى هذا، كم حملت هذه القصة الواردة في (تك١١) من سخرية! لأن هناك كلمة عبرية تماثل في اللفظ كلمة "بابل"، وتعني "يبلبل"، أي (يخلط) أو (يقلب رأسا على عقب)، وهذا هو نفس المعنى، الذي يذكره سفر التكوين (تك ١١: ٩)، عند توضيحه معنى كلمة "بابل" وكأن أهمية بابل العظيمة، من وجهة النظر السماوية، تنحصر في: (البلبلة أو التشويش)!!

وثمة سخرية أكبر، في هذا الفصل أيضا. فالبرج ليس "بوابة الآلهة"، بل كان صغيرا جدا؛ حتى أن الله نزل ليراه (١١: ٥) ! أما بالنسبة لمواد البناء نفسها، فربما كان هناك استخفاف واحتقار لها في (العدد ٣). كما لو أن المراد قوله هو: بينما نستعمل نحن حجارة وملاطا، فإن هؤلاء البابليين لا يستخدمون سوى اللبن والقار. وهذه المواد، التي يستخدمونها، لا محالة من أنها ستتآكل (كما يقول وينهام، وكذلك فون راد) .

وهكذا، فإن ما جاء في (تك١١)، يدعونا إلى التأمل في معنى المجتمع البشري، والإنجاز البشري، وتكبر الإنسان، وذلك من المنظور الأفضل، منظور مقاصد الله لخير الإنسان، و أيضا إلى التأمل في دينونة الله ضد محاولة أخرى من محاولات الإنسان، لكي يعبر من "مكان الإنسان" إلى "مكان الله".

وقصة "برج بابل"، هي وصف محزن لتمزق المجتمع، وانهيار الشركة، والفشل في الاتصال، وزيادة العزلة والاضطراب. وقد جاء كل هذا، نتيجة فشل جماعي في العيش في الاتكال على الله، والإصرار على الكفاح للوصول إلى السماء، لأنهم بدلا من ذلك، تملكهم الزهو والكبرياء لإنجازاتهم وقوتهم البشرية، والإصرار على أن يعتمدوا على أنفسهم - مع كونهم بشرا محدودين في توفير الأمن لأنفسهم. فهل يحمل هذا تحذيرا اجتماعيا صحيحا، يجب على العالم أن يسمعه الآن، كما كان ينبغي عليه سماعه في ذلك الحين ؟!!

دعونا نلقي نظرة على القصة بشيء من التفصيل.

أ. كبرياء.. وصناعة (١١: ١-٤)

"هلم نصنع"

إن الصورة هنا، هي لمجموعة من البدو، جاءوا إلى الشرق، وتجمعوا معا. وهنا، واستمرارا لما جاء في (تك٤: ١٧)، نجد بدايات ما نسميه " حضارة ". وسمات الحضارة الأخرى متوافرة هناك

أيضاً ، وهي نشوء المهارات الفنية، والتي لعلها كانت تتضمن معرفة كافية بنواحي العمارة والرياضيات التي تمكّنهم من بناء برج ومدينة، بالاضافة إلى توافر الإرادة السياسية التي تتطلبها مثل هذه المحاولة الجماعية . وكما يقول "ويسترمان" Westermann: "في جوهر ما جاء في (تك ١١ : ٢- ٩)، نجد توقعاً لاحتمال تطور، لن يتحقق إلا في عصر التكنولوجيا، وبطريقة سيكون لها تأثيرها على المجتمع الإنساني كله"[١].

وهنا نلمس إشارات خفيفة إلى قوة سياسية وإنجازات تكنولوجية. وإلى جانب هاتين الناحيتين، ونتيجة إحساس مشترك بانعدام الأمان (" لئلا نتبدد")، نلمس سعياً وراء الشهرة (" هلم نبن لأنفسنا . . . ونصنع لأنفسنا اسماً " (١١: ٤).

فكان هذا البرج هو محور طموحهم : " هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء " (١١: ٤).

غير أنه - وكما سبق أن عرفنا من (تك١ - ١١)، فإن امتياز" صناعة اسم " أمر يتفرد به الله (انظر إش ٦٣) . وكما لاحظنا عدة مرات أن "السماء": هي مكان الله، وليست مكان الإنسان. وهنا، وللمرة الثانية، كما كان الحال في جنة عدن، وكما كان أيضاً بالنسبة لقايين ولامك، وزواج " أبناء الله" من بنات الناس، انتهكت الحدود التي وضعها الله، إذ يحاول الناس الحصول على ما لا يخصَّهم، ويؤكدون بأنهم ليسوا ملتزمين بالحدود التي وضعها الله. وهنا، نلمس رفضاً من قِبل الجماعة، لضرورة الفصل بين ما هو سماوي وما هو أرضي. **وخطيتنا - نحن البشر- هي أننا أخفقنا في إدراك أن الله هو الله، وإننا نحاول - سواء على المستوى الفردي أو الجماعي - أن نأخذ مكان الله.**

وما أيسر السقوط في تجربة محاولة الحصول على ما هو إلهي، فالتمرد هو أصل الخطية. كما أن التمرد على ربوبية الله، هو تشديد على استقلالية الإنسان - بمعزل عن الله، ورفض الحياة في ظل الاتكال على الخالق، الذي هو الرب إله العهد (يهوه).

وما كان هذا البرج سوى رمز معماري، يُراد به تأكيد عظمة الإنسان " رأسه في السماء " : وهذه عبارة ترمز إلى أمن حصين، ولكنها تمثل صورة أخرى لانتهاك الحدود التي عيَّنها الله لحياة الإنسان وسلوكه، ومن أجل مصلحته وخيره .

---

[١] مرجع سابق: Westermann, p.554.

لقد " شتت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل الأعزاء عن الكراسي " (لو١ : ٥١ - ٥٢). ولقد وضّح إشعياء نفس هذه النقطة، حين كتب ضد ملك بابل يقول : "وأنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات أرفع كرسيَّ فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال . أصعد فوق مرتفعات السحاب. أصير مثل العليّ. لكنك انحدرت إلى الهاوية إلى أسافل الجب. " (إش ١٤: ١٣ - ١٥) .

وكما يتضح لنا من بقية القصة، فإن طموح الناس في أرض شنعار وكبرياءهم، قد أُذلاّ أيضاً. غير أنه قبل أن نعود ثانية إلى سفر التكوين، دعونا نتريث قليلاً، لننظر إلى الخرق البالية التي وضعتها هذه الآثار الخاصة بإنجازات الإنسان التكنولوجية.

ب. غطرسة تكنولوجية

في كتابه : "مولود أم مخلوق"، والذي يتكلم عن الأخلاقيات الطبية الخاصة بالإخصاب عن طريق الأنابيب، يناقش "أوليفر أو دنوفان" Oliver O Donovan موضوعاً سبق أن تناوله كل من "جاك إيلول" Jaques Ellul، "وهانز يوناس" Hans Jonas ،وآخرون، وهو خاص بالكيفية التي تُعد بها ثقافتنا، وإلى حد بعيد، ثقافة " تكنولوجية "[1]. ولا يُقصد بذلك أننا طوَّرنا المهارات الفنية في كثير من مناحي الحياة فحسب، بل وأن الأسلوب الذي ننظر به إلى أنفسنا قد صار تكنولوجياً، هذه التكنولوجيا التي يجب أن تقتصر تماماً على الاستخدامات العملية والصناعية .

فنحن نميل إلى أن ننظر إلى أنفسنا كبنَّائين وصنَّاع ومبدعين، كما لو أن علاقتنا بالعالم هي في أساسها نوع من الاقتحام التكنولوجي : كأولئك الذين علاقتهم، بالنسبة لغيرهم، تُوصف بما أسماه الفيلسوف "مارتن بوبر" M. Buber (أنا - والشيء) (I - It) .

أما الآن، فمن الطبيعي أنه توجد اقتحامات تكنولوجية نشكر الله عليها. فلقد حدث تقدم عظيم في المهارات الطبية والزراعية التي تنقذ الحياة. وكثير من نواحي التقدم التكنولوجي الأخرى نافعة للحياة، فهذا أمر لا جدال فيه. أما الأمر الذي يدعو إلى الانزعاج، فهو "الغطرسة التكنولوجية". فإذا نظرنا إلى أنفسنا، على أننا، في المقام الأول، خلاّقون مجدَّدون تكنولوجيون، فقد يحملنا هذا على الاعتقاد بأن ما يمكننا أن نعمله بالفعل (وليس ما قد نستطيعه أولاً) هو المحك لما سوف نعمله.

---

(1) O.O Donovan *Begotten or Made?* (OUP, 1985).

وإذا ما نظرنا إلى العالم، خارج أنفسنا، على أنه ببساطة شيء نعمله، فإنه في هذه الحالة؛ يصبح موضوعاً خاضعاً لمشيئتنا، وتحت تصرفنا، وهذا ما يحدث أحياناً بالعمل في تقنيات الأجنة البشرية والإخصاب، وهو الأمر الذي حمل "أوليفر أودونوفان" على أن يحثنا على أن نعيد التفكير في أهمية رؤية الأطفال - اعتبارهم دليلاً على قدرة الله والاتكال عليه، باعتباره معطي الحياة التي لا يمكن التنبؤ بها - وليس باعتبارهم مولودين بإرادتنا البشرية، فيكونون تحت تصرفنا.

والحياة في إطار طريقة التفكير (أنا -- والشيء)، تؤكد استقلاليتنا وقوتنا، وتجعلنا مركزين على ذواتنا، دون أن نحشد طرقاً أخرى للحياة، تتسم بمزيد من العلاقات الشخصية الإنسانية الحقة - وهو ما يسميه مارتن بوبر" أنا - أنت " (I - Thou). ولكن، إن سيطرت العنجهية التكنولوجية؛ طُرحت كافة القيم الشخصية والاجتماعية في طي النسيان.

ولقد لاحظنا مرات عديدة في سفر التكوين، أن جزءاً من معنى صورة الله هو حالتنا (كأشخاص في علاقة). فقد قُصد بالمجتمع الإنساني، تحت عناية الله، أن يستغل بقية الخليقة، بطريقة تدعِّم الشركة الشخصية والانسجام في إطار الخليقة، ليسهل ازدهارها. وفي ذلك الإطار، يمكن للتكنولوجيا أن تكون خادماً مهماً بالنسبة لنا، كجزء من خدمتنا نحن لله.

ولكن لنلاحظ الفرق بين التواضع في (تك١)، وقصة الغطرسة في (تك١١). فهناك في (تك١) قُدِّمت لنا صورة عالم منظّم، في اتّكال على الله . وهذه هي نوعية العالم الذي يجب أن يفترض العلم - إن كان له أن يكون علماً على الإطلاق. وقد رأينا صورة رجال ونساء، وقد أسند الله إليهم - كوكلاء - إدارة أملاكه في هذا العالم. وعلى ضوء هذا، فالعالِم بمقدوره أن ينظر إلى دوره كأنه كاهن للطبيعة : يقف أمام العالم الصامت لخليقة الله، ويحول صمتها إلى كلام (كما يقول تورنس Torance)؛ حتى يمكن لهؤلاء العلماء أن يرنموا معنا سبحاً للخالق. وعلى ضوء هذا، فالعالِم التكنولوجي ما هو إلا خادم لله، يستغل ثروات العالم لخير البشرية ومجد الله.

ومع ذلك، نجد في (تك١١) أن البرج الذي في أرض شنعار، يُعد إشارة إلى الطموح التكنولوجي للإنسان الذي ابتعد عن طرق الله. فاللِبن والقار موجودان هناك، لكي نبني هياكل قوية لأنفسنا. وهذا يذكّرنا، بأنه حينما لا تصبح التكنولوجيا خادمة لنا، فإنها سرعان ما تصبح سيداً لنا، وغالباً ما تكون مجتمعات الإنسان وقيَمُه هي الضحايا التي تنجم عن ذلك.

والعلم، كسعي وراء الحقيقة، كثيراً ما يُبتلع الآن بواسطة التكنولوجيا. وتحول السؤال: "ما هي الحقيقة؟!" إلى السؤال: "ما هو الشيء النافع العملي؟!" وأموال الأبحاث قُدِّمت لمشروعات

معينة، تتناغم مع أيدلوجيات سياسة معينة، وأصبح التكنيك والمهارة أكثر أهمية من الفهم أو الحكمة!!

عندئذ ، يجب علينا أن ، نسأل أنفسنا : ما الذي أصبح عليه العلم الآن؟!!

لذلك، كتب الباحث الكيمائي "ولتر تورسون" W. Thorson منذ بضع سنوات مضت يقول :

"بعد أن أدرك الإنسان، أخيراً، أن الحقيقة العلمية هي مصدر للقوة، اتخذ القرار الحاسم أنه، منذ الآن فصاعداً، يجب أن تشكل رغبتنا في القوة واستعمالنا لها ،العلاقة بهذه الحقيقة العلمية وبقيمتها. ونتيجة ذلك القرار، فإن العلم البحت الأصيل، الذي كان على مدى الأربعمائة سنة الماضية، سوف يبدأ في التدهور بطرق غامضة وخفية ، إلى أن يختفي تماماً في النهاية."(١).

وإذا كان "تورسون" محقاً في قوله، فهذا معناه أن ما نراه كثيراً في برامج أبحاثنا العلمية، هو استغلال فعَّال للحق، من خلال مبدأ: "تحقيق أكبر فائدة بأقل تكلفة"، وذلك من أجل فائدة عملية أو سياسية! فاندماج العلم والتكنولوجيا معناه أن القرار الأخلاقي الذي يتعلق باستخدامات الحق، سيُعطى له، بصفة متزايدة، حق الأولوية؛ حتى قبل أن يتم السعي وراء معرفة الحق نفسه، فلن نسعى إلا وراء الحقيقة التي تتفق مع مقاصدنا (٢).

والكبرياء التكنولوجية، إذا ما أضيفت إليها الإرادة السياسية، وترك طرق الله، تصبح ليست مجرد قصة ذُكرت في (تك ١١) وحسب، بل هي جزء من عالمنا أيضاً، ونحن أيضاً جزء من القصة.

" هلمّ نبن لأنفسنا مدينة ".. " هلمّ نبن لأنفسنا .... برجاً رأسه في السماء ".. هنا " نصنع لأنفسنا اسماً".

أما بالنسبة لنا نحن أيضاً، فهناك خطر واحد مماثل ألا وهو : فقدان المجتمع!!

---

(١) W. Thorson, *The Spiritual Dimensions of Science*, inc. f. Henry (ed.), *Horizons of Science* (Harper and Row, 1978), pp. 217f.

(٢) المصدر السابق .

ج. إنهيار المجتمع (١١: ٥- ٩)

هناك خطر بالغ للغاية، يكمن في "التفكير التكنولوجي". الذي لم يعد الله هو مركزه، حيث يحاول رجل العلم أن يجعل استقلاليته في المركز - بدلاً من الله. والخطر، كما يصوره "ثيليك" بقوة في كتابه "كيف بدأ العالم"، يتمثل في فقدان المركز فقداناً تاماً. ذلك أنه في هذا المجتمع الذي كان في أرض شنعار، شأنه في ذلك شأن أي مجتمع يُبعد فيه الله عن المركز، سرعان ما يكتشف الناس أنه لم يتبق شيء يربطهم بعضهم البعض، ذلك لأن (أنا الشيء) (أي التكنولوجيا)، تطغي في النهاية على (أنا أنت).

ويبدو أن الناس أنفسهم، شعروا بالحضور الخفي لما أشار إليه "ثيليك"، هنا، ودعاه "القوة الطاردة ". فبناؤهم المسعور، الذي كان الطموح حافزاً له، كان أيضاً وليد القلق، ذلك أنهم قالوا بخوف : "... لئلا نتبدد " (تك ١١: ٤).

وتعليق "ثيليك" هو تعليق جديد جدير بأن نقتبسه كاملاً :

" قبل أن تقع عليهم دينونة التشتيت بزمن طويل، كان لدى الناس بالفعل هاجس، ألا وهو الخوف الخفي الكامن من أن يتبددوا وأن تتبلبل ألسنتهم. وقد استشعروا الوجود الخفي لقوات طاردة مشتِّتة من حولهم..

وقد نجم هذا، من حقيقة أنهم كانوا يعانون من شيء، يمكن أن يُطلق عليه "فقدان المركز". وما داموا قد أبعدوا الله الآن من وسطهم، فلم يعد لديهم أي شيء يربطهم "بعضهم البعض ". ودائماً ما يكون الاتجاه هو نفس هذا الاتجاه : فحين يُبعد الله؛ فإنه لابد من خلق شيء بديل ليربط الناس معاً بطريقة أو بأخرى. فربما تُشن حرب، لا لشيء سوى أن تبعد الانتباه عن انشقاقات سياسية داخلية؛ وبهذا نخلق تضامناً جديداً بين الناس، بأن نشعرهم بأنهم يواجهون عدواً مشتركاً، أو تُبني برج بابل؛ لكي تركز انتباه الناس على مركز جديد، يجمعهم حول مجهود مشترك حماسي. وبهذه الطريقة، تُجمع شتات العناصر المتفرقة، أو تجمع بالتهديد والإرهاب أولئك الذين لن يجتمعوا معاً باختيارهم، أو تُستغل قوى الاقتراحات والدعاية والأيدولوجية؛ كي نولّد الإحساس بروح الجماعة بواسطة حيل سيكولوجية، وبهذا يُدفع الناس على أن يطلبوا نفس ما نريد منهم أن يطلبوه. وكل هذه روابط بديلة، ومحاولات أخيرة لتعويض المركز المفقود بمركز مُصطَنع. غير أن هذه

المحاولة مآلها الفشل، فالقوة الطاردة تواصل الجذب والتمزيق، وهناك فتيل زمني خفي في دعامات كل الجسور، يوشك أن يفجرها."[١].

وعندما يختفي الرب الإله من مركز حياة الجماعة؛ هنا تُزرع بذور التشتت والانقسام وفقدان الاتصال. ولن تُوجد وحدة الشركة، في محاولات أي مجتمع إنساني، ما لم يلتفوا معاً حول "مركز" خارج عن أنفسهم. والمجتمعات الإنسانية التي تنظم نفسها بمعزل عن الله، وتبني هياكل قوى من ذاتها، مكان الله؛ تكون دائماً فريسة للشيطان، ونهاية ذلك الطريق هو الوحش المستبد المشار إليه في (رؤ١٣). وهذا الوحش الطالع من البحر (رؤ١٣: ١)، إذ أخذ لنفسه ما لا ينتمي في الواقع إلاّ إلى الله، أصبح هو القوة الوحشية الرهيبة للنزعة الشخصية لدى المخلوق أن يصير إلهاً مطلقاً. وأن الفوضى، والتمرد ضد النظام الطبيعي، والطغيان الإيدولوجي هي التي تشن حرباً ضد طرق الله.

وانهيار المجتمع بالنسبة لسفر التكوين، ليس فقط هو النتيجة الحتمية لغطرسة الإنسان، بل هناك أيضاً في هذا التفسخ في المجتمع البشرى قدراً من دينونة الله.

ويعتبر (العدد ٥) هو النقطة الوسطى في القصة: فلقد تدخل الله الآن ليحبط الطموح البشري. فمن وجهة نظر الله في السموات، تكون الأشياء على نحو مختلف. فالناس يبنون برجاً، ويريدون أن يكون رأسه في السماء، ويجاهدون للوصول إلى العلاء. وهنا، نقرأ السخرية الواردة في (١١: ٥) : " فنزل الرب لينظر " ! وهذا ما يماثل قول المرنم في (مز٢) : " لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب في الباطل .... الساكن في السموات يضحك " (مز٢: ١و ٤)!! بل كانت هذه الصورة موضع مسرة بين الله وحاشيته السماوية : " هلُمّ ننزل " (تك ١١: ٧)!!

إن الله، في دينونته، يقرر أن يُطلق عنان القوى الطاردة، فإذا كنت ستعيش دون أن يكون الله هو مركز حياتك؛ فلن يكون لك أي مركز على الإطلاق. وقد عُبِّرَ عن الدينونة في (العدد ٧): "هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض " ، وقد نُفذ ذلك في (العدد ٨)، حيث بدد الله الشعب على وجه كل الأرض، وظلت المدينة دون أن يُستكمل بناؤها .

وبالنسبة لأي مجتمع ينتهك حدود النظام الذي وضعه الله، ويحاول أن يصل إلى السماء بجهوده، فلن تكون نتيجة ذلك سوى التفسخ والإحباط .

---

[١] مرجع سابق: Thielicke, p.281.

ويبدو أن (العدد ٦) يشير إلى شيء أكثر من هذا. فلم يتضمن هذا العمل الإلهي دينونة فقط، بل كان فيه (حفظ) أيضاً. فسبق أن رأينا في سفر التكوين، وفي قصة آدم، أن الطرد من الجنة كان دينونة كما كان حفظاً. والعلامة التي جعلها الرب لقايين توضّح الشيء نفسه، فقد كانت هناك دينونة، غير أنه كان هناك (حفظ) أيضاً، وهكذا أيضاً تتحدث قصة الطوفان عن دينونة، كما تتحدث عن (حفظ) أيضاً. ونفس الشيء نراه هنا، لأن الرب رأى أن محاولة بناء برج ما هي إلا ابتداؤهم بالعمل (تك١١: ٦)، وهكذا، فإن الأفكار الشيطانية لحكم الرعاع، حيث توحّد الجماهير طاقاتها، وتقاتل في سبيل الحصول على السلطة، ولكنها تُوجه نحو أهداف لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى الهلاك. وهو أمر ليس بعيد عن مغزى هذه الأقوال، حيث إصرار البشرية على أن تكون (هي نفسها) وسيلة خلاصها!

وفي القصة الخيالية الرائعة، التي كتبها "سي. إس. لويس" C. S.Lewis بعنوان "الانفصال العظيم"، يصوّر لنا "جهنم" كمدينة تنمو بصفة مستمرة في الحجم، ولكنها تزداد خواء أيضاً؛ لأن الجميع كانوا دائماً يهجرونها .

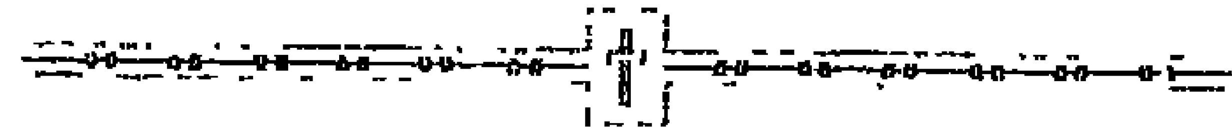
ولذلك، فإن الله، كي يحول دون تطور الأمور إلى الأسوأ في شنعار ،كانت دينونته بالنسبة لتقسيم المجتمع تُعد أيضاً نوعاً من الكبح. **ذلك أن مقاصده من ناحية التعاون بين البشر والشركة والمودة بينهم، لا يمكن أن تتحقق بالسماح ببناء المدينة في شنعار، فالسماء لا يمكن الوصول إليها عن طريق طموح الإنسان الجامح.** وكما سبق أن عرفنا من قبل، لا تُوجد السماء إلا كعطية النعمة، ونحتاج للانتظار حتى (الأصحاح ١٢)، حتى نصل إلى قصة معاملات الله الكريمة مع شعبه في التاريخ، تلك المعاملات التي كانت قائمة على العهد، قبل أن يصبح في الإمكان بناء مجتمع يكون الله مركزاً له .

إن كثير من ثقافتنا المعاصرة، تعمل فيها قوى طاردة، فالميراث التنويري (نسبة إلى حركة التنوير)، القائم على الصورة التي رسمها "نيوتن" لعالمٍ كالآلة، حيث يعمل فيه كل شيء بسبب طبيعي ونتيجةٍ طبيعية، لا يزال ماثلاً بقوة في أذهاننا. وإضفاء الآلية على ثقافتنا، قد نزع السمة الشخصية عن العلاج، حيث الاستغلال بغير مبالاة للبيئة لتحقيق مكاسب اقتصادية، وفقدان قيمة "الشخص" في كثير من العلوم السيكولوجية والاجتماعية المعاصرة - كل هذه أعراض لفقداننا للمركز. وكلما زاد الانغماس في هذه الأمور في حياتنا؛ زادت عملية الإطاحة بنا بعيداً عن بعضنا البعض.

فالقيم الشخصية، والشركة المتبادلة بيننا، كأشخاص، والتي تسهلها اللغة وترمز إليها، من السهل الإطاحة بها بعيداً. حيث نجد أنه من الصعب أن نتحدث معاً عن الأمور التي تهمنا حقاً. ولقد كتب ثيليك يقول:

"أثناء رحلتي إلى آسيا، كانت كلمة " كوكاكولا " هي الكلمة الوحيدة التي فهمتها في كل لغة سمعتها، فكانت تطل عليّ بشكل مألوف من إعلانات كُتبت بحروف غريبة للغاية. فتساءلت: ما هو الخطأ في هذا العالم، الذي فيه صارت هذه الكلمة، هي الكلمة الوحيدة الباقية والناجية من تبلبل الألسنة في بابل؟! فلازلنا نستطيع أن نكلّم بعضنا البعض عن الكوكاكولا، ولكن ليس عن الحرية، أو عن الله، أو عن ما هو القريب!"(١).

ويا له من تحذير واقعي، تقدمه هذه الآيات لشعب الله، بأنه عليهم في الأوقات الطيبة التي يشهدونها، ألا يغضوا الطرف عن إلههم! ويا له من تحذير، بأنه عليهم أن ينبذوا كل تجربة - أياً كان مصدرها - سواء كان سياسياً أم اقتصادياً، أم فكرياً أم تكنولوجياً - تغريهم ببناء هياكل قوة من أنفسهم، أو أبراج رأسها بالسماء، محاولين أن يأخذوا لأنفسهم ما يخص الله وحده! أما تجزئة المجتمع، التي كانت لابد أن تحدث، فكانت تشكّل علامة على دينونة الله.



(١) مرجع سابق: Thielicke, p.285

٣. الرجاء في مجتمع جديد

لقد أصبحنا على ألفة بموضوعات مختلفة في هذه الأصحاحات الأحد عشر. فبعد قصيدة الخلق الاستهلالية في الأصحاح الأول، والقصة التي انبثقت عن ذلك في الأصحاح الثاني، والتي نقرأ فيها عن عظمة الخالق وسره، ومجد الإنسان الذي خُلق على صورة الله ووُضع في جنة عدن، وأعطيت له الوكالة ومواهب الشركة؛ قرأنا قصة تلو الأخرى عن الفوضى والخراب والموت. وفي كثير من المرات، عُزّيت الفوضى إلى الإنسان الذي يحاول أن يصبح إلهاً، ويريد الحصول على الألوهية التي لا تخصه، والكبرياء في محاولة استقلاله بذاته عن الله، الأمر الذي لم يكن سوى وهم كبير. فآدم، وقايين، ولامك، وأبناء الله، والبدو الذين استقروا في أرض شنعار، كلٌ بأسلوبه الخاص، حاول أن يرتفع بالأرض إلى السماء، وأن يتعدّى حدود الله التي وُضعت لمصلحة الإنسان.

وفي كل هذه القصص، هناك نمط واضح: الخطية تؤدي إلى العقاب، وعواقب الخطية تصبح واضحة، ولكن هناك أيضاً كلمة نعمة إلهية، حتى أن العقوبة تتضمن أيضاً كبحاً وحفظاً. وأخيراً، هناك وعد بالرجاء في المستقبل.

لقد سقط آدم وحواء في الخطية، وهما في جنة عدن، وقد صدر حكم دينونة الله ضد الحية، وضد الأرض، وضدهما، ثم صنع الله لهما أقمصة من جلد، وسمح باستمرار حياتهما - ولكن خارج الجنة. فكانت هناك نعمة، وكان هناك رجاء.

وفي قصة قايين، نقرأ عن جريمة القتل التي ارتكبها، وحكم الله بإدانته. لقد طُرد قايين هارباً، غير أنه بالنعمة، وضع الله له علامة لحمايته. وبدأت الحضارة، **وهنا أيضاً نجد لمحة من الرجاء.**

وفي قصة الطوفان، وبعد أن رأى الله شر الإنسان في الأرض، أنزل الله الطوفان عقوبة للشر، غير أنه في نعمته أغلق على نوح في الفلك من أجل سلامته. ولقد أمسك بزمام العاصفة، وأعطى وعداً بخليقة جديدة وبداية جديدة. **ولقد خُتم عهد النعمة بقوس الرجاء.**

وفي كل مرة، تتركنا القصة، ولنا رجاء في الله، مع احتمالية أن ينمو الإيمان والرجاء والمحبة.

غير أنه في قصة برج بابل، يبدو أننا تُركنا في: تفسخ، وتشتت، وانفصال، وفوضى، وتشوش. وللمرة الثانية، كانت هناك خطية وكانت ثمة دينونة. بل كان هناك قدر من الكبح والحماية. **ولكن، أين الرجاء في المستقبل؟! وكيف للحياة أن تستمر الآن؟**

لقد سبق أن لاحظنا أن سلسلات الأنساب كثيراً ما تأتي كمقدمةٍ لقصة خلاص، وكان لنا أن نتوقع نفس الشيء بالنسبة لسلسلة الأنساب الواردة في الأصحاح العاشر، أي أن تقودنا إلى عمل خلاصي من قِبل الله في أرض شنعار. ولكن أين الخلاص هنا؟

يُلاحظ أنه بعد أن استوعبنا هذا النمط الخاص بالخطية والدينونة، ثم بعد ذلك النعمة والرجاء، أصبحنا ندرك بأكثر قوة أن هذه القصة الواردة في (الأصحاح ١١) تتركنا مع الخطية والدينونة فحسب! وهنا، نجد أنفسنا مدفوعين بقوة إلى التساؤل: ماذا بعد الآن يا رب؟! هل ستترك - أيها الرب - الشعب الذي نعتقد أنه ثمرة بركتك الكريمة لنوح؟! هل ستتركهم مشتتين، مضطربين، ومنفصلين عنك وعن بعضهم البعض؟ ماذا بعد الآن يا رب؟!

وعندما نسأل هذا السؤال، نكون مستعدين لما سيأتي بعد في (الأصحاح ١٢)، وقد انتهت الآن القصة الأولية. وهنا يمكن أن تبدأ قصة شعب الله في التاريخ تاريخ خلاص، يتركز بصفة أساسية في المسيح. ذلك أن الله بدأ، الآن، يعكس دينونة بابل. وقد شُرع في بناء مجتمع جديد، من خلال أسرة إبراهيم. فقد قيل لنا إنه في إبراهيم "تتبارك " جميع قبائل الأرض " (تك١٢: ٣). وبإبراهيم، تبدأ قصة العهد المتألق بتاريخ مقدس.

أ. مواليد سام (١١: ١٠- ١٢ : ٣)

> " ١٠ هذه مواليد سام. لما كان سام ابن مئة سنة ولد أرفكشاد بعد الطوفان بسنتين. ١١ وعاش سام بعدما ولد أرفكشاد خمس مئة سنة وولد بنين وبنات. ١٢ وعاش أرفكشاد خمساً وثلثين سنة وولد شالح. ١٣ وعاش أرفكشاد بعدما ولد شالح أربع مئة وثلث سنين وولد بنين وبنات. ١٤وعاش شالح ثلثين سنة وولد عابر. ١٥وعاش شالح بعدما ولد عابر أربع مئة وثلث سنين وولد بنين وبنات. ١٦ وعاش عابر أربعاً وثلثين سنة وولد فالج. ١٧ وعاش عابر بعدما ولد فالج أربع مئة وثلثين سنة وولد بنين وبنات. ١٨ وعاش فالج ثلثين سنة وولد رعو. ١٩

وعاش فالج بعدما ولد رعو مئتين وتسع سنين وولد بنين وبنات. ٢٠ وعاش رعو اثنتين وثلثين
سنة وولد سروج. ٢١ وعاش رعو بعدما ولد سروج مئتين وسبع سنين وولد بنين وبنات. ٢٢
وعاش سروج ثلثين سنة وولد ناحور. ٢٣ وعاش سروج بعدما ولد ناحور مئتي سنة وولد بنين
وبنات. ٢٤ وعاش ناحور تسعاً وعشرين سنة وولد تارح. ٢٥ وعاش ناحور بعدما ولد تارح
مئة وتسع عشرة سنة وولد بنين وبنات. ٢٦ وعاش تارح سبعين سنة وولد أبرام وناحور
وهاران.
٢٧ وهذه مواليد تارح. ولد تارح أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ٢٨ ومات
هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين. ٢٩ واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما
امرأتين. اسم امرأة أبرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة. ٣٠
وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد. ٣١ وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي
كنته امرأة أبرام ابنه. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران
وأقاموا هناك. ٣٢ وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين. ومات تارح في حاران.".
" ١ وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي
أريك. ٢ فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة. ٣ وأبارك مباركيك
ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض."

إن "شجرة عائلة سام" هي الجسر الذي يربط قصة بابل بتاريخ إبراهيم. فبعد الصيغة الاستهلالية: "هذه مواليد سام " (١١ : ١٠)، تؤخذ عبر الأجيال إلى "تارح"، أبي إبراهيم (١١: ٢٦). ولقد كانت فترات العمر تأخذ في النقصان بشكل تدريجي، وكان الأبناء يُولدون حين يكون الأب في ريعان شبابه. ولنا أن نعي هذا، حين نأتي بعد ذلك إلى قراءة وعد الله لإبراهيم، بأنه سيُرزق ابناً، إذ كان ذلك حين تقدم إبراهيم في العمر وأصبح " ابن مئة سنة"، حيث سن الشيخوخة الذي يضيع معه كل رجاء في أن يُرزق الإنسان بنسل (انظر تك ١٧: ١٧).

وفي سلسلة الأنساب هذه، نجد أن انتشار الأمم في جميع أنحاء العالم، الذي قرأنا عنه في الأصحاح العاشر، قد ضاق الآن واقتصر على مواليد "سام" وحده، وهو الابن الذي باركه نوح. وطوال هذه الفترة، التي كان العالم يمر خلالها بالفوضى المشار إليها في (١١: ٩)، كان الله، بكل هدوء وسرية ودون إثارة، يعمل على تحقيق قصده. والله الذي يهتم بكل الأمم (تك ١٠)، هو الله الذي يجب أن تتم مقاصده بالنسبة للأمم قاطبة، من خلال عهده مع شخص معين وذريته (تك١٢). وهذا هو لغز الاختيار الإلهي، وهذه هي الخاصية السرية التي تشكل جزءاً من قصة نعمة الله. فخطة الله بالنسبة إلى " جميع قبائل الأرض " (تك١٢: ٣) مرتبطة بمباركته لرجل واحد، هو "إبراهيم"، الذي جاء من نسل سام، وأرفكشاد، وشالح، وعابر، وفالج، ورعو، وسروج، وناحور، وتارح. ولا ترجع أهميتهم إلى أن سلسلة نسبهم تعود إلى الوراء إلى نوح وشيث ثم إلى آدم وحسب، بل لأنها تمتد إلى الأمام إلى اسحق ويعقوب، ثم تنزل عبر الأجيال حتى داود، وتمتد للأمام من شجرة عائلة داود إلى شخص اسمه "يوسف" الذي كان خطيباً لمريم العذراء - التي ولدت ابنها البكر في بيت لحم، في أيام أغسطس قيصر (انظر لو٣: ٢٣ - ٣٨).

وسلسلة الأنساب هذه، تقدم لنا حلقة الاتصال بين التاريخ البدائي في (تك١: ١ - ١١: ٩) والتاريخ المقدس الفعلي للآباء وعائلاتهم، الأمر الذي هو موضوع اهتمام بقية سفر التكوين.

وتاريخ عائلة تارح، أبي إبراهيم، ورد في (تك ١١: ٢٧- ٣٢). ويذكر ؟ أخوة إبراهيم وأبناء أخيه، وبعضاً من نساء العائلة. والوحيدة التي نرى لها جانباً هاماً في هذا التاريخ هي " ساراي " زوجة إبراهيم. " وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد " (تك ١١: ٣٠). لم يكن الكتاب يذكر بشكل عابر، ولكن فيه كل الكفاية هذه القصة، ليُعدّنا لمفاجأة الوعد لإبراهيم بأنه سيُبارك ويكون أباً لأمةٍ عظيمةٍ وحسب (تك ١٢: ٢)، بل كان يُعدّنا أيضاً لقصة المعجزة اللاحقة الخاصة بميلاد اسحق (تك ١٧: ١٧- ٢٢، ١٨: ١٠- ١٤، ٢١: ١-٢)، والذي من خلاله ستأتي هذه البركة.

ب. إبراهيم

لقد تُركنا في نهاية "برج بابل"، بلا رجاء. بل إن الأصحاحات الأحد عشر الأولى من سفر التكوين، قد شددت مراراً وتكراراً على أنه ليس ثمة رجاء بالنسبة للبشرية الخاطئة خارج نطاق نعمة الله الرحيمة. أما الآن، فتبدأ قصة إبراهيم، وهي تبدأ ببركة الله. ولقد تكرَّر كلام الله عن البركة خمس مرات في (تك ١٢: ٢- ٣). وهناك أصداء لا يمكن أن نغفل عنها للبركة الأولى التي

بارك بها الله الخليقة (تك١: ٢٨)، وبركة نوح وبنيه، حين بدأت الخليقة ثانية بعد الطوفان (تك٩: ١). وهنا، بداية جديدة أخرى.

وفضلاً عن ذلك، يبدو أن بركة "إبراهيم"، جاءت لتوازن بعضاً من الدينونات واللعنات التي قرأنا عنها في (الأصحاحات١- ١١):

- فقد لُعنت الأرض في (تك٣: ١٧) ..وأما إبراهيم فقد وُعد بامتلاك الأرض (تك ١٥: ٧).

- كما لُعن قايين وأصبح تائهاً وهارياً (تك٤: ١١و ١٤).. وأما إبراهيم المتجول، فقد أُعطي وطناً.

- وقد سعى قايين والجبابرة والبناؤون الذين كانوا يبنون بابل جميعهم، كانوا يريدون أن يصنعوا لأنفسهم اسماً.. وفي المقابل قال الله لإبراهيم : " . . . وأعظم اسمك " (تك١٢: ٢).

- وقايين الذي بنى مدينة في أرض الاضطراب، والمهاجرون إلى الشرق الذين حاولوا بناء مدينة في شنعار، الجميع اكتشفوا أنه " ليس لنا هنا مدينة باقية"[1].. وقد ذُكر لنا أن إبراهيم " كان ينتظر المدينة التي لها الأساسات التي صانعها وبارئها الله " (عب١١: ١٠).

- لقد تشتتت قبائل الأمم التي كانت في بابل.. أما في إبراهيم، فستتبارك " جميع قبائل الأرض " (تك١٢: ٣).

وهكذا، فإن الآيات في (تك ١٢: ١- ٣) تتحدث عن "البركة"، والبركة - كما عرفنا من العهد القديم تعني الإبداع والإكثار والحيوية. إن رب الحياة يعمل في إبراهيم، فمن خلاله، تستطيع كل قبائل الأرض أن تنال حياة. **وهكذا، فإن هذه الآيات تعزف الألحان الافتتاحية لأنشودة تاريخ السلام العظيمة. كما إنها تشكّل المقطع الإضافي، والإعادة في ختام الافتتاحية، التي سمعناها تُعزف خلال (الأصحاحات١-١١).** ذلك أن كثيراً من الموضوعات التي تضمنتها الأصحاحات الأحد عشر، أُخذت وتم طرقها ثانية في القصة التي تبدأ بإبراهيم، ولو أنها تأتي الآن بنغمة جديدة.

ومن منظور (الأصحاح ١٢)، والقصص اللاحقة لتاريخ عهد الله مع شعبه، نستطيع الآن أن نرى (لتغيير الاستعارة الموسيقية باستعارة أدبية) أن (الأصحاحات ١-١١) تُعد مقدمة وشرحاً، وأن قصة تاريخ الخلاص هي الإجابة على سؤال جاء في المقدمة وهو :

أي رجاء يمكن أن يكون لعالم جميل، ومع ذلك قبيح، مرتب ومع ذلك مشوش، عامر بإمكانات المحبة الأخوية، ومع ذلك يسممه الحسد والكراهية ؟!

---

(1) cf. M. W.Pool and G. J. Wenham, *Creation or Evolution: A false antithesis*? (Latimer House, 1987).

وأي رجاء يمكن أن يكون لشعب ابتعد عن الله، وبذلك هجر بعضه بعضاً؟!
هل يمكن استعادة مجتمع الخليقة مرة أخرى؟

ج. يسوع المسيح

إن الأصحاحات المتبقية من سفر التكوين وما بعدها، تعرَّفنا بأنه يوجد بالفعل رجاء للعالم : ولسوف يصبح العالم جديداً، من خلال إبراهيم ومن هم على شاكلته - ممن وثقوا في وعود الله التي قطعها بناء على العهد. وقصة إبراهيم هي قصة أمانة الله واستعادة الإيمان، على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي. وهي قصة تستغرق القرون، فهي تأخذنا إلى مصر والخروج، عبر أزمنة القضاة والملوك، إلى السبي والعودة ثانية إلى أرض الميعاد. وتصل إلى نقاط عالية في روحانياتها (المزامير)، وحكمتها (سفر الأمثال)، ونبواتها (الأنبياء العظام مثل إشعياء وميخا). وهي تخترق الأزمنة الكئيبة التي تميزت بالتمرد والدينونة والآلام والخسارة.

هذه قصة، تصل إلى ذروتها، حين يتبرهن يسوع المسيح سيداً ورباً. فهو آدم الأخير، ذاك الذي قال عنه "لوثر" : " الإنسان الصحيح " (the proper Man). و(فيه) تحقق الوعد الذي قُطع للمرأة بأن رأس الحية سوف يُسحق (انظر كو٣: ١٥). و(فيه) تجسدت المحبة، حيث أخلى الله نفسه وصار في صورة عبد (في ٢: ٧)، و(هو) الذي قدَّم نفسه ذبيحة على اعتبار أنه حمل الله (يو١: ٢٩). و(دمه) المسفوك " يتكلم أفضل من دم هابيل " (عب١٢: ٢٤). و(في) المسيح، أبطل قانون الثأر الذي رأيناه في قايين ولامك. ولقد تحمل هول دينونة الله، وحمل لعنته (غل٣: ١٣-١٤)، كما اختبر أسى احتجاب وجه الآب (مر١٥: ٣٤).

ومع ذلك، يخبرنا العهد الجديد، أنه (في) المسيح قُدَّم لنا أمان الخلاص "في فُلك الله". و(فيه) خُتم عهد نعمة الله (مت٢٦: ٢٨)، وتقدم عطية شركة الله مجاناً (رو٨: ١٤ - ١٦). والواقع أن (فيه) تصل كل الخليقة إلى كمالها (أف١: ٩- ١٠)، وسوف تفرح بحرية مجد أولاد الله (رو٨: ١٩ - ٢١). (فيه) حيث تجتمع الأمور الخاصة بالأرض، وتلك الخاصة بالسماء (١تي٢: ٥)، ولا يتأتّى ذلك بأن نمد أيدينا إلى فوق لنمسك بها، بل في تنازل الله الرؤوف في رحمته ومحبته، إذ أنزل لنا السماء لنصير " شركاء الطبيعة الإلهية " (٢بط١: ٤). و(في) المسيح أيضاً، يريد خالقنا أن يُعرف بأنه "أبونا" (مت ٥: ٤٥،٦: ٩- ١٣). و(فيه) تحل بركة إبراهيم على كل الأمم (غل٣: ١٤)، وتتجدد شركة الإنسان مع أخيه الإنسان، والرجل مع المرأة، والناس مع بقية الخليقة، والجميع مع الله. و(فيه) تكمل الرؤيا الخاصة بعالم جديد متناغم (إش١١)، يعمّه

السلام(مي٤: ١ -٥)، والشفاء والحرية (إش٦١ : ١- ٣)؛ لأنه (هو) مركز الخليقة الجديدة (مت ١٩: ٢٨)، والسماء الجديدة والأرض الجديدة التي " يسكن فيها البر" (٢ بط ٣: ١٣).

وهنا، نجد رؤية الخليقة الجديدة التي تتمركز حول الإنسان الذي هو الله، (مسيح الكون)، يسوع ربنا.

" الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة. فإنه فيه خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل. وهو رأس الجسد الكنيسة. الذي هو البداءة بكر من الأموات لكي يكون هو متقدماً في كل شيء. لأنه فيه سُرّ أن يحلّ كل الملء. وأن يصالح به الكل لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات. " (كو١: ١٥-٢٠).

واستعادة الكون هذه، ليست عملية طبيعية، فالعالم لن يتطور ببساطة ليصل إلى نقطة النهاية، كما يعتقد "تيار دي شاردان" Teilhard de Chardin [1] **فالخليقة الجديدة، هي ذاتها، عطية من النعمة، وهي لا تتأتّى إلا بقوة قيامة المسيح من الأموات، وفي قوة هذه الحياة المُقامة يكون الشفاء.**

وحين يعود المسيح، ثانية، إلى المركز؛ سيكون هناك شفاء للفرد وللمجتمعات، وحول شجرة الحياة سيكون هناك شفاء للأمم (رؤ٢٢: ٢). بل سيكون هناك شفاء للألسنة، وهذا لقصد معين.

ويتطلع صفنيا النبي إلى مجيء يوم الرب، الذي قال عنه : " لأني حينئذ أحوّل الشعوب إلى شفة نقية. (ولماذا . . . ؟): " ليدعوا كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتف واحدة " (صف٣ :٩).

وميلاد الكنيسة في يوم الخمسين، هو بداية ذلك اليوم. وعطية الروح القدس، الذي انسكب على الكنيسة، هي بداية احتمال أن تتقدم الخليقة كلها نحو ملكوت مجد الله. والأمم الكثيرة التي سمُعت ألسنتها في أورشليم تتحدث بعظائم الله (أع٢ : ١١)، هي أيضاً العلامة على إمكانية ذلك، حين يكون المسيح هو الرب لمجتمع (أنا أنت)، حتى في هذا العالم الغامض.

وهكذا، كان ميلاد الكنيسة، هو العلامة الدالة على أن "دينونة بابل" قد انتهى أمرها. وهذا هو الرجاء الذي توجّهنا نحوه قصة إبراهيم – بل إنها تشير، حتى، إلى أبعد من ذلك. لأن تجديد الله للمجتمع سيُرى في تمامه، حين يجتمع ثانية الرجال والنساء من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، مع

---

[1] Teilhard de Chardin, *The Phenomenon of Man* (E T, collins, 1959).

المخلوقات الأخرى من الأرض والسماء، حول العرش الذي يعلوه نور القوس، ويجتمعون ليرنموا بصوت واحد ترنيمة الخروف قائلين -

" أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلقت " (رؤ ٤: ١١)

وفي هذا أيضاً يكمن رجاؤنا وقوتنا.

قائمة المراجع واختصاراتها، بالنص الأصلي

Bibliography

Augustine, *Confessions*, especially Books XI–XIII.
K. Barth, *Church Dogmatics* (Eng. tr., T.& T. Clark, 1935-).
R. J. Bauckham, "First Steps to a Theology of Nature", *Evangelical Quarterly*, vol. 58/3, 1986, pp. 229ff.
R.J. Bauckham, "The Genesis Flood and the Nuclear Holocaust", *Churchman*, 1985, no. 2, pp. 146 ff.
H. Blocher, *In the Beginning* (IVP, 1984).
D. Bonhoeffer, *Creation and Fall* (SCM, 1959).
M. Buber, *I and Thou* (1937; tr. By W. Kaufmann, T. & T. Clark, 1970).
J. Calvin, *A Commentary on Genesis* (Banner of Truth edition, 1965).
U. Cassuto, *A Commentary on the book of Genesis. Part 1: Adam to Noab* (Eng. tr., Magnes Press, 1961).
D. Clines, "The Signifcance of the "Sons of God" episode (Genesis 6.1-4) in the context of the Primeval History (Genesis 1-11), *Journal for the Study of the Old Testement*, 1979, pp. 33ff.
D. Clines, "Theme in Genesis 1-11", *Catholic Biblical Quarterly*, vol. 38, 1976, pp. 483 ff.
D. Clines, "The theology of the Flood Narrative", *Faith and Thought*, vol. 100, no. 2, 1972-73, pp. 128f.
J. Hick, *Evil and the God of Love* (Macmillan, 1966).
C. F. Keil and F. Delitzsch, *Biblical Commentry on the Old Testament*, vol. 1 (Eerdmans reprint, 1971).
D. Kidner, *Genesis* (Tyndale Press, 1967).
J. Moltmann, *God in Creation* (Eng. tr., SCM, 1985).
J. Moltmann, *The Power of the Powerless* (Eng. tr., SCM, 1983).
J. Moltmann, *The Future of Creation* (Eng. tr., SCM, 1979).
A. R. Peacocke, *Science and the Christian Experiment* (OUP, 1971).
A.R. Peacocke, *Creation and the World of Science* (OUP, 1979).
B.Pillips, *Lower than the Angles* (Bible Reading Fellowship, 1983).
M. Polanyi, *Knowing and Being* (Routledge, 1969).
J. Polkinghorne, *One World* (SPCK, 1986).
J. Polkinghorne, *Science and Creation* (SPCK, 1988).
J. Polkinghorne, *Science and Providence* (SPCK, 1989).

M. W. Poole and G. J. Wenham, *Creation or Evolution: a False Antithesis*? (Latimer House, 1987).
A. Richardson, *Genesis 1-11* (SCM, 1953).
E. A. Speiser, *Genesis,* The Anchor Bible (Doubleday, 1964).
Angela Tilby, *Let There be Light: Praying with Genesis* (Darton , Longman and Todd, 1989).
H. Thielicke, *How the World Began* (Eng. tr., James Clarke, 1964).
W. H. Griffith Thomas, *Genesis: A Devotional Commentary* (Eerdmans, 1946).
K. Thomas, *Man and the Natural World: changing attitudes in England 1500-1800* (Penguin, 1983).
T. F. Torrance, *Space, Time and Incarnation* (OUP, 1969).
G. J. Wenham, *Genesis 1-15,* Word Biblical Commentary (Word Books, 1987).
C. Westermann, *Genesis 1-11: a Commentary* (1974 Eng. tr., SPCK, 1984).
C. Westermann, *Creation* (Eng. tr., SPCK, 1974).
Margery Williams, *The Velveteen Rabbit* (Heinemann, 1922).
G. Von Rad, *Genesis* (Eng. tr., SCM, 1961).

ملاحظات

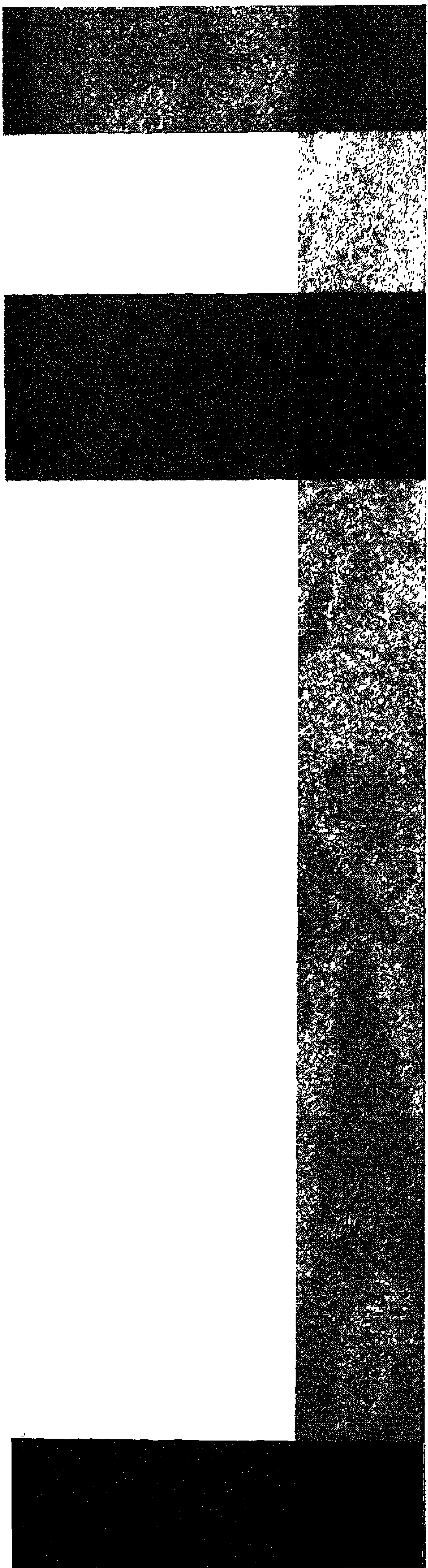
ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات



الكتاب المقدس يتحدث اليوم

BST

The Bible Speaks Today

David Atkinson

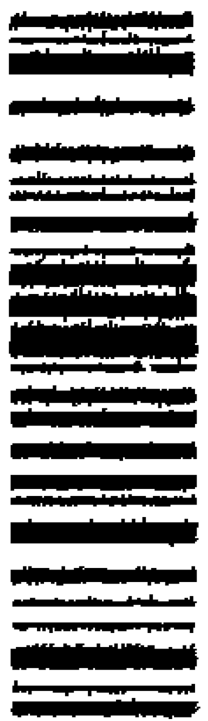
سفر التكوين

الجزء الأول

هذا الكتاب

إنه شرح علمي يعود بنا إلى البدايات، حيث الأصحاحات الأحد عشر الأولى من (سفر التكوين) التي تعلن لنا أصل العالم و بداية الحياة البشرية على الأرض.

و المفسر هنا (ديفيد أتكنسون) David Atkinson يطبق لنا ما في البدايات، على قضايانا المعاصرة، والتي تواجهنا اليوم، ونحن على أعتاب الألفية الثالثة. كما يقدم لنا هذه الأصحاحات، كافتتاحية رائعة للكتاب المقدس كله، و هي الأصحاحات التي تثير فينا الدهشة والانبهار نحو الله، في قوته الخلاقة و جماله المبدع . . . كما تعكس لنا محبته و رحمته و خلاصه؛ حتى في عمق دينونته الرهيبة لمن تحولوا عنه وشوهوا تناغم خليقته.



دار النشر الأسقفية